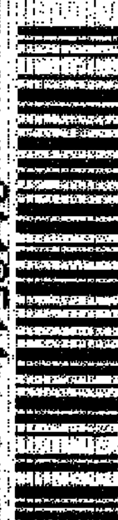
المرأة

والصراع النفسي







د. نوال السعداوي

الجزء الأول

دراســـة

أولا : المقدمة

خلال السنوات الطويلة التى مارست فيها مهنة الطب فى عيادتى الخاصة أو فى المستشفيات العامة، أو من المترددين والمترددات على بيتى من أصحاب المشاكل النفسية والجنسية والاجتماعية، أو من القراء والقارئات الذين تابعوا مقالاتى فى مجلة «الصحة» قبل أن تتوقف، أو الكتب والدراسات التى نشرتها. من خلال ذلك كله ومن خلال زميلاتى وصديقاتى من النساء والفتيات اللاتى يفتحن قلوبهن لى بحكم الصداقة، وبحكم الفهم المشترك، وبحكم أننى امرأة مثلهن، أدرك معاناتهن وأقدرها بل وأحترمها، وأحترم الأخطاء (أو ماتسمى الأخطاء) مثلما أحترم أى تصرف آخر يعتبره المجتمع التصرف الصحيح السليم.

من خلال كل ذلك أدركت الحاجة الشديدة إلى أن نبدأ فى دراسة «العصاب» الذى تشكو منه النساء والفتيات، والذى يمثل ظاهرة جديدة

بين النساء وخاصة النساء المتعلمات.

والعصاب كمرض نفسى قد لا يكون شديداً إلى الحد الذى يعطل المرأة عن عملها أو روتين حياتها اليومية، وقد لا يدفع المرأة إلى الذهاب إلى طبيب نفسى، وقد تعيش به المرأة وتموت به دون أن يدرى من حولها أنها مصابة بالعصاب، بل دون أن تدرى هى نفسها أنها مصابة بالعصاب، أو أسباب تلك الكآبة التى تشعر بها من حين إلي حين، أو أسباب ذلك الصداع المستمر فى نصف رأسها ، أو ذلك الخمول والرغبة فى الكسل والنوم ، أو ذلك الأرق فى بعض الليالى، أو تلك الأحلام المزعجة التى تراها فى نومها بعض الأحيان القليلة أو الكثيرة، أو ذلك الاعراض عن الأكل أو الجنس أحياناً ،أو ذلك النهم الشديد للأكل إلي حد الزيادة فى الوزن بشكل ملفت للنظر، أو ... أو ... ، عشرات الأعراض البسيطة أو الشديدة ، المؤقتة أو الدائمة، لكنها في معظم الأحيان غير قاتلة، أو غير متعارضة مع الأستمرار فى الحياة اليومية وروتين الحياة اليومية . صحيح أن النشاط لم يعد كما كان، وصحيح أن الاقبال على الحياة لم يعد كما كان، وصحيح أن هناك بعض الآلام الجسدية أو النفسية من حين إلي حين، لكن الحياة تسير، ربما تسير ببطء أكثر، وربما تسير بغير بهجة وبغير لذة، لكنها تسير. وما دامت تسير فلا داعى للبحث عن أسباب تلك الأعراض ، أو ادراك كنهها. ربما لا تكون مرضاً يستدعى العلاج، وربما تكون شيئاً طبيعياً تشعر به كل النساء

بسبب الدورة الشهرية، أو مايسمى عرفاً بالمرض الشهرى (الحيض) أو بسبب الحمل أو الولادة، أو بسبب تغير الجو والمواسم، أو بسبب التقدم فى العمر (قد لا تكون المرأة قد بلغت الثلاثين بعد) أو لأي سبب آخر.

ويمثل ماتتجاهل المرأة الأعراض التى تشعر بها ، بمثل مايتجاهلها من حولها من أفراد الاسرة، وبالذات إذا كانت الأسرة من الطبقة الكادحة أو الطبقة المتوسطة أو تحت المتوسطة ، وهذه الطبقات فى مجتمعنا المصرى تشكل الأغلبية الساحقة من الرجال والنساء والأطفال. وتتميز هذه الطبقات بأن مشاكلها الأقتصادية والأجتماعية تغلب علي مشاكلها الأخرى، وليس هناك من جهد أو وقت للاهتمام بالأغراض الجسدية غير الملحة أو غير المتعارضة مع سير الحياة، أو غير القاتلة أو المعجزة لرب الأسرة الكادح أو الرجال الذين ينفقون على الأسرة. أما الأعراض غير الجسدية (أو النفسية) فلا أحد يهتم بها أو يلحظها، اللهم إلا إذا تحولت إلى مرض عقلى شديد، أو الجنون الكامل الذي يحول دون ذهاب الرجل إلى عمله أو يجعله خطراً على الأسرة أو المجتمع.

وحيث أن مكانة المرأة فى الأسرة المصرية أقل من الرجل بصفة عامة فأن نصيب المرأة من التجاهل والأهمال أكثر من نصيب الرجل ، وصحة المرأة الجسدية ليست في أهمية صحة الرجل الجسدية. أما صحة المرأة النفسية، فهذا أمر لا تفطن إليه الأغلبية الساحقة من الأسر المصرية إلا فى حالة واحدة، وهى حالة جنون المرأة الواضح، الذى يعطل المرأة عن

عملها فى البيت أو فى الحقل أو فى المصنع أو فى المكتب، وتصبح بلا فائدة، أوتصبح مصدراً للمشاكل ، حينئذ يدرك الجميع أنها مريضة ولابد من ادخالها المستشفى العقلى أو النفسى، بغرض العلاج أو بغرض التخلص من وجودها داخل الاسرة.

لكن المرأة فى الطبقات المستريحة اقتصادياً أكثر حظاً بالعناية، وان كان حظها من العناية أقل من حظ الرجل فى الأسرة نفسها، اللهم إلا إذا كانت امرأة ثرية، وهى التى تنفق من أموالها على زوجها وأولادها.حينئذ تتغير القيم، وتشعر المرأة بقيمتها. ويشعر من حولها أيضاً بقيمتها، وتصبح أعراضها الجسدية أو النفسية محط الاهتمام والعناية . فهى فى النهاية التى تدفع نفقات الطبيب والعلاج، وهى صاحبة القرار فى اعتبار «الصداع» مثلا مرضاً يستحق زيارة الطبيب أو مجرد شئ طبيعى يحدث لكل النساء، وهى التى تقرر ماإذا كان المفروض أن تذهب إلى طبيب باطنى أو أمراض نساء أو طبيب نفسى.

على ان مثل هؤلاء النساء قليلات، فالمرأة حتى وان كانت تنفق على الأسرة أو تشارك فى الأنفاق فهى مازالت خاضعة بحكم العرف والقوانين والأديان للرجل، وكثيراً مايسيطر الرجل على مالها أو راتبها الشهرى ويصبح هو صاحب القرار فيما إذا كان الصداع أو الأرق سبباً يستحق التضحية بخمسة جنيهات أو عشرة.

ويمكن لنا أن نتصور هذه النسبة القليلة جداً من النساء اللاتى

يستطعن فى النهاية الوصول إلى الطبيب النفسى بسبب أعراض العصاب المؤقتة أو الدائمة وليس بسبب الهستيريا الواضحة.

وإذا عرفنا أن أغلبية أطباء النفس في مصر رجال، وأنهم لا يختلفون كثيراً بحكم التربية والتعليم والدين والعرف من الرجال الآخرين من حيث نظرتهم إلى المرأة، وأنهم بحكم التعليم الطبى التقليدى المتوارث عن سيجموند فرويد الوريث الشرعى لكهنة العصور الوسطى، لا يعرفون حقيقة المرأة جسداً ونفساً، أو يعرفونها من خلال نظرية فرويد الخالدة التى حكمت بأن المرأة ذكر ينقصه عضو الذكر، أو أنثى خصيت جسداً وعقلا بحيث لا يزيد طموحها الجسدى أو العقلى عن الأكل والانجاب والطاعة وخدمة الرجل والاطفال.

إذا عرفنا أن أغلبية أطباء النفس فى مصر (بل فى العالم الأبوى كله أيضاً) على هذا النحو، فما الذى يمكن أن يفعله الطبيب النفسى لعلاج امرأة مصابة بالعصاب، خاصة إذا علمنا أن العصاب يصيب النساء بسبب ذلك الاحباط المستمر فى طموحهن الجسدى والعقلى نتيجة ذلك المفهوم التقليدى عن أن المرأة أقل من الرجل جسداً وعقلا، وأنها لم تخلق إلا لخدمة الرجل والاطفال والطاعة والانجاب.

ولا أعني بذلك أن الطبيبات النفسيات أحسن حالاً من الأطباء لمجرد كونهن نساء ، فكم من امرأة أكثر تخلفاً في نظرتها لنفسها ولبنات جنسها من الرِجال. لكنى أعني أن الطب النفسى والجسدي لازال يشتمل

علي حقائق غير حقيقية. ولا زال في حاجة إلى عقول ثورية تنقيه من خزعبلات العصور الوسطى. وتدعمه بالأفكار المتنورة الحديثة عن المرأة وعن الرجل أيضاً.

بل لابد من الاعتراف بفضل عدد من النساء والرجال من مختلف البلاد في الشرق والغرب الذين ساهموا في الماضي القريب والبعيد في تغيير الحقائق النفسية والطبية التقليدية، والذين لا يساهمون حتى اليوم، ولا زالوا يدرسون ويبحثون ويكتبون ويشورون رغم مايصادفون من معاناة ومشاق قد تصل إلى حد السجن أو الضرب أو الفصل من العمل أو التجويع أو القتل.

ان هؤلاء الرواد القلائل من النساء والرجال هم الذين مهدوا الطريق أمامنا، وعلينا أن نواصل المسيرة والبحث من أجل حياة أفضل للنساء والرجال والاطفال، لا يقلل من عزيمتنا تشريد أو تجويع أو اضطهاد ، فالأفكار الجديدة في كل مكان وزمان تصارعها الأفكار القديمة، والتاريخ البشرى قد أثبت في جميع الأزمنة والعهود أن الأنتصار دائماً في صف الجديد، وفي صف التقدم. ومن أجل هذا تسير حياة البشر إلى الأمام وليس إلى الوراء.

ثانيا : ماهو حجم المشكلة

أدركت وجود المشكلة (وهى اصابة النساء المصريات بالعصاب) من كثرة الأعراض العصابية التى كانت تشكو منها النساء والفتيات اللاتى كن يترددن على عيادتى أو بيتى أو مكتبى فى مجلة «الصحة»، ومن أن نسبة كبيرة من صديقاتى النساء المتعلمات كن يشكين لى دائماً من أعراض نفسية وعصابية. وقد لاحظت بصفة عامة أن حياة المرأة فى مجتمعنا المصرى حياة لا تحقق لها السعادة أو الصحة النفسية ، وأنه من النادر جداً إذا ماصادفت امـرأة تشـعر بالرضـى أو بالتحقق جسـدياً أو نفسياً.

وانطلاقاً من هذا الادراك غير المدعم بالأرقام العلمية فقد بدأت أبحث عن حجم المشكلة الحقيقى، أو عن نسبة اصابة النساء بالعصاب فى مجتمعنا. وقد لجأت من أجل هذا إلى مراكز البحوث عندنا سواء فى الجامعات أو المعاهد، ودهشت حينما أكتشفت أن مثل هذه البحوث غير موجـودة. وأن أحـداً لا يعـرف النسـبة الحقيقيـة للعصاب بين

النساء والفتيات.

إلا اننى ألتقيت فى كلية الطب بجامعة عين شمس بالزميل الاستاذ الدكتور أحمد عكاشه والدكتور عادل صادق، وهما اللذان وجهانى إلى العيادة النفسية التابعة للمراقبة العامة للشؤون الطبية لجامعة عين شمس ، وهذه العيادة النفسية هى المختصة بفحص وعلاج المرضى والمريضات نفسياً من طلبة وطالبات جامعة عين شمس.

وقد رأيت أنه يمكن من خلال الأطلاع على دفاتر هذه العيادة النفسية الوصول إلى نسبة تقريبية عن الأصابة بالعصاب بين طالبات جامعة عين شمس كالآتى :

أولا : العيادة النفسية بالمراقبة العامة للشؤون الطبية لجامعة عين شمس

تخدم : ٥٤٢٤٠ طالبا وطالبة

منهم : ٢٩٨٣٢ طالبة

و : ٢٤٤٠٨ طالبا

عدد المريضات بالعصاب من الطالبات حسب تشخيص أطباء العيادة النفسية : ٢٧٣٥ طالبة

عدد المرضي بالعصاب من الطلبة : ١٥٣٤ طالبا

نسبة العصاب بين الطالبات = ١ر٩ بالمئة

نسبة العصاب بين الطلبة = ٢ر٦ بالمئة

من هذه الأرقام يتضح أن نسبة العصاب بين الطالبات أعلى منها بين الطلبة، وهذا أمر يستدعى البحث والدراسة لمعرفة الأسباب التى تجعل الطالبة المصرية أكثر عرضة للأصابة بالعصاب من زميلها الطالب المصرى الذى يعيش فى الظروف الاجتماعية والاقتصادية نفسها .

كما أننا لو أعتبرنا أن طالبات جامعة عين شمس يمثلن الطالبات المصريات الجامعيات بصفة عامة بمختلف طبقاتهن وأسرهن، فأن نسبة ٩ بالمئة تقريبا كمؤشر عام لنسبة الاصابة بالعصاب انما هى نسبة مرتفعة، خاصة لو وضعنا فى اعتبارنا أنها أقل من الحقيقة، لأن عدداً من طالبات الجامعة (وخاصة من الاسر العالية وفوق المتوسطة) لا يذهبن إلى العيادة النفسية التابعة للجامعة وانما يذهبن إلى طبيب الأسرة الخاص ولا تعلم العيادة النفسية الجامعية عنهن شيئا.

ولو أننا أعتبرنا الطالبات الجامعيات كممثلات للنساء المتعلمات فى مصر، لأستطعنا أن نقول أنه من بين كل مائة امرأة متعلمة فى مصر فأن تسعة نساء منهن معرضات للأصابة بالعصاب. وهذه نسبة مفزعة فى العلوم الطبية بجميع فروعها وتمثل فى حد ذاتها مشكلة تستوجب الدراسة والعلاج.

وقد كان من الطبيعى بعد الوصول إلى هذه النسبة للأصابة بالعصاب بين النساء المتعلمات أن أبحث عن النسبة بين النساء غير المتعلمات. ولم يكن أمامى من مكان للحصول على البيانات المطلوبة سوى عيادة مصر

الجديدة الشاملة التابعة للهيئة العامة للتأمين الصحى (فرع القاهرة).

ومن دفاتر العيادة النفسية لهذه الوحدة حصلت على البيانات التالية :

تخدم : ٩٨٧١ عاملا وعاملة

منهم : ١٩٩٢ عاملة

و : ٧٨٧٩ عاملا

عدد المريضات بالعصاب بين العاملات حسب تشخيص أطباء العيادة النفسية : ١٤٣ عاملة

عدد المرضى بالعصاب بين العمال : ٣٩٦ عاملا

نسبة العصاب بين العاملات = ١٧ر٧ بالمئة

نسبة العصاب بين العمال = ٠٢ر٥ بالمئة

ومن هنا أيضاً يتضح أن نسبة الأصابة بالعصاب بين النساء غير المتعلمات أعلى منها بين الرجال غير المتعلمين الذين يعيشون فى الظروف الأقتصادية والأجتماعية نفسها.

وبالتعمق الأكثر فى بيانات هذه العيادة أتضح أنها تخدم العاملات والعاملين في خمسة بنوك يشملها التأمين الصحى (البنك الأهلى وبنك القاهرة وبنك مصر وبنك الاسكندرية وبنك ناصر) وتخدم العاملين والعاملات فى ثلاثة شركات أدوية (الشركة العربية للأدوية وشركة النيل للأدوية والشركة المصرية لتجارة الأدوية) وتخدم العاملين والعاملات فى شركة عمر أفندى بمصر الجديدة وشركة شيكوريل بمصر الجديدة وشركة

الازياء الحديثة بمصر الجديدة وشركة مصر للالبان بمصر الجديدة.

وأتضح لى أن أغلبية هؤلاء العاملات لم يحصلن على أكثر من الابتدائية، وبعضهن لا يقرأ ولا يكتب، ونسبة قليلة حصلت على شهادة متوسطة، وهنّ موظفات يعملن أعمالاً كتابية.

وقد وجدت أن عدد هؤلاء الموظفات فى البنوك الخمسة التى تخدمها العيادة : ١٠٨ موظفات . وكان عدد حالات العصاب بين الموظفات : ٩ حالات. أى أن نسبة العصاب بينهن = ٣ر٨ بالمئة.

وهذه النسبة تزيد قليلاً عن نسبة الأصابة بالعصاب بين العاملات غير المتعلمات، لكنها تقل عن نسبة الأصابة بالعصاب بين النساء الجامعيات المتعلمات. وهذا يشير إلى أن المرأة تصبح معرضة للأصابة بالعصاب كلما زادت درجة تعلمها.

ويمكن القول مما سبق أن حجم المشكلة كبير ويستدعى الأنتباه بل الفزع. ان نسباً أقل من هذه النسبة بكثير أفزعت الأطباء فى بلاد مختلفة. ان حجم الاصابة بالأمراض النفسية الذى فزعت له الولايات المتحدة الاميركية لم يصل إلى هذه النسبة، ويقول الدكتور والتر الفاريز : «كم كانت الصدمة علىّ حين علمت (منذ سنوات ماضية) أن من بين كل عشرين طفلا يولدون فى نيويورك هناك طفل واحد معرض للذهاب إلى المستشفى النفسى».

وقد يتصور الناس مبلغ الصدمة التى شعرت بها حين أدركت أنه من

بين كل عشر بنات يولدن فى مصر فأن هناك بنت واحدة معرضة للمرض النفسى.

أهناك دافع أقوى من هذا الدافع لأجراء مثل هذا البحث. ومحاولة معرفة الأسباب الحقيقية وراء هذه المشكلة من أجل الوصول إلى العلاج الصحيح ؟

وهكذا يمكن تحديد الهدف من هذا البحث كالآتى :

دراسة الأسباب وراء اصابة النساء والفتيات المصريات بالعصاب والقاء بعض الضوء على المشاكل النفسية التى تتعرض لها المرأة فى مجتمعنا المصرى ومحاولة التعرف على أسبابها الحقيقية بين النساء المتعلمات وغير المتعلمات.

ثالثا : حول التعريفات العلمية

بالرغم من المثل الصينى المعروف الذى يقول بأن «بداية الحكمة هى تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة » فأنه فى مجال الدراسات الطبية النفسية لا يمكن بحال من الأحوال اتباع رأى هذا الصينى الحكيم. فمن المعروف أنه لم يحدث أن أتفق أثنان من أطباء النفس على تشخيص

واحد أو تعريف واحد. ويقول دوجلاس كامبيل : «ليس هناك من فرع من الطب يحتوى على كل هذه التعريفات (والنظريات أيضاً) المتباينة المتغيرة مثل الطب النفسى المعاصر».

وبعد قراءتى لتعريفات أطباء النفس لمرض العصاب فقد أدركت فى النهاية أنهم جميعاً لا يتفقون على شئ. وقد أشارت . أ. روس أن كلمة عصاب قد أختلطت بكلمة المرض العصبى إلى حد عدم القدرة على التفرقة بينهما. وأنه لهذا السبب كف تماماً عن استخدام كلمة المرض العصبى.

ولم يعد مهماً لدى أطباء النفس (بسبب عدم وجود تعريفات صحيحة) تسمية المرض النفسى بأسم معين. ولكن المهم هو أن يُدَرك بوضوح أنه مرض نفسى وليس مرضاً عقلياً أو «الدهان» وأن يدرك أنه مرض نفسى وليس مرضا عضوياً أو جسدياً.

وقد أعتقد ت .أ. روس وغيره من العلماء أن المرض النفسى العصاب لا يمكن أن يتحول إلى مرض عقلى او دهان. وأعتقد آخرون أن المرض النفسى اضطراب فى شخصية الانسان وانفصال بينه وبين المجتمع. وآخرون يعتقدون أن المرض النفسى ليس إلا مبالغة لاحدي الصفات أو التصرفات الطبيعية لشخصية الانسان. ويعتقد كوب أنه فى الحالات المبكرة يمكن الوقوع فى الخطأ وتشخيص المرض العقلى على أنه مرض نفسى فقط .

ولا شك أن هذا التخبط فى التعريفات يعكس المشكلة الاساسية فى الطب النفسى، وهى التخبط فى معرفة أسباب المرض النفسى أو العصبى أو العقلى. أن الجهل بالأسباب الحقيقية يقود إلي جهل بالتعريفات. ولهذا فقد أصبح كثير من أطباء النفس الجدد يكرسون جهودهم لمعرفة أسباب المرض الحقيقية، وقادهم البحث إلى أن يرفضوا المفاهيم النفسية القديمة عن كل من المرأة والرجل أو الطفل. وأن يرفضوا تلك التسمية التى شاعت فى الطب النفسى بأنه مجنون أو عصابى أو طبيعى. وهناك أطباء اليوم يعتقدون أن مثل هذه التسميات خاطئة. فليس هناك من يمكن أن يسمى بالطبيعى، ومن يطلق عليه «عصابى» قد يكون هو الصحيح نفسياً. ومن يطلق عليه «الطبيعى» قد يكون هو المريض نفسيا.

وينطبق هذا الكلام على كل من الرجال والنساء. ومن هنا صعوبة تحديد معنى امرأة عصابية أو مريضة بالعصاب. وبالمثل أيضاً صعوبة تعريف امرأة طبيعية أو سليمة نفسياً. ان دراسة الطب النفسى التقليدى ابتداء من بنيامين روش سنة ١٨١٢ إلى سيجموند فرويد فأننا نجد أن هذا الطب النفسى كان يميل إلي تفسير جميع أنواع السلوك غير العادية علي أنها نوع من المرض النفسى. وقد أعتبرت المرأة الذكية الطموحة في الحياة امرأة عصابية لأنها ترفض وضعها الأدنى بالنسبة للرجل وترفض دورها المفروض عليها فى البيت كخادمة للرجل، والاطفال. أما المرأة

الطبيعية فهى تلك المرأة التى تقبل وضعها الادنى برضى وسرور وتجد سعادتها فى خدمة زوجها وأطفالها. وقد آمن الطب النفسى بأن الصحة النفسية هى التكيف مع المجتمع. وأن المرض النفسى هو عدم التكيف مع المجتمع، أو رفض القيم أو الدور الذى يفرضه المجتمع على الأنسان رجلا كان أو امرأة.

وقد وجدت أن التعريف العالمى والمعدل لمعنى العصاب يقول :

«يصبح الانسان مريضاً بالعصاب إذا صادف صعاباً فى التكيف مع هدوئه الداخلى أساساً، أو مع علاقاته بالآخرين. أو الأثنين معاً. ان الشخصية الانسانية فى محاولتها للتكيف مع الضغوط داخل النفس وخارجها، تستخدم أعراضاً نفسية أو جسمية ، وتختلف بذلك عن أمراض اضطراب الشخصية التى يحدث فيها نماذج معينة من السلوك».

وقد أنتهيت إلى أن أفضل الطرق التى تتفق مع هدف بحثى هو أن أضع شروطاً محددة لأختيار المرأة العصابية كالآتى :

أن تكون المرأة قد شخصت بواسطة طبيبها الخاص أو بالعيادة الخارجية النفسية أو المستشفى النفسى على أنها مريضة بالعصاب (أى نوع من أنواع العصاب المعروفة فى الطب النفسى). وأن تكون قد تناولت أى نوع من أنواع العلاجات النفسية الخاصة بالعصاب لمدة سنتين على الأقل، وأنها لا تزال تشعر بالأعراض النفسية.

وبالرغم من قصور هذا التعريف. وبالرغم من تحفظي الشديد على

مدى صحة تشخيص الطبيب النفسى الخاص أو العام. وبالرغم من أن عدداً من النساء والفتيات اللاتى تم تشخيصهن على أنهن عصابيات قد وجدت أنهن يتمتعن بصحة نفسية أكثر من عدد من النساء والفتيات الطبيعيات . وبالرغم من كل ذلك، فقد كان لابد من التحديد لكلمة امرأة عصابية وفقاً لمقاييس معروفة فى الطب النفسى.

أما المرأة الطبيعية فقد تم تحديدها كالآتى :

هى المرأة التى لم تشعر فى يوم من الأيام بأى أعراض نفسية تدعوها إلي استشارة الطبيب، ولم تضطر فى يوم من الأيام إلى تناول أقراص مهدئة أو منومة من تلقاء نفسها أو بواسطة طبيب.

وحيث أننى فرقت فى البحث بين النساء المتعلمات والنساء غير المتعلمات، فقد حددت معنى امرأة متعلمة كالآتى :

هى المرأة المتعلمة تعليماً عالياً (جامعى) أو التى تعمل فى عمل فكرى أو فنى خلاق.

أما المرأة غير المتعلمة فهى :

المرأة التى حرمت من التعليم الجامعى، أو تعلمت تعليماً منخفضاً أو متوسطاً، وتكون ربة بيت فقط ، أو تعمل عملا آلياً يدوياً روتينياً أو عملا من أعمال الخدمة.

كلمة عن منهج البحث :

لم أتبع فى هذا البحث الأسلوب التقليدى فى جمع المعلومات من

النساء والفتيات اللاتى أخترتهن لهذه الدراسة. كنت أستقبل الواحدة منهن فى بيتى كما أستقبل صديقة قديمة، أو أزور الواحدة منهن فى منزلها أو مكان عملها كما أفعل مع صديقاتى المقربات . ولم تكن الجلسة تتسم بالرسمية، أو الجو البارد الذى يشيعه البحث العلمى عادة، ولم أكن أمسك ورقة وقلماً، ولم أكن أوجه أسئلة وأنتظر أجوبة، ولم أضع نفسى موضع الطبيب الذى يشخص الداء، أو موضع القاضى الذى يصدر أحكاماً، أو موضع الواعظ الذى يعطى نصائح. كنت أترك الواحدة منهن تفتح قلبها وتحكى مشكلتها، وأشجع الواحدة منهن على أن تتجرد أمامى من كل الأقنعة التى ترتديها حين تقابل الناس فى حياتنا الاجتماعية. وأول خطوات التشجيع هى أن أخلع أنا نفسى القناع . فيرون نفسى على حقيقتها.

وقد أستطعت بهذه الطريقة أن أجعل هؤلاء النساء والفتيات يفتحن قلوبهن لى.ويحكين لى عن أدق أسرار حياتهن، وأحياناً تلك الأسرار التي لا يقولها الأنسان حتى لنفسه، وتظل مجهولة لديه إلى الأبد. وأدركت أن الصدق يشد إليه الصدق. والقلب المفتوح يجذب إليه القلب المفتوح . وأنه بغير هذا لا يمكن للباحث أو الباحثة أن يحصل على معلومات صحيحة من «الأنسان» الذى يحاول أن يفهمه. ان معظم الباحثين أو الأطباء يستبدلون كلمة «الأنسان» بكلمة «المريض» أو «الحالة» ويستبدلون كلمة «يحاول أن يفهمه» بكلمة «يفحصه» ولذلك

يعجز الكثير من الباحثين والأطباء عن فهم الانسان الذى يقع تحت أيديهم. وكم من المعلومات الخاطئة يدونها هؤلاء الباحثون فى استماراتهم، وكم يتهم بعض الاطباء (وبالذات أطباء النفس) مرضاهم ومريضاتهم بأنهم يكذبون، ويجرون عليهم اختبارات نفسية لقياس الكذب.

ولكن كيف يمكن لأنسان أن يفتح قلبه أمام قلب مغلق ؟ كيف يمكن لأنسان أن يرفع القناع عن نفسه وأمامه انسان مقنع ؟ كيف يمكن أن يحكى الأنسان عن ضعفه وأخطائه ونزواته وهفواته لأنسان قوى مزهو بنفسه مسلح بالقيم والشهادات وجالس وراء مكتب فخم. فى يده ورقة وقلم. وعينه على الساعة، أو على جيب المريض.

وقد أخترت هؤلاء الفتيات والنساء ممن يطلق عليهن أسم «المريضات نفسياً» أو «العصابيات» من العيادات والمستشفيات النفسية. ومن سجن القناطر للنساء. ومن العيادة النفسية لطالبات جامعة عين شمس. ومن النوادى . ومن شركات صناعية. ومكاتب حكومية. والعيادة النفسية لهيئة التأمين الصحى. وبعض ربات بيوت فقط. وبعضهن فلاحات، وبعضهن جئن إلى من تلقاء أنفسهن سعياً وراء حل أو علاج، وبعضهن فنانات أو كاتبات من صديقاتى.

ولا يمكن لى أن أقول أن هؤلاء الفتيات والنساء يمثلن نساء مصر. أو نساء المجتمع العربى بصفة عامة. ولا يمكن لي أن اعمم النتائج التى

حصلت عليها على جميع النساء المصريات أو العربيات.

فمن أهم المشاكل التى تعترض البحوث الاجتماعية النفسية عندنا هو عدم وجود أطلس لمشاكلنا الأجتماعية النفسية يستند إلي مسح شامل للرأي العام تقدمه عينات ممثلة لقطاعات المجتمع المختلفة، ولهذا لا يمكن لأى باحث بمفرده أن يقدم عينة ممثلة للمجتمع المصرى. وأي نتائج يخرج بها لا يمكن أن تكون ممثلة للمجتمع المصرى بجميع قطاعاته المختلفة.

وقد أجرى البحث على أربع مجموعات من النساء كالآتى :

المجموعة الأولى : ٥٠ امرأة متعلمة عصابية

المجموعة الثانية : ٥٠ امرأة غير متعلمة عصابية

المجموعة الثالثة : ٣٠ امرأة متعلمة طبيعية

المجموعة الرابعة : ٣٠ امرأة غير متعلمة طبيعية

الخلو من أى مرضى جسمى :

تم اختيار الحالات بحيث تكون جميع المجموعات الأربعة خالية من أى مرض جسمى أو عضوى، وأجريت الفحوص الطبية أو الفحوص المعملية اللازمة فى حالة التشكك من وجود مرض عضوى، وتم اخراج أية حالة بأى مرض عضوى.

أدوات البحث :

كانت الوسيلة للبحث هو الفحص النفسى الأجتماعى الكامل لكل

حالة. وذلك عن طريق مقابلتى الشخصية مع كل حالة. وكنت أضطر فى بعض الحالات أن أقابل بعض أفراد الأسرة أيضاً كالأب أو الأم أو الزوج أو الرئيس فى العمل. وهناك حالات ألتقيت بهامرة واحدة. وأستغرقت الجلسة من ساعة ونصف إلى ثلاث ساعات. وهناك حالات أخرى قابلتها أكثر من مرة لساعات طويلة. وقد وضعت على الورق تخطيطاً للأسئلة التى أسعى إلى معرفة الاجابة عليها. لكن لقائى مع الحالات لم يأخذ شكل الأسئلة والاجوبة التى تدون على الورق، أو ذلك الجو الرسمى الذى ينشأ بين الباحث العلمى والحالة.كان لقائى بالنساء والفتيات أبعد مايكون عن جو البحث العلمى. ولم أكن أمسك القلم فى يدى وأكتب شيئاً إلا بعد أن أجلس وحدى بعد أن تتركنى المرأة أو الفتاة. كنت أدرك أنني أريد الوصول إلى الاعماق العميقة لكل حالة، ولم يكن هذا ممكناً، إلا فى جو من الود والتعاون والفهم والثقة، وكثيراً ماألتقيت بالحالات فى بيتى، أو أدعوهن على فنجان شاى فى الهواء الطلق أو أزورهن فى بيوتهن.

وكم كنت أود أن أستعرض تفصيلاً كل لقاء تم بينى وبين هذه الحالات، لكن ذلك لم يكن ممكناً. وكان من الممكن فقط أن أختار بعض الحالات وأكتب عنها بشئ من التفصيل ، وأن أجمع نتائج المجموعات الأربعة على شكل جداول بسيطة، وأن أستخلص من الارقام بعض النسب والاحصاءات الضرورية لأى بحث.

النقاط الأساسية التى دارت حولها الاسئلة :

١ـ الطفولة :

الجو الأقتصادى والأجتماعي والعاطفى ـ نوع الحرمان ـ علاقة الاب والأم والأخوة الذكور والبنات ـ موقف الأسرة من البنت وتعليمها وعملها ـ موقف الأسرة من الجنس ـ حوادث جنسية معينة ـ عملية ختان وموعدها ـ المداعبات الجنسية والعادة السرية ـ أمراض عصابية فى الطفولة ـ تفضيل الذكور عن البنات فى الأسرة ـ هل تمنت أن تكون ولداً ـ سيطرة فرد بالأسرة.

٢ـ المراهقة :

طموحها وأملها فى الحياة ـ علاقتها بالمدرسة والتعليم ـ الحالة الأجتماعية والعاطفية فى المدرسة ـ حياتها الأجتماعية والعاطفية داخل الأسرة ـ علاقتها بالجنس الآخر ـ العادة السرية ـ نوع الحرمان العاطفى أو الجنسى ـ بدء الدورة الشهرية وآلامها ـ الأحتلام ليلاً ـ المعلومات عن الجنس ـ مشاكل عاطفية أو جنسية ـ أحلام اليقظة.

٣ـ العمل :

موقف مجتمع العمل من كونها امرأة ـ الحياة الأجتماعية والعاطفية فى محيط العمل ـ علاقتها برئيسها وزملائها ـ الأسباب التى تدعوها إلي العمل ـ موقف الأسرة أو الزوج من عملها ـ هل تقوم بالاعمال

المنزلية إلى جانب عملها ـ نوع العمل وعلاقته بطموحها ـ مشاكل المواصلات ـ مشكلة دار الحضانة.

٤ـ الزواج :

أسباب الزواج ـ علاقتها بزوجها قبل الزواج ـ مساهمة الزوج فى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال ـ الأشباع الجنسى مع الزوج ـ نوع العلاقة مع زوجها ـ علاقات أخرى خارج الزواج ـ مشاكل مع الزوج بسبب العمل أو الأسباب الأخرى ـ استخدام وسائل منع الحمل ـ الأجهاض أو وفيات الأطفال ـ علاقتها بأطفالها البنات والذكور ـ هل حياتها أفضل من حياة أمها ـ هل ترتبط بزوجها مرة أخرى لو عادت السنين الى الوراء ـ العلاقة بأهل الزوج ـ مشاكل فى البيت ـ طلاق ـ زوجة أخرى ـ مشاكل الأطفال.

٥ـ الفحص النفسى :

الأحلام ـ التخيلات وأحلام اليقظة ـ محاولات الأنتحار ـ الأرق ـ الصداع ـ نوع العلاج الذى أخذته ـ مدة العلاج ـ علاقتها بالطبيب النفسى ـ الشخصية والسلوك ـ الكلام ـ التفكير ـ الهلاوس ـ المخاوف ـ الأندفاعات ـ الأدراك ـ الذاكرة ـ درجة الأنتباه والتركيز ـ البصيرة.

٦ـ قصة المرض النفسى كما ترويه السيدة او الفتاة بنفسها.

٧ـ السبب الرئيسى وراء اضطرابها النفسى.

وكانت خصائص العينة كالآتى :

(١) السن :

جدول رقم (١)

السن	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غيرمتعلمة طبيعية
٢٠ـ٢٤ سنة	٥٤ بالمئة	٣٨ بالمئة	٤٠ بالمئة	٣٤ بالمئة
٢٥ـ٢٩ سنة	٤٦ بالمئة	٦٢ بالمئة	٦٠ بالمئة	٦٦ بالمئة

(٢) الحالة الزوجية :

جدول رقم (٢)

الحالة الزوجية	متعلمة عصابية	غير متعلمة	متعلمة طبيعية	غيرمتعلمة طبيعية
لم تتزوج	٢٦ بالمئة	٢٤ بالمئة	٣٠ بالمئة	٢٣ بالمئة
متزوجة	٦٤ بالمئة	٧٠ بالمئة	٧٠ بالمئة	٧٣ بالمئة
مطلقة	٨ بالمئة	٦ بالمئة	-	٤ بالمئة
أرمل	٢ بالمئة	-	-	-

(٣) العمل :

جدول رقم (٣)

العمل	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
عمل فنى أو خلاق	١٨ بالمئة	-	١٤ بالمئة	-
عمل روتينى أو آلى أو يدوى	١٢ بالمئة	٧٤ بالمئة	١٠ بالمئة	٦٦ بالمئة
طالبة بالجامعة	٥٦ بالمئة	-	٦٦ بالمئة	-
ربة بيت فقط	١٤ بالمئة	٢٦ بالمئة	١٠ بالمئة	٣٤ بالمئة

(٤) المستوى الاقتصادى :

جدول رقم (٤)

الطبقة الأجتماعية	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية
فوق المتوسط أكثر من ١٥ ج للفرد فى الشهر	٢٢ بالمئة	٤ بالمئة	٢٩ بالمئة	٣ بالمئة
متوسطة ١٥ ج للفرد فى الشهر	٧٨ بالمئة	٥٤ بالمئة	٧١ بالمئة	٧٦ بالمئة
تحت المتوسطة أقل من ١٥ ج للفرد شهرياً	-	٤٢ بالمئة	-	٢١ بالمئة

ثانياً : مشاكل فى الطفولة :

جدول رقم (٥)

نوع مشاكل الطفولة	متعلمة عصابية	غير متعلمة عصابية	متعلمة طبيعية	غير متعلمة طبيعية	المجموع	العدد الكلى للحالات	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفى من الأب أو الأم	٢١	٢٨	١٣	١٤	٧٦	١٦٠	٥ر٤٧ بالمئة
تفضيل الذكور عن الاناث فى الأسرة	٣٣	٤٤	١٧	٢٢	١١٦	١٦٠	٥ر٧٢ بالمئة
حوادث جنسية معينة مع رجال كبار	١٩	٢٣	٨	١٣	٦٣	١٦٠	٣ر٣٩ بالمئة
العادة السرية أو مداعبات جنسية أثناء الطفولة	٣٢	٣٠	٦	٣	٧١	١٦٠	٣ر٤٤ بالمئة
تمنت أن تكون ولدا	٣٦	٢٩	١٩	٩	٩٣	١٦٠	١ر٥٨ بالمئة
أجرى لها عملية الختان	٢٩	٤٨	٢٤	٣٠	١٣١	١٦٠	٨ر٨١ بالمئة
ازمات اقتصادية	٦	١٧	٤	٩	٣٦	١٦٠	٥ر٢٢ بالمئة

نتائج البحث :

١ـ مشاكل الطفولة : يتضح من الجدول رقم ٥ أن عملية الختان شائعة، بصفة عامة بين المجموعات الأربعة (٨ر٨١ بالمئة) ، كذلك تفضيل الذكور عن البنات فى الأسرة (٥ر٧٢ بالمئة) ، وأرتفاع نسب المشاكل الجنسية والعاطفية بصفة عامة عن المشاكل الاقتصادية.

كذلك يتضح أن القسوة أو الحرمان العاطفى من الأب أو الأم ليس عاملاً من عوامل الأصابة بالعصاب فى هذه الحالات ، فهو يكاد يتساوى فى المجموعات العصابية مع المجموعات غير العصابية.

على أنه يزيد فى الحالات غير المتعلمة عنها فى المتعلمة حسب الجدول رقم ٥ ـ أ.

جدول رقم (٥) أ

نوع المجموعة	حرمان عاطفى فى الطفولة	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	٢١	٥٠	٤٢ بالمئة
غير متعلمة عصابية	٢٨	٥٠	٥٦ بالمئة
متعلمة طبيعية	١٣	٣٠	٣ر٤٣ بالمئة
غير متعلمة طبيعية	١٤	٣٠	٦ر٤٦ بالمئة

جدول رقم (٥) ب

نوع المجموعة	تفضيل الذكور عن الأناث	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	٣٣	٥٠	٦٦ بالمئة
غير متعلمة عصابية	٤٤	٥٠	٨٨ بالمئة
متعلمة طبيعية	١٧	٣٠	٥٦ر٦ بالمئة
غير متعلمة طبيعية	٢٢	٣٠	٧٣ر٣ بالمئة

وفى جدول ٥ ب ـ نرى أن تفضيل الذكور عن الأناث فى الأسرة يحدث بنسبة أعلي فى المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية، ويرتفع أيضاً فى المجموعات غير المتعلمة عن المجموعات المتعلمة. وبالنسبة لأثر الحوادث الجنسية مع رجال كبار فى الطفولة فهى تتضح من الجدول رقم ٥ ـ جـ .ويرى أن نسبة الحوادث الجنسية أعلى فى المجموعات العصابية عن المجموعات غير العصابية ويرتفع أيضاً فى المجموعات غير المتعلمة.

جدول رقم (٥) جـ

نوع المجموعة	حوادث جنسية مع رجال	المجموع	النسبة المئوية
متعلمة عصابية	١٩	٥٠	٣٨ بالمئة
غير متعلمة عصابية	٢٣	٥٠	٤٦ بالمئة
متعلمة طبيعية	٨	٣٠	٢٦ر٦ بالمئة
غير متعلمة طبيعية	١٣	٣٠	٤٣ر٣ بالمئة

جدول رقم (٦)

نوع مشاكل الطفولة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفى من الأب أو الأم	٢١	١٣	٣٤	٨٠	٥ر٤٢ بالمئة
تفضيل الذكور عن البنات فى الأسرة	٣٣	١٧	٥٠	٨٠	٥ر٦٢ بالمئة
حوادث جنسية معينة مع رجال كبار فى الطفولة	١٩	٨	٣٧	٨٠	٧ر٣٣ بالمئة
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٣٢	٦	٣٨	٨٠	٥ر٤٧ بالمئة
تمنت أن تكون ولداً	٣٦	١٩	٥٥	٨٠	٧ر٦٨ بالمئة
أجرى لها عملية ختان	٢٩	٢٤	٥٣	٨٠	٢ر٦٦ بالمئة
أزمات اقتصادية	٦	٤	١٠	٨٠	٥ر١٢ بالمئة

يتضح من الجدول رقم ٦ أن تفضيل الذكور عن البنات شائع بين الأسر المتعلمة (٥ر٦٢ بالمئة) وأن نسبة كبيرة من بنات هذه الأسر تمنين أن يكن ذكوراً (٧ر٦٨ بالمئة). ويتضح أيضاً انخفاض نسبة

المشاكل الاقتصادية بالنسبة للمشاكل العاطفية والجنسية. أما القسوة أو الحرمان العاطفي في الطفولة فهو منخفض نسبياً، ولا يوجد فروق ذات أهمية بين المجموعة العصابية والمجنوعة الطبيعية.

أما بالنسبة لممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنّسية أثناء الطفولة فهى أكثر أرتفاعا فى المجموعة العصابية (٦٤ بالمئة) عنها فى المجموعة الطبيعية (٢٠ بالمئة فقط).

جدول رقم (٧)

نوع مشاكل الطفولة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
القسرة أو حرمان عاطفى من الأب أو الام	٢١	٢٨	٤٩	١٠٠	٤٩
تفضيل الذكور عن البنات	٣٣	٤٤	٧٧	١٠٠	٧٧
حوادث جنسية مع رجال كبار	١٩	٢٣	٤٢	١٠٠	٤٢
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٣٢ (٪٦٤)	٣٠ (٪٦٠)	٦٢	١٠٠	٦٢
تمنت أن تكون ولدا	٣٦ (٪٧٢)	٢٩	٦٥	١٠٠	٦٥
أجرى لها عملية ختان	٢٩	٤٨	٧٧	١٠٠	٧٧
أزمات اقتصادية	٦	١٧	٢٣	١٠٠	٢٣

يتضح من الجدول رقم ٧ أرتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات بين العصابيات (٧٧ بالمئة) وكذلك الختان (٧٧ بالمئة) وأرتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية عن المشاكل الاقتصادية. ويتضح أن نسبة المشاكل الأقتصادية أكثر أرتفاعاً فى المجموعة غير المتعلمة عن المجموعة المتعلمة، وكذلك يتضح أرتفاع نسبة الحوادث الجنسية مع رجال كبار فى المجموعة غير المتعلمة، وأيضاً أرتفاع نسبة عملية الختان بين المجموعة غير المتعلمة. وتزيد نسبة المتمنيات أن يكن ذكوراً في المجموعة المتعلمة عنها فى غير المتعلمة.

جدول رقم (٨)

نوع مشاكل الطفولة	غير متعلمة عصابيات	غيرمتعلمة طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفى من الأب او الأم	٢٨	١٤	٤٢	٨٠	٥٢ر٥٪
تفضيل الذكور عن البنات	٤٤	٢٢	٦٦	٨٠	٨٢ر٥٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٣٠ (٦٠٪)	٣ (١٠٪)	٣٣	٨٠	٤١ر٢٪
حوادث جنسية مع رجال كبار	٢٣	١٣	٣٦	٨٠	٤٥٪
تمنت أن تكون ولداً	٢٩	٩	٣٨	٨٠	٤٧ر٥٪
أجرى لها عملية ختان	٤٨	٣٠	٧٨	٨٠	٩٧ر٥٪
أزمات اقتصادية	١٧	٩	٢٦	٨٠	٣٢ر٥٪

يتضح من الجدول رقم ٨ أرتفاع نسبة ختان البنات بين الأسر غير المتعلمة (٥ر٩٧ بالمئة) وكذلك تفضيل الذكور عن البنات (٥ر٨٢ بالمئة) وأرتفاع نسبة الحوادث الجنسية (٤٥ بالمئة) كما يلاحظ أن المشاكل الأقتصادية أرتفعت نسبتها هنا (٥ر٣٢ بالمئة) عنها فى الاسر المتعلمة.

وهنا يتضح أيضاً أرتفاع نسبة العادة السرية فى المجموعة العصابية (٦٠ بالمئة) عنها فى المجموعة الطبيعية (١٠ بالمئة فقط). ولو قارنا هذه النسب بالمجموعات غير المتعلمة لأتضح لنا أن أكثر المجموعات ممارسة للعادة السرية هى العصابيات المتعلمات (٦٤ بالمئة) يليها العصابيات غير المتعلمات (٦٠ بالمئة) يليها الطبيعيات المتعلمات (٢٠ بالمئة) يليها الطبيعيات غير المتعلمات (٢ بالمئة) يليها الطبيعيات غير المتعلمات (١٠ بالمئة).

ويتضح من الجدول رقم ٩ أرتفاع نسبة ختان البنات بين الطبيعيات (٩٠ بالمئة) وكذلك أرتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات (٦٥ بالمئة) ويلاحظ أيضاً انخفاض العادة السرية والمداعبات الجنسية (١٥ بالمئة) وانخفاضها أكثر فى المجموعة غير المتعلمة (١٠ بالمئة) عنها فى المجموعة المتعلمة (٢٠ بالمئة). ويلاحظ من الجدول أيضاً أن نسبة من تمنين أن يكن ذكوراً فى الطبيعيات المتعلمات (٦٣ بالمئة) وهى تكاد تكوِن ضعف مثيلاتها فى الطبيعيات غير المتعلمات (٣٠ بالمئة).

جدول رقم (٩)

نوع مشاكل الطفولة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
القسوة أو حرمان عاطفى من الأب أو الأم	١٣	١٤	٢٧	٦٠	٤٥٪
تفضيل الذكور عن البنات	١٧	٢٢	٣٩	٦٠	٦٥٪
حوادث جنسية مع رجال كبار	٨	١٣	٢١	٦٠	٣٥٪
العادة السرية أو المداعبات الجنسية أثناء الطفولة	٦ (٢٠٪)	٣ (١٠٪)	٩	٦٠	١٥٪
تمنت أن تكون ولداً	١٩ (٦٣٪)	٩ (٣٠٪)	٢٨	٦٠	٤٦٫٦٪
أجرى لها عملية ختان	٢٤	٣٠	٥٤	٦٠	٩٠٪
أزمات اقتصادية	٤	٩	١٣	٦٠	٢١٫٦٪

جدول رقم (١٠)
(مقارنة النسب المئوية)

نوع مشاكل الطفولة	عصابيات متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات متعلمة غير متعلمة	متعلمات + عصابية + طبيعية	غير متعلمات عصابية + طبيعية	النسبة الكلية
القسوة أو حرمان عاطفي	٤٩	٤٥	٤٢ر٥	٥٢ر٥	٤٧ر٥
تفضيل الذكور عن البنات	٧٧	٦٥	٦٢ر٥	٨٢ر٥	٧٢ر٥
حوادث جنسية مع رجال كبار	٤٢	٣٥	٣٣ر٧	٤٥	٣٩ر٣
العادة السرية او المداعبات الجنسية اثناء الطفولة	٦٢	١٥	٤٧ر٥	٤١ر٢	٤٤ر٣
تمنت أن تكون ولداً	٦٥	٤٦ر٦	٦٨ر٥	٤٧ر٥	٥٨ر١
أجرى لها عملية ختان	٧٧	٩٠	٦٦ر٢	٩٧ر٥	٨١ر٨
أزمات اقتصادية	٢٣	٢١ر٦	١٢ر٥	٣٢ر٥	٢٢ر٥

يتضح من الجدول رقم ١٠ مايأتي :

١ـ أرتفاع نسبة العادة السرية والمداعبات الجنسية فى الطفولة بين العصابيات (٦٢ بالمئة) عنها بين الطبيعيات (١٥ بالمئة) وأرتفاعها بين المتعلمات (٤٧ر٥ بالمئة) عنها بين غير المتعلمات (٤١ر٢ بالمئة).

٢ـ أرتفاع نسبة عملية الختان بين الطبيعيات (٩٠ بالمئة) عنها بين العصابيات (٧٧ بالمئة)، وأرتفاعها بين غير المتعلمات (٩٧ر٥ بالمئة) عنها بين المتعلمات (٦٦ر٢ بالمئة).

٣ـ أرتفاع نسبة من تمنت أن تكون ولداً بين العصابيات (٦٥ بالمئة) عنها بين الطبيعيات (٦ر٤٦ بالمئة) وأرتفاعها بين المتعلمات (٥ر٦٨ بالمئة) عنها بين غير المتعلمات (٥ر٤٧ بالمئة).

٤ـ أرتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات فى أسر العصابيات (٧٧ بالمئة) عنها فى أسر الطبيعيات (٦٥ بالمئة) وأرتفاعها بين أسر غير المتعلمات (٥ر٨٢ بالمئة) عنها بين أسر المتعلمات (٥ر٦٢ بالمئة).

٥ـ رغم أرتفاع نسبة تفضيل الذكور عن البنات فى أسر غير المتعلمات (٥ر٢ بالمئة) يلاحظ انخفاض نسبة من تمنت أن تكون ولداً بينهن (٥ر٤٧ بالمئة). وكذلك أيضاً فى حالة الطبيعيات (تفضيل الذكور عن البنات فى الأسر ٦٥ بالمئة) ومن تمنت أن تكون ولداً (٥ر٤٦ بالمئة). وهذه الظاهرة غير موجودة فى حالة العصابيات، وكذلك فى حالة المتعلمات، إذ تتقارب النسب بين تفضيل الذكور وبين التمنى بأن تكون ولداً.

٦ـ ترتفع نسبة الحوادث الجنسية فى الطفولة مع رجال كبار فى حالة غير المتعلمات (٤٥ بالمئة)، وأيضاً فى حالة العصابيات (٤٢ بالمئة) عنها فى المتعلمات (٧ر٣٣ بالمئة) أو الطبيعيات (٣٥ بالمئة).

مشاكل فى المراهقة :

جدول رقم (١١)

نوع مشاكل المراهقة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	العدد الكلي	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٧	١٣	٣	١٠	٣٣	١٦٠	٢٠ر٦
مشاكل جنسية وعاطفية	١٩	٢٢	٥	٧	٥٢	١٦٠	٣٩ر٣
مشاكل داخل الاسر بين الأب والام والاخوة	٢٣	٢٨	٤	٩	٦٤	١٦٠	٤٠
تفضيل التعليم عن الزواج	٤٨	٤٢	٢١	١٦	١٢٧	١٦٠	٧٩ر٣

مشاكل المراهقة : يتضح من الجدول رقم ١١ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم عن الزواج بصفة عامة بين المجموعات الأربعة (٧٩ر٣ بالمئة) وتتساوى المشاكل الجنسية والعاطفية مع المشاكل داخل الاسرة تقريبا: ٣٩ر٣ بالمئة و٤٠ بالمئة.

جدول رقم (١٢)

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات طبيعيات	متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكل	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٣	٧	١٠	٨٠	١٢٫٥
مشاكل جنسية وعاطفية	٥	١٩	٢٤	٨٠	٢٠
مشاكل داخل الأسرة	٤ (١٣٫٣٪)	٢٣ (٤٦٪)	٢٧	٨٠	٢٣٫٧
تفضيل التعليم عن الزواج	٢١	٤٨	٦٩	٨٠	٨٦٫٢

يتضح من الجدول رقم ١٢ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين المتعلمات (٨٦٫٢ بالمئة)، وارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة بين المتعلمات العصابيات (٤٦ بالمئة) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (١٣٫٣ بالمئة).

جدول رقم (١٣)

نوع مشاكل المراهقة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٧	١٣	٢٠	١٠٠	٢٠
مشاكل جنسية وعاطفية	١٩	٢٢	٤١	١٠٠	٤١
مشاكل داخل الأسرة	٢٣	٢٨	٥١	١٠٠	٥١
تفضيل التعليم عن الزواج	٤٨	٤٢	٩٠	١٠٠	٩٠

فى جدول (١٣) يلاحظ ارتفاع نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين العصابيات (٩٠ بالمئة) وارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة (٥١ بالمئة) عن المشاكل الجنسية والعاطفية (٤١ بالمئة).

جدول رقم (١٤)

نوع مشاكل المراهقة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج	٣	١٠	١٣	٦٠	٢١،٦
مشاكل جنسية وعاطفية	٥	٧	١٢	٦٠	٢٠
مشاكل داخل الاسرة	٤	٩	١٣	٦٠	٢١،٦
تفضيل التعليم عن الزواج	٢١	١٦	٣٧	٦٠	٦١،٦

يلاحظ فى الجدول رقم ١٤ انخفاض نسبة تفضيل التعليم على الزواج بين الطبيعيات (٦١،٦ بالمئة) وكذلك نسبة انخفاض المشاكل داخل الاسرة والمشاكل الجنسية والعاطفية.

جدول رقم (١٥)

نوع مشاكل المراهقة	غير متعلمات عصابيات	غير متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
الانقطاع عن الدراسة	١٢	١٠	١٣	٨٠	١٦ر٢
مشاكل جنسية وعاطفية	٢٢	٧	٢٩	٨٠	٢٦ر٢
مشاكل داخل الأسرة	٢٨	٩	٢٧	٨٠	٤٦ر٢
تفضيل التعليم عن الزواج	٤٢	١٦	٥٨	٨٠	٧١ر٢

فى جدول (١٥) يلاحظ ارتفاع فى نسبة المشاكل داخل الاسرة بين غير المتعلمات (٢ر٤٦ بالمئة) وكذلك ارتفاع المشاكل الجنسية والعاطفية (٢ر٣٦ بالمئة) وارتفاع تفضيل التعليم عن الزواج (٢ر٧١ بالمئة).

مقارنة النسب المئوية :

جدول رقم (١٦)

نوع مشاكل المراهقة	عصابيات متعلمة + غير متعلمة	طبيعيات متعلمة + غير متعلمة	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمات عصابية + طبيعية	النسب المئوية
الأنقطاع عن الدراسة	٢٠	٢١٫٦	١٢٫٥	١٦٫٢	٢٠٫٦
مشاكل جنسية وعاطفية	٤١	٢٠	٣٠	٢٦٫٢	٣٩٫٣
مشاكل داخل الأسرة	٥١	٢١٫٦	٢١٫٦	٤٦٫٢	٤٠
تفضيل التعليم عن الزواج	٩٠	٦١٫٦	٨٦٫٢	٧١٫٢	٧٩٫٢

يتضح من الجدول رقم ١٦ مايأتى :

١ـ أعلى نسبة تفضيل التعليم عن الزواج بين العصابيات . وأقل نسبة بين الطبيعيات، وهذا يشير إلى أن العصابيات أكثر طموحا فى التعليم والعمل الفكرى عن الطبيعيات.

٢ـ ارتفاع نسبة المشاكل داخل الأسرة عن المشاكل الجنسية والعاطفية فى جميع الحالات.

٣ـ ارتفاع نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية فى العصابيات عن الطبيعيات .

٤ـ الانقطاع عن الدراسة بسبب الزواج يتساوى تقريبا بين العصابيات والطبيعيات، ويزيد فى غير المتعلمات عن المتعلمات.

مقارنة النسب المئوية:

جدول رقم (١٧)

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة (مع الرئيس أو الزملاء)	٢٤	١٩	٨	٣	٥٤	١١٤	٤٨ر٢
العمل لا يرضى طموحها (أول الدراسة)	١٧	٢١	٦	٤	٥٨	١١٤	٥٠ر٨
مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت والأسرة	٢٩	٢٣	٥	٦	٧٣	١١٤	٦٤
مشاكل اقتصادية	٨	٣٤	١١	١٨	٧١	١١٤	٦٢ر٢

مشاكل العمل والدراسة :

يلاحظ من الجدول رقم ١٧ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر فى البيت والاسرة بصفة عامة (٦٤ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية (٦٢ر٢ بالمئة). ويتضح أن ٢٩ امرأة من مجموعة

العصابيات المتعلمات (وعددها ٥٠ امرأة) لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه، أى بنسبة ٥٨ بالمئة، وهذه النسبة مرتفعة إذا قورنت بمجموعة الطبيعيات المتعلمات (وعددها ٣٠ امرأة) حيث لا تشعر بهذه المشكلة منهن إلا ٥ نساء فقط. أى بنسبة ١٦ر٦ بالمئة.

جدول رقم (١٨)

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	متعلمات عصابيات	غير متعلمات عصابيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٢٤	١٩	٤٣	٧١	٦٠ر٥
العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة)	١٧	١٧	٤٨	٧١	٦٧ر٦
مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت	٢٩	٣٣	٦٢	٧١	٨٧ر٣
مشاكل اقتصادية	٨	٣٤	٤٢	٧١	٥٩ر٦

يلاحظ فى الجدول رقم ١٨ ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر فى البيت بين العصابيات وكذلك ارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموحها . وقد انخفضت نسبة المشاكل الاقتصادية.

جدول رقم (١٩)

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٢٤	٨	٣٢	٥٧	٥٦ر١
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	١٧	٦	٢٣	٥٧	٤٠ر٣
مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت	١٩	٥	٣٤	٥٧	٥٩ر٦
مشاكل اقتصادية	٨	١١	١٩	٥٧	٢٢ر٣

يلاحظ فى الجدول رقم ١٩ انخفاض نسبة المشاكل الاقتصادية بين المتعلمات وكذلك انخفاض نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة.

ويتضح من هذين الجدولين أن العصابيات المتعلمات أكثر مواجهة للمشاكل (فى العمل أو الدراسة) بسبب كونها امرأة (٤٨ بالمئة) من العصابيات غير المتعلمات (٣٨ بالمئة). وأن هؤلاء أكثر مواجهة لمثل هذه المشاكل من الطبيعيات المتعلمات (٢٦ر٢ بالمئة).وأن أقل المجموعات مواجهة لهذه المشاكل حسب الجدول رقم١٧من الطبيعيات

غير المتعلمات (١٠ بالمئة) فقط.

جدول رقم (٢٠)

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	غير متعلمات عصابيات	غير متعلمات ~~عصابيات~~ طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	١٩	٣	٢٢	٥٧	٣٨ر٥
العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة)	٣١	٤	٣٥	٥٧	٦١ر٤
مشاكل بسبب دورها الآخر فى البيت	٣٣	٦	٣٩	٥٧	٦٨ر٤
مشاكل اقتصادية	٣٤	١٨	٥٢	٥٧	٩١ر٢

فى جدول (٢٠) يلاحظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية بين النساء غير المتعلمات، وكذلك ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر فى البيت، وارتفاع نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة، وانخفاض نسبة المشاكل بسبب كونها امرأة.

جدول رقم (٢١)

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٨	٣	١١	٤٣	٥ر٢٥
العمل لا يرضى طموحها (أو الدراسة)	٦	٤	١٠	٤٣	١ر٢٢
مشاكل بسبب دورها الاخر فى البيت	٥	٦	١١	٤٣	٥ر٢٥
مشاكل اقتصادية	١١	١٨	٢٩	٤٣	٤ر٦٧

وفى جدول (٢١) يلاحظ ارتفاع نسبة المشاكل الاقتصادية للعمل بين الطبيعيات، وانخفاض المشاكل بسبب الدور الآخر فى البيت أو بسبب كونها امرأة. وكذلك انخفاض نسبة عدم ارضاء العمل لطموح المرأة.

جدول رقم (٢٢)

نوع مشاكل العمل أو الدراسة	عصابيات متعلمة + غير	طبيعيات متعلمة + غير	متعلمات عصابية + طبيعية	غير متعلمات عصابية + طبيعية	النسبة المئوية
مشاكل بسبب كونها امرأة	٦٠ر٥	٢٥ر٥	٥٦ر١	٣٨ر٥	٤٨ر٢
العمل لا يرضي طموحها (أو الدراسة)	٦٧ر٥	٢٣ر١	٤٠ر٣	٦١ر٤	٥٠ر٨
مشاكل بسبب دورها الآخر في البيت	٨٧ر٣	٢٥ر٥	٥٩ر٦	٦٨ر٤	٦٤
مشاكل اقتصادية	٥٩ر١	٦٧ر٤	٣٣ر٣	٩١ر٢	٦٢ر٢

في جدول (٢٢) يلاحظ أن أعلى نسبة للمشاكل الاقتصادية بين غير المتعلمات، وأن أعلي نسبة للمشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين العصابيات ، وأن العمل لا يرضى طموح العصابيات بنسبة أكبر من الطبيعيات، ويلاحظ أيضاً ارتفاع نسبة المشاكل بسبب الدور الآخر في البيت بين غير المتعلمات وكذلك ارتفاع نسبة عدم أرضاء العمل لطموح غير المتعلمات.

مشاكل الزواج :

جدول رقم (٢٣)

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متغلمات	طبيّعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	٣١	١٥	٢١	٩٠	١١٩	٧٥ر٦٠
سيطرة الزوج	٢٨	٣٢	١٧	٢٢	٩٩	١١٩	٨٢ر٣
عدم مساعدة الزوج فى أعمال البيت والاطفال	٣١	٣٥	١٧	٢٢	١٠٨	١١٩	٩٠ر٧
عدم الاشباع الجنسى	٢١	٢٩	١٤	١٧	٩١	١١٩	٧٦ر٣
علاقات جنسية خارج الزواج	١٠	٦	٣	١	٢٠	١١٩	١٦ر٧
لا تتزوج زوجها مرة اخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٢٩	٣٤	١٨	٢٠	١٠١	١١٩	٨٤ر٨

مشاكل الزواج : يلاحظ من الجدول رقم ٢٣ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج لأعمال البيت والأطفال بصفة عامة (٧ر٩٠ بالمئة) وكذلك ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجى وسيطرة الزوج، ويلاحظ أيضاً انخفاض

نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج رغم ارتفاع نسبة عدم الاشباع الجنسى.

جدول رقم (٢٤)

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غيرمتعلمات	المجموع	العدد الكلي	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	٣١	٥٤	٧٥	٦ر٧٠ بالمئة
سيطرة الزوج	٢٨	٣٢	٦٠	٧٥	٦ر٧٨ بالمئة
عدم مساعدة الزوج	٣١	٣٥	٦٦	٧٥	٨٨ بالمئة
عدم الاشباع الجنسى	٣١	٢٩	٦٠	٧٥	٦ر٧٨ بالمئة
علاقات خارج الزواج	١٠	٦	١٦	٧٥	٣ر٢١ بالمئة
لا تتزوج زوجها مرة أخرى	٢٩	٣٤	٦٣	٧٥	٨٤ بالمئة

ويلاحظ فى الجدول رقم ٢٤ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج، وعدم التوافق الزوجي بين العصابيات.

جدول رقم (٢٥)

مشاكل الزوج	متعلمات عصابيات	متعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٢٣	١٥	٣٨	٥٨	٥ر٦٥ بالمئة
سيطرة الزوج	٢٨	١٧	٤٥	٥٨	٥ر٧٧ بالمئة
عدم مساعدة الزوج	٣١	١٧	٤٨	٥٨	٥ر٨٢ بالمئة
عدم الاشباع الجنسى	٣١	١٤	٤٥	٥٨	٥ر٧٧ بالمئة
علاقات خارج الزواج	١٠	٣	١٣	٥٨	٤ر٢٢ بالمئة
لا تتزوج زوجها مرة أخرى	٢٩	١٨	٤٧	٥٨	٨١ بالمئة

يلاحظ من الجدول رقم ٢٥ ارتفاع نسبة عدم التوافق الزوجى أيضاً بين المتعلمات، وعدم مساعدة الزوج لزوجته فى أعمال البيت والأطفال.

جدول رقم (٢٦)

مشاكل الزواج	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	١٥	٢١	٣٦	٤٤	٨١٫٨ بالمئة
سيطرة الزوج	١٧	٢٢	٣٩	٤٤	٨٨٫٦ بالمئة
عدم مساعدة الزوج	١٧	٢٢	٣٩	٤٤	٨٨٫٦ بالمئة
عدم الاشباع الجنسى	١٤	١٧	٣١	٤٤	٧٠٫٤ بالمئة
علاقات خارج الزواج	٣	١	٤	٤٤	٩ بالمئة
لا تتزوج زوجها مرة أخرى	١٨	٢٠	٣٨	٤٤	٨٦٫٣ بالمئة

وفى الجدول (٢٦) يلاحظ ارتفاع نسبة من تزوجن بغير حب بين الطبيعيات، وانخفاض نسبة العلاقات خارج الزواج (٩ بالمئة).

جدول رقم (٢٧)

مشاكل الزواج	غير متعلمات عصابيات	غيرمتعلمات طبيعيات	المجموع	العدد الكلى	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٣١	٢١	٥٢	٦١	٢ر٨٥ بالمئة
سيطرة الزوج	٣٢	٢٢	٥٤	٦١	٥ر٨٨ بالمئة
عدم مساعدة الزوج فى أعمال البيت والاطفال	٣٥	٢٢	٥٧	٦١	٤ر٩٣ بالمئة
عدم الاشباع الجنسى	٢٩	١٧	٤٦	٦١	٥ر٧٥ بالمئة
علاقات جنسية خارج الزواج	٦	١	٧	٦١	٤ر١١ بالمئة
لا تتزوج زوجها مرة اخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٣٤	٢٠	٥٤	٦١	٥ر٨٨ بالمئة

فى جدول (٢٧) يلاحظ ارتفاع نسبة عدم مساعدة الزوج (٤ر٩٣ بالمئة) بين غير المتعلمات وأرتفاع نسبة من تزوجن بغير حب (٢ر٨٥ بالمئة).

مقارنة النسب المئوية :

جدول رقم (٢٨)

مشاكل الزواج	عصابيات متعلمة + غير	طبيعيات متعلمة + غير	متعلمات عصابية + طبيعية	غيرمتعلمات عصابية + طبيعية	النسبة المئوية
تزوجت بغير حب	٧٠٫٦	٨١٫٨	٦٥٫٥	٨٥٫٢	٧٥٫٦
سيطرة الزوج	٧٨٫٦	٨٨٫٦	٧٧٫٥	٨٨٫٥	٨٢٫٣
عدم مساعدة الزوج فى أعمال البيت والاطفال	٨٨	٨٨٫٦	٨٢٫٥	٩٣٫٤	٩٠٫٧
عدم الاشباع الجنسى	٧٨٫٦	٧٠٫٤	٧٧٫٥	٧٥٫٥	٧٦٫٣
علاقات جنسية خارج الزواج	٢١٫٣	٩	٢٢٫٤	١١٫٤	١٦٫٧
لا تتزوج زوجها مرة اخرى لو عادت السنين إلى الوراء	٨٤	٨٦٫٣	٨١	٨٨٫٥	٨٤٫٨

فى جدول (٢٨) يلاحظ أن هناك تقارباً فى النسب بين العصابيات وبين المتعلمات بصفة عامة، وتقارباً بين الطبيعيات وبين غير المتعلمات. ان

الطبيعيات وغير المتعلمات يتزوجن بغير حب بنسبة أكبر من العصابيات والمتعلمات. وتزيد أيضاً نسبة سيطرة الزوج وعدم مساعدته فى أعمال البيت والأطفال فى حالة الطبيعيات وغير المتعلمات ، وتقل بينهن العلاقات الجنسية خارج الزواج عن العصابيات والمتعلمات. ويكاد يتساوى الجميع فى عدم الاشباع الجنسى، وفى عدم الزواج بأزواجهن مرة أخرى لو عادت السنين إلى الوراء.

وانى أعتقد هنا أن النسبة الدالة على العلاقات خارج الزواج أقل من الحقيقة بعض الشئ. لأنى أحسست أن بعض النساء كن يتحرجن من الاعتراف بمثل هذه العلاقات رغم أننى كنت أطمئنهن أننى لا أحكم عليهن أخلاقياً على الاطلاق. وقد أستطعت أن أحصل على بعض الاعترافات عن طريق الأسئلة غير المباشرة. وكذلك الحال فى موضوع الاشباع الجنسى، فقد كانت بعض النساء وبالذات غير المتعلمات يخجلن أو يجهلن معنى الاشباع الكامل. وأقتضى الامر منى بتنويع الأسئلة حتى أحصل على المعلومات الصحيحة بقدر الامكان.

جدول رقم (٢٩)

مقارنة حياتها بحياة أمها	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
حياتها أفضل من حياة أمها	٤٣	٣٨	٢١	١٤
	(٨٦ بالمئة)	(٧٦ بالمئة)	(٧٠ بالمئة)	(٤٦ر٦ بالمئة)
حياة أمها أفضل من حياتها	٧	١٢	٩	١٦
	(١٤ بالمئة)	(٢٤ بالمئة)	(٣٠ بالمئة)	(٥٣ر٤ بالمئة)
المجموع	٥٠	٥٠	٣٠	٣٠

يتضح من الجدول رقم (٢٩) أن العصابيات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن أكثر من الطبيعيات، وأن المتعلمات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن أكثر من المتعلمات.

جدول رقم (٣٠)

استخدام وسائل منع الحمل	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
تستخدم وسائل منع الحمل	٢٩	١٧	١٥	١٠
لا تستخدم وسائل منع الحمل	٨	٢١	٦	١٣
المجموع	٣٧	٣٨	٢١	٢٣

وفى جدول (٣٠) يلاحظ أن العصابيات المتعلمات أكثر استخداماً لوسائل منع الحمل من الطبيعيات، وأن الزوجات غير المتعلمات أقل استخداماً لوسائل منع الحمل من المتعلمات.

جدول رقم (٣١)

ممارسة الجنس قبل الزواج	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	طبيعيات متعلمات	طبيعيات غير متعلمات
مارست الجنس قبل الزواج	٣٨ (٧٦٪)	٢٩ (٥٨٪)	٨ (٢٦،٦٪)	٣ (١٠)
لم تمارس الجنس قبل الزواج	١٢	٢١	٢٢	٢٧
المجموع	٥٠	٥٠	٣٠	٣٠

يتضح من الجدول رقم (٣١) ارتفاع نسبة ممارسة الجنس قبل الزواج بين العصابيات عن الطبيعيات، وبين المتعلمات عن بين غير المتعلمات.

وأنى أعتقد أن هذه الارقام أقل من الحقيقة أيضاً، بسبب تحرج المرأة عامة من الأعتراف بمثل هذه الممارسات قبل الزواج لتعلقها بالشرف والاخلاق. ولكنى كنت أشجع الواحدة منهن علي فتح قلبها لى والاعتراف بمثل هذه الممارسات، ولم يكن ذلك سهلا فى جميع الحالات، ولكنى كنت أمهد لمثل هذه الاعترافات بحديث طويل عن فضيلة الصدق، وعن أننى أحترم المرأة طالما أنها صادقة، مدركة

لمسئوليتها. ويتضمن الجدول أن (٧٦ بالمئة) من العصابيات المتعلمات مارسن الجنس قبل الزواج، وهو أعلى نسبة فى المجموعات الاربعة. ويتضح هنا أيضاً أن العصابية غير المتعلمة أكثر قرباً فى صفاتها للعصابية المتعلمة من الطيعية غير المتعلمة. ان المرأة العصابية غير المتعلمة تمارس الجنس قبل الزواج هنا بنسبة ٥٨ بالمئة، وهى أعلى بكثير من زميلتها غير المتعلمة الطبيعية حيث تكون النسبة ٢٦ر٦ بالمئة فقط.

الأسباب الرئيسية للعصاب :

أمكن تجميع الأسباب الرئيسية للأصابة بالعصاب بين المجموعتين المتعلمة والغير متعلمة كالآتى :

١ـ سيطرة الزوج أو الأب أو الأخ أو رجل آخر من الاسرة.

٢ـ الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح فى الحياة.

٣ـ الفشل فى الحياة العاطفية أو الزوجية أو دور الزوجة والام فى البيت.

٤ـ عدم الاشباع الجنسى.

٥ - أسباب أخرى (مثل سيطرة الأم أو الحماة ـ أزمة اقتصادية ـ اضطهاد فى العمل).

جدول رقم (٣٢)

السبب الرئيسى للعصاب	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع
سيطرة الرجل فى الأسرة	١١ ٢٢ بالمئة	١٨ ٣٦ بالمئة	٢٩
الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح	١٥ ٣٠ بالمئة	١٣ ٢٦ بالمئة	٢٨
الفشل فى الحياة العاطفية أو الزوجية او دور الزوجة والأم	١٠ ٢٠ بالمئة	١٢ ٢٤ بالمئة	٢٢
عدم الأشباع الجنسى	٩ ١٨ بالمئة	٤ ٨ بالمئة	١٣
أسباب أخرى	٥ ١٠ بالمئة	٣ ٦ بالمئة	٨
المجموع	٥٠ ١٠٠ بالمئة	٥٠ ١٠٠ بالمئة	١٠٠

يلاحظ من الجدول رقم ٣٢ ان أعلي نسبة من العصابيات المتعلمات يمرضن بسبب الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح (٣٠ بالمئة)، وأن أعلى نسبة بين العصابيات غير المتعلمات يمرضن بسبب سيطرة الرجل فى الأسرة (٣٦ بالمئة) ، ويلاحظ أن المرأة غير المتعلمة أكثر حساسية

لفشلها فى الحياة الزوجية ودور الزوجة والأم من المرأة المتعلمة. والمرأة المتعلمة اكثر حساسية لعدم الاشباع الجنسى من المرأة غير المتعلمة. ويتضح بالنسبة للمجموعتين معاً أن السبب الرئيسى الأول لاصابة المرأة بالعصاب هو سيطرة رجل فى الأسرة ، يليه الفشل فى تحقيق الذات أو الطموح، يليه الفشل فى الحياة العاطفية أو الزوجية. ثم يأتى عدم الاشباع الجنسى.

أنواع العصاب :

جدول رقم (٣٣)

نوع العصاب	عصابيات متعلمات	عصابيات غير متعلمات	المجموع
قلق	٢٧	٩	٣٦
	٥٤٪	١٨٪	
اكتئاب	١٣	١١	٢٢
	٢٦٪	٢٢٪	
خوف	٥	١٤	١٨
	١٠٪	٢٨٪	
هستيريا	٢	١٢	١٣
	٤٪	٢٤٪	
اخرى	٣	٤	٧
	٦٪	٨٪	
المجموع	٥٠	٥٠	١٠٠
	١٠٠٪	١٠٠٪	

يلاحظ فى الجدول (رقم ٣٣) أن القلق أكثر أنواع العصاب انتشاراً بين المتعلمات (٥٤ بالمئة) يليه الأكتئاب (٢٦ بالمئة)، أما الخوف والهستيريا فلا يمثلان إلا نسبة ضئيلة (١٠ بالمئة على التوالى) ، وهذا على عكس مجموعة الغير متعلمات، إذ يلاحظ أن الخوف والهستيريا يمثلان أعلى النسب (٢٨ بالمئة و٢٤ بالمئة على التوالى) يليهما الأكتئاب (٢٢ بالمئة). أما القلق فلا يمثل إلا (١٨ بالمئة) من الحالات.

ولكن بالنسبة للمجموعتين معاً فأن القلق عامة يمثل أكثر الحالات بين النساء (٢٩ بالمئة) ، يليه الأكتئاب (٢٢ بالمئة) ثم الخوف (١٨ بالمئة) وفى النهاية الهستيريا (١٣ بالمئة).

الجـزء الثـانـى

مـنـاقـشـة

مناقشة نتائج البحث

ان ارتفاع نسبة الأصابة بالعصاب بين الفتيات والنساء يدل على أن النساء فى مجتمعنا المصرى يتعرضن لصراعات وتناقضات متعددة، وعلى الأخص النساء المتعلمات اللاتى خرجن للتعليم والعمل وأصبح لهن وعى جديد ودور جديد بالاضافة إلى الدور التقليدى القديم.

وبالرغم من أن المجتمع المصرى كأى مجتمع آخر تغزوه الأفكار الجديدة عن تعليم المرأة وعملها فى المجتمع وحريتها إلا أنه لازال يخضع لكثير من التقاليد القديمة مثل وضع المرأة الأدنى فى الأسرة. وفى هذه الفترات الأنتقالية ، التى يجمع فيها المجتمع بين الجديد والقديم يتعرض الناس لصراعات نفسية، وخاصة النساء، حيث أن موقف المجتمع من المرأة أشد تعنتاً من موقفه من الرجل، وحيث أن دور الرجل لم يتغير، والقيم الأجتماعية والأخلاقية والأقتصادية فى المجتمع لازالت تميل إلى

جانب الرجل.

وتزداد حدة الصراعات فى حياة المرأة المتعلمة الواعية بحقوقها الجديدة أكثر من المرأة غير المتعلمة غير الواعية بهذه الحقوق. وتزداد هذه الصراعات أيضاً فى حياة المرأة المتعلمة العاملة لأن المجتمع لم يهيأ بعد (اجتماعيا وأخلاقيا وتربويا ونفسيا) لدور المرأة المتعلمة العاملة.

ولازال المجتمع بصفة عامة ينظر إلى دور المرأة فى البيت (كزوجة وأم) على أنه دورها الاساسى فى الحياة، أو دورها الوحيد المسموح به. أما عملها خارج البيت فليس الا من أجل تخفيف الأعباء الاقتصادية عن كاهل رب الأسرة فى الحياة، وهو خدمة الزوج والأطفال فى البيت.

والمرأة المصرية العاملة خارج البيت عليها أن تؤدى واجباتها داخل البيت أيضاً دون تقصير أو اهمال، وإلا تعرضت للوم أو العقاب (قد يصل الامر إلى الطلاق). وبالرغم من أن المرأة العاملة تشارك الرجل مسؤولية الأنفاق على الأسرة، إلا أن الرجل المصرى لا يشاركها مسؤولية الاعمال داخل البيت، ويعتبر أن مثل هذه الأعمال المنزلية لا تليق بكرامته كرجل.

والمرأة العاملة هنا هى المرأة التى تعمل فى المصانع أو المكاتب أو المهن المختلفة. أما المرأة العاملة فى الحقل (الفلاحة المصرية) فهى تخرج للعمل فى الحقل منذ آلاف السنين، وهى تجمع بين عملها داخل البيت وخارجه. وهى تعمل خارج البيت بغير أجر تحت سيطرة زوجها ولحسابه،

ولا تتقاضى عن عملها أجراً شهرياً مستقلا عن الزوج. والأغلبية الساحقة من الفلاحات المصريات أميات، يجهلن القراءة والكتابة.

ويلعب التعليم والعمل بأجر فى حياة المرأة دوراً كبيراً فى مساعدتها على أن ترفض وضعها الأدنى فى الأسرة. وأن ترفض التقاليد العتيقة التى تنظر اليها كوعاء لأنجاب الأطفال أو طاعة الزوج. وعلى أن تصبح انسانة لها طموح فكري ونفسى في الحياة، يزيد عن غسل الصحون وارضاء الزوج. ولهذا السبب تزيد المشاكل النفسية ومرض العصاب بين النساء المتعلمات عنها بين النساء غير المتعلمات.

وقد وجدنا من نتائج البحث أن ٦٣ بالمئة من النساء المتعلمات الطبيعيات تمنين فى فترة من حياتهن ان يكن ذكوراً. وهذه النسبة تكاد تكون ضعف مثيلاتها بين النساء غير المتعلمات. ومن هذا يتضح أن التعليم يلعب دوراً كبيراً فى إشعار الفتاة بالتفرقة القائمة بين الجنسين فى معظم الاسر المصرية. ورفضها لهذه التفرقة، وبالتالى رغبتها فى أن تكون ذكراً لتتمتع بالأمتيازات الأجتماعية والشخصية التى يتمتع بها الذكر.

ولهذا لا يمكن لنا أن نتهم الفتاة التى تتمنى أن تكون ذكراً بالشذوذ أو المرض النفسى أو عقدة من العقد الفرودية. ولكن علينا أن ندرس ظروفها الاجتماعية لندرك الفروق والامتيازات التى يحظى بها الذكور دون الاناث. وقد سبق أن وجدنا أن ٧٢ بالمئة من العصابيات المتعلمات

تمنين أن يكن ذكوراً. وهذا يدل على أن التفرقة بين الجنسين من العوامل التى تؤثر فى نفسية الفتاة. وتدفعها إلي الرفض والتمرد أو إلى العصاب أحياناً.

وقد أعتبر فرويد وأتباعه الفتاة التى تتمنى أن تكون ذكراً فتاة غير طبيعية. وأرجع رغبتها إلى أنها تنشد عضو الذكر الذى ينقصها. وقد اثبت علماء النفس من بعد فرويد- خطأ هذه الافكار. وأهمهم في هذا المجال هى الطبيبة النفسية كارين هورنى التى عارضت فرويد فى هذه الكفرة، وقالت أن البنت تتمني أن تكون ذكراً لتحصل على الامتيازات الأجتماعية التى يحصل عليها الذكر، وليس لأنها تنشد العضو الذكرى.

وخلال حديثى مع المرأة أو الفتاة التى تجيب بأنها تمنت أن تكون ذكراً فى وقت مامن حياتها، كنت أسألها لماذا تمنت ذلك. وكانت الاجابة في معظم الحالات تؤكد أن الامتيازات الأجتماعية أو الأقتصادية او الأخلاقية هى السبب الرئيسى.

وقد أتضح من نتائج البحث أن الحرمان العاطفى فى الطفولة وحده ليس كافياً لأن يسبب العصاب، ولكن لابد من تعرض الفتاة أو المرأة لعوامل أخرى فى مراهقتها أو شبابها لكى تصاب بالعصاب. وهناك كثير من أطباء النفس من يعتقدون (بسبب تأثير فرويد) أن مشاكل الطفولة هى التى تسبب المرض. ولهذا ماأن تجلس المريضة أمام الطبيب

منهم، حتى يسرع بالسؤال عن الصدمات النفسية التى شعرت بها فى طفولتها، ويظل يلح بالأسئلة حول مرحلة الطفولة محاولاً الكشف عن أسباب المشكلة الحالية لهذه المرأة فى ماضيها البعيد، وذلك بالبحث عن أى خيالاتٍ طفولية جنسية قد تقوده إلي عقدة الكترا أو أوديب.

وقد ذكرت لى إحدى طالبات الجامعة المتزوجات التى كانت تتردد على أحد أطباء النفس للعلاج : «فى كل مرة كان يسألنى عن طفولتى، وعما إذا كنت حسدت أخى لأنه لا يملك عضو لا أملكه، لم اكن أفهم أي معنى لسؤاله، فى حين أننى كنت أستطيع أن أقول له في نصف دقيقة أننى يمكن أن أشفى تماماً لو أن زوجى تركنى أكمل تعليمى الجامعى ولم يضربنى كل يوم بعد عودتى من الكلية».

وقالت لى فتاة أخرى : كان الطبيب يسألنى أسئلة كثيرة بعيدة عن مشكلتى الحقيقية، فى حين أن مشكلتى كانت أن أخى الأكبر يضربنى بسبب وبغير سبب، ويهددنى بحبسى فى البيت إذا لم أسرق له النقود من أمى .

وهناك كثير من الأطباء أيضاً ممن يعتقدون أن العصاب مرض وراثى. أو أنه يرجع إلى ضعف معين فى الجهاز العصبى يورث عن طريق الكروموسومات وعلاقات الدم. لكنى بسؤالى عن وجود أى تاريخ لمرض عصابى فى أسرة الاب أو الأم اجابت ٩٦ امرأة من العصابيات بالنفى. وأجابت الأربع الباقيات بأن هناك قريب فى الأسرة كان مريضاً

بمرض نفسى. وقالت لى أحدى هؤلاء الأربع :«سألنى الطبيب كثيراً عن جدتى التى قلت له أنها كانت تشكو من مرض عصبى، وقلت للطبيب أن مشكلتى الحالية لها علاقة بالماضى أكثر مما لها علاقة بالحاضر. ولم أكن أقتنع بمنطق الطبيب، لأنه كان يشبه منطق أمى التى كنت كلما شكوت لها من العذاب الذى اعيشه مع زوجى تقول لى فى هدوء :«اصبرى ياأبنتى فسوف يعوض الله صبرك خيراً فى الآخرة»، كان منطق أمى أن العلاج الوحيد لحالتى لن يكون إلا فى الآخرة بعد أن أموت. أما الطبيب فكان يرى أن السبب الوحيد لحالتى قد حدث قبل أن أولد». وكلاهما لم يكن يهتم بالمشكلة الحقيقية فى حياتى الحاضرة وهى زوجى.

وقد أستمتعت كثيراً بالحديث إلي مثل هؤلاء النساء العصابيات الذكيات. فقد كان لبعضهن قدرة نادرة على السخرية الذكية الواعية. وكانت الواحدة رغم مشاكلها النفسية أكثر وعياً بأسباب مشاكلها من الطبيب الذى يعالجها. لكنها لم تكن تجد ثمة شخص آخر تلجأ إليه إلا الطبيب النفسي. وقد أقتنعت بعد فحصى لحياة هؤلاء النساء والفتيات بأن سيطرة الزوج على زوجته، أو ضرب الأب لأبنته، يسببب العصاب للمرأة أكثر مما تسببها الوراثة أو الكروموسومات.

وقد أتضح من نتائج البحث أن نسبة ممارسة العادة السرية أو المداعبات الجنسية في مرحلة الطفولة أكثر ارتفاعا بين النساء

العصابيات (٦٤ بالمئة). عنها بين النساء الطبيعيات (٢٠ بالمئة) وقد وجدت أن سبب ذلك هو أن المرأة العصابية أكثر جرأة فى تمردها على التقاليد والنظم المفروضة عليها، وأنها فى ممارسة الجنس أكثر جرأة وأقل كبتاً من المرأة الطبيعية. وإذا عرفنا أن جميع الاطفال لهم حياتهم الجنسية الطبيعية من حيث المداعبات أو غيرها، فأننا ندرك أن احجام المرأة الطبيعية عن مثل هذه المداعبات (سواء كان هذا الاحجام صحيحاً أو لمجرد الخوف من التصريح بمثل هذه الافعال الجنسية فى هذه السن المبكرة) ليس صفة طبيعية بقدر ماهو الخوف او الكبت بسبب التربية القائمة على التحذير والتخويف . أو بسبب عملية الختان التى أجريت على نسبة (٩٠ بالمئة) من النساء والفتيات الطبيعيات مقابل (٧٧ بالمئة)من النساء العصابيات . ففى هذه العملية تم استئصال البظر فى جسم الفتاة قبل أن تبلغ سن الرشد (قبل مجئ الدورة الشهرية) وذلك بين سن خمس سنوات إلى تسع سنوات فى معظم الحالات. وقد أتضح لى من مناقشة النساء والفتيات حول هذه العملية أن معظمهن لا يعرفن شيئاً عن مضارها. وبعض منهن يتصورن أنها عملية صحية من أجل النظافة والطهارة (تسمى العملية باللغة العامية : الطهارة) وبالرغم من أن نسبة اجراء هذه العملية بين النساء المتعلمات أقل مما هى بين النساء غير المتعلمات (٦٦٫٢ بالمئة مقابل ٩٧٫٥ بالمئة) إلا أن معظم النساء المتعلمات اللاتى تحدثت معهن لم يفطن إلى آثار العملية على صحتهن

النفسية أو الجنسية. وقد كان الحوار يدور بينى وبين المرأة أو الفتاة على النحو التالى :

ـ هل أجريت لك عملية الختان (الطهارة) ؟

ـ نعم.

ـ كم كان عمرك فى ذلك الوقت ؟

ـ كنت طفلة، حوالي سبع أو ثمان سنوات،.

ـ هل تذكرين كيف حدثت العملية ؟

ـ بالطبع . لا يمكن ان أنسى.

ـ هل شعرت بخوف ؟

ـ بالطبع ، وقد أختفيت منهم فوق الدولاب (أو فى حالات أخرى تحت السرير أو عند الجيران ...) لكنهم أمسكونى وأنا ارتعد من الخوف.

ـ هل شعرت بألم ؟

ـ بالطبع ، كان الألم مثل النار. وصرخت. وكانت أمى تمسك رأسى كى لا أحركه، وخالتى تمسك ذراعى اليمنى. وجدتى تمسك ذراعى اليسرى ، وامرأتان غريبتان لم أرهما من قبل كل واحدة منهما تمسك ساقاً من ساقى وتشده بكل قوتها بعيداً عن الساق الأخرى، أما الداية فقد جلست بينهما ومعها الموس الذى قطعت به البظر. ومن شدة الألم والذعر فقدت الوعى بعد لسعة الالم الشديدة مثل النار.

ـ ماذا حدث بعد العملية ؟

ـ شعرت بآلام شديدة فى جسدى، وظللت فى السرير أياماً لا أستطيع السير.

وأحتبس البول فترة من شدة الالم أثناء التبول، وظل الجرح ينزف، وأمى تضع عليه شاشاً وقطناً حتى التأم الجرح.

ـ ماذا كان شعورك حين علمت أنك فقدت عضو من أعضاء جسمك ؟

ـ لم أكن أعرف شيئاً عن هذه العملية سوى أننى سمعت من أمى أنها عملية بسيطة جداً وتجرى لكل البنات من أجل الطهارة والنظافة وحسن السمعة. وأن البنت التي لا تطهر بهذه العملية تصبح عرضة لألسنة الناس، وتسوء أخلاقها، وتجرى وراء الرجال، ولا يقبل على الزواج منها أى أحد. وسمعت من جدتى أن العملية ليست إلا ازالة قطعة صغيرة جداً من اللحم بين فخذى، وأن بقاء هذه القطعة الصغيرة فى جسدى يجعله قذراً ومدنساً وقبيح المنظر، ينفر الرجل الذى سيتزوجنى.

ـ هل صدقت هذا الكلام ؟

ـ بالطبع صدقته، وفرحت بعد شفائى من العملية وأحسست أننى تخلصت من شئ كان لابد أن أتخلص منه، وأنني أصبحت نظيفة وطاهرة.

كانت هذه اجابة معظم الحالات، متعلمات وغير متعلمات. وكانت

احدي الحالات طالبة بكلية طب عين شمس بالسنة النهائية، وكنت اتوقع أنها ستقول لى كلاماً مختلفاً، لكن اجابتها كانت متشابهة للأجابة السابقة. ودار بينى وبينها حوار أذكره على النحو التالى :

ـ ولكنك ستصبحين طبيبة بعد عدة أسابيع، فكيف يمكن أن تصدقى أن قطع البظر من جسد الفتاة أمر صحى أو على الأقل غير ضار ؟

ـ هذا هو ماسمعته من كل الناس. وكل بنات أسرتى تجرى لهن عملية الختان. وأنا درست التشريح والطب، ولكنى لم أسمع أحد من الاساتذة يشرح لنا فائدة البظر فى جسد المرأة. ولم أقرأ شيئاً عن ذلك فى أي كتاب.

ـ هذا صحيح، فأن علوم الطب ليس من بينها علم الجنس حتى اليوم وأعضاء المرأة الجنسية هى الأعضاء التناسلية فقط (الرحم والمهبل والمبيضين) أما البظر فهو عضو يهمله الطب كما يهمله المجتمع.

ـ أذكر أن أحد الطلبة سأل الأستاذ مرة عن البظر، فإذا بوجه الأستاذ يحمر، ويرد عليه بغلظة قائلا أن أحداً لن يسأله فى الامتحان عن هذا. وليس لهذا العضو أهمية تذكر ...

وقد حاولت أن أعرف أثر هذه العملية على النساء والفتيات. على حياتهن النفسية أو الجنسية . وقد أجابتنى معظم الطبيعيات (اللاتى كن أكثر شعوراً بالخجل والحرج تجاه مثل هذه الأسئلة من العصابيات) بأن العملية لم تؤثر عليهن فى شئ . ولم أكن أكتفي بهذه الاجابة،

وكنت أسأل كل واحدة عن حياتها الجنسية قبل عملية الختان وبعدها. وكان الحوار بينى وبين المرأة يدور على هذا النحو :

ـ هل شعرت بأي تغيير فى مشاعرك أو رغباتك الجنسية بعد علمية الختان ؟

ـ كنت طفلة صغيرة ولم أكن أشعر بشئ.

ـ ألم تكن لك رغبة جنسية وأنت طفلة ؟

ـ لا ، أبداً ، وهل الأطفال لهم رغبات جنسية ؟

ـ الأطفال يشعرون بلذة حين يلمسون أعضاءهم ، وتحدث بينهم فى سن مبكرة مداعبات جنسية، ويلعبون عريس وعروسة تحت السير معاً. ألم تلعبى عريس وعروسة مع أصدقائك الأطفال ؟

وهنا كان يحمر وجه المرأة أو الفتاة، وقد تحرك عيناها بعيداً عن عينى حتى لا ألحظ اضطرابها. وبعد مزيد من الحديث والفهم والطمأنينة تبدأ الواحدة منهن تحكى عن ذكرياتها وهى طفلة، وأنها شعرت بلذة جنسية حين كان يداعبها جنسياً رجل من أفراد الأسرة، أو الخادم أو البواب أو المدرس الخصوصى او ابن الجيران. وقالت لى طالبة جامعية أن أخاها الأكبر كان يداعبها، وكانت تشعر بلذة. وأنها فقدت هذه اللذة بعد عملية الختان. وذكرت لى امرأة متزوجة أنها لا تشعر بأى لذة جنسية مع زوجها، وأن آخر عهدها باللذة كان منذ عشرين عاماً أو أكثر حين كانت طفلة فى السادسة، قبل أن تجرى لها عملية الختان . وقالت لى فتاة أنها

مارست العادة السرية وهى طفلة، ثم توقفت بعد أن أجروا لها عملية الختان وهى فى العاشرة من عمرها. وبمزيد من التعمق فى الأسئلة كانت المرأة منهن تفتح قلبها وتحكى أدق أسرارها فى الطفولة والمراهقة. وقد لاحظت أن العصابيات أكثر استعداداً لفتح قدرة على التعبير والمصارحة في حديثهن معى. وكنت أنفق مع المرأة الطبيعية ضعف الوقت تقريباً الذى أنفقه مع المرأة العصابية من أجل الوصول إلي الأجابة الصريحة نفسها. وقد أصرت احدى النساء الطبيعيات المتعلمات أنها لم تشعر بأية رغبة جنسية وهى طفلة قبل عملية الختان ولا بعدها. بل أنها كانت تنفر من الذكور وتبتعد عنهم .وقد ألتقيت بهذه السيدة أكثر من مرة. وفى احدى المرات قالت لى دون أن تدرى أن هناك حادثاً معيناً لا تنساه منذ الطفولة، وشرحت لي كيف أخذها ابن عمها ذات يوم إلى سطح المنزل وجعلها تخلع السروال، وأنها شعرت بلذة لكنها اصبحت تخاف منه، وأصبحت تخاف أن يقول لأمها أو لأبيها.

وقد أستطعت لكونى امرأة وطبيبة أن أحصل من هؤلاء النساء والفتيات علي اعترافات قلما يحصل عليها باحث من الرجال. فالمرأة المصرية بحكم تربيتها الصارمة المرتكزة على انكار الحياة الجنسية للبنات قبل الزواج، ترفض التصريح بأنها عرفت شيئاً من هذا الجنس قبل الزواج. وهى تخجل من الحديث فى هذه الأمور أمام أى رجل حتى وان كان طبيبها المعالج.

وقدأتضح لي من مناقشة بعض أطباء النفس الذين كانوا يشرفون على علاج بعض النساء العصابيات فى مجموعة بحثى، أن هؤلاء الأطباء يجهلون الكثير عن حياة المرأة أو الفتاة العصابية التى يشرفون على علاجها. وكان سبب ذلك اما أن الطبيب نفسه لم يتعمق بالقدر الكافى في حياة المرأة النفسية والجنسية، وأما أن المرأة تحرجت من التصريح له بحقائق حياتها.

وقد وجدت من خلال مناقشتى لمعظم أطباء النفس في مجتمعنا المصرى، ومن خلال زمالتى لعدد كبير من الأطباء ولمعظم أطباء النفس فى مجتمعنا المصرى، ومن السنوات التى عملت فيها فى الوحدات والمستشفيات العامة، وأيضاً خلال السنوات الاربع التى أصبحت فيها عضواً في مجلس نقابة الاطباء. من خلال كل ذلك فقد وجدت أن مهنة الطب فى مجتمعنا قاصرة حتى اليوم عن ادراك المشاكل الحقيقية الأساسية التي يعانى منها المريض سواء كان رجلا أو أمرأة، وبالذات إذا كانت امرأة. فأن مهنة الطب كغيرها من المهن تخضع للقيم السياسية والأجتماعية والأخلاقية في المجتمع. بل أنها كغيرها من المهن احدي الأجهزة التى تستخدم أحياناً لحماية هذه القيم والمحافظة عليها.

ويمثل الرجال الأغلبية العددية فى مهنة الطب كغيرها من المهن. وبالاضافة إلى الأغلبية العددية، فان معظم النساء من الطبيبات لا يختلفن فى أفكارهن عن الرجال الاطباء. بل أننى عرفت من الطبيبات

من هن أكثر تزمتاً وتخلفاً فى نظرتهن إلي المجتمع والحياة والناس والقيم السائدة.

وقد وجدت أن هذه النظرة المتزمتة المتخلفة، وبالذات تجاه المرأة والجنس، هى التى تسود مهنة الطب. وعلى الاخص داخل كليات الطب بالجامعات.

وقد حاولت أن أجرى هذا البحث نفسه فى قسم الأمراض النفسية بكلية طب قصر العينى بالقاهرة منذ سنوات، لكنى صادفت من العقبات ماجعلنى أصرف النظر عن الفكرة. وكان أول هذه العقبات هى العقلية التقليدية السائدة لدى الأطباء المسؤولين عن البحوث. هذه العقلية التى ترى أن كلمة «جنس» مرادفة لكلمة «عيب» وأن البحث العلمى المحترم يجب ألا يخوض في مثل هذه المسائل. وقد صادفت العقبة نفسها فى كلية طب عين شمس، ونصحنى أحد الزملاء الأطباء فى لجنة البحوث ألا أشير بحرف واحد إلي كلمة «جنس» في أسم البحث، حتى لا تعترض عليه لجنة البحوث. وكنت أفكر فى أن يكون عنوان بحثى «المشاكل التى تعترض الحياة الجنسية للمرأة المصرية». وبعد مفاوضات طويلة مع بعض الزملاء الاطباء فى طب عين شمس، حذفت كلمة «الجنسية» ووضعت مكلنها كلمة «النفسية». وبذلك زالت الحساسية لدى الأطباء المسؤولين، وتمت الموافقة على اجراء البحث في كلية طب عين شمس.

وهذا الكلام ليس خروجاً عن مناقشة نتائج البحث. بل أنه فى صلب

الموضوع. لأننى بعد أن حصلت علي تلك النسب المرتفعة من النساء والفتيات التى أجريت لهن عملية الختان فى الطفولة، أو اللاتى تعرضن في الطفولة لحوادث جنسية من رجال كبار، أصبحت أبحث فى كليات الطب ومراكز البحوث عن بحوث سابقة أجريت في مثل هذه المجالات دون جدوى. فأن أحداً من الأطباء أو الباحثين أو الباحثات لم يقدم علي بحث من هذا النوع. بسبب حساسية الموضوع. ولأن معظم البحوث لم تكن إلا بحوث شكلية من أجل الحصول على الشهادة أو الترقية، وأغلبية الباحثين والباحثات يبحثون عن طريق السلامة،أو أقصر طريق للوصول إلي الهدف المنشود (الشهادة أو الترقية).وليس هناك من يبحث عن المشاكل أو الصراعات مع المسؤولين عن العلم أو الدين أو الأخلاق أو الفضيلة، حيث أن كل هذه الأشياء مجتمعة تعانى من مرض الحساسية تجاه كلمة «جنس». وبالذات «الجنس» فيما يخص «المرأة».

إلا أننى بالرغم من كل ذلك، فقد عثرت على بعض الأطباء من ذوى الشجاعة العلمية الذين شجعونى على اجراء البحث منهم الدكتور احمد عكاشة والدكتور عادل صادق بكلية طب عين شمس بل أننى أيضاً عثرت على بعض الأطباء من ذوى الشجاعة العلمية الذين اقدموا على إجراء البحث العلمى الوحيد فى مصر عن ختان البنات وأثاره الضارة. وقد أجرى هذا البحث الدكتور محمود كريم والدكتور رشدى عمار سنة ١٩٦٥ فى كلية طب عين شمس. ويشتمل البحث علي جزءين : الجزء

الأول وعنوانه أثر ختان البنات على الرغبة الجنسية عند المرأة . والجزء الثانى بعنوان مضاعفات ختان البنات. وكان من نتائج هذا البحث الذى أجرى على ٦٥١ امرأة مختتنة (تم اجراء عملية الختان لها فى الطفولة) ما يلى:

(١) أن عملية الختان عملية ضارة بصحة المرأة، وهى تسبب صدمة جنسية للفتاة، ولها أثر مؤكد على اضعاف قدرة المرأة للوصول إلى قمة اللذة الجسدية (الأورجازم) ولها أثر أقل درجة على رغبة المرأة الجنسية.

(٢) أن التعليم يساعد على الأقلال من انتشار هذه العادة، حيث أن الآباء والأمهات المتعلمين أصبحوا يرفضون اجراء هذه العملية على بناتهم. أما الأسرة غير المتعلمة فلا تزال تختن، خضوعاً للتقاليد السائدة أو اعتقاداً بأن هذه العملية تقلل من الرغبة الجنسية عند البنت بهدف المحافظة على عذريتها وعفتها.

(٣) ثبت خطأ الفكرة التى كانت تقول بأن عملية الختان تمنع حدوث امراض سرطانية لأعضاء المرأة الجنسية الخارجية.

(٤) أن عملية الختان بجميع درجاتها، وعلى الأخص الدرجة الرابعة المعروفة بأسم النوع الفرعونى (الطريقة السودانية فى الختان) تصاحبها مضاعفات مباشرة أو بعد فترة من الزمن. مثل النزيف ، الألتهابات، اضطرابات فى المجارى البولية، أكياس أو أورام قد تسد مجرى البول أو الفتحة التناسلية، إلى غير ذلك.

(٥) وجد أن ممارسة العادة السرية لدى البنات «المختنات» أقل من النسبة التى ذكرها كينزى فى بحثه عن البنات غير المختنات.

وقد ألتقيت بالدكتور محمود كريم فى القاهرة، وعرفت منه أنه صادف كثيراً من العقبات أثناء اجراء هذا البحث. وأنه تعرض لكثير من النقد من بعض الاطباء وبعض رجال الدين، الذين يعدون أنفسهم حماة الأخلاق. والذى يتصور بعضهم أن فى التعرض لمثل هذه الموضوعات مساس بالأخلاق والتقاليد والدين.

وقد أتفقت بعض نتائج هذا البحث مع نتائج البحث الذى قمت به من حيث أن عملية الختان تحدث فى حياة البنت صدمة نفسية وجنسية. وأنها تصيبها بنوع من البرود الجنسى تختلف درجته من امرأة إلى امرأة ومن ظرف إلى ظرف. كما أن التعليم يساعد على احجام الآباء والأمهات عن اجراء العملية لبناتهم. لكن التعليم (فى رأيى) وبالذات التعليم التقليدى فى المدارس والجامعات الذى يهدف إلى الحصول على الشهادة وليس الحصول على الثقافة، هذا التعليم الشكلى لا يستطيع الوقوف بقوة فى وجه التقاليد الراسخة فى المجتمع المصرى. وبالذات التقاليد المتعلقة بالجنس وعذرية البنات وعفة النساء. لأرتباط مثل هذه التقاليد بالقيم الأخلاقية والدينية الحساسة السائدة منذ مئات السنوات.

وحيث أن عملية الختان هدفها الأول والأخير هو ضمان عذرية البنت وضمان عفتها قبل الزواج وبعده، فليس من المتوقع أن تنقرض هذه

العملية بسهولة من المجتمع المصرى (أو غيره من المجتمعات التى تسود فيها القيم والتقاليد نفسها). إلا أن كثيراً من الأسر المتعلمة أصبحت تتنبه لمضار هذه العملية وتحمى بناتها منها، كما أن طريقة اجراء العملية أصبحت أقل وحشية ، وانخفضت نسبة الطريقة الفرعونية بدرجات كبيرة فى المجتمع السودانى وفي جنوب مصر، وأصبح الاتجاه إلى التخفيف من درجة هذه العملية باستئصال البظار وحده أو جزء من البظر فقط. وكنت قبل أن اجرى هذا البحث أظن أن هذه العادة لا تعيش إلا فى الريف المصرى وبين الأسر غير المتعلمة، لكنى وجدت أن نسبة غير قليلة من الاسر المتعلمة فى القاهرة، لا تزال تؤمن باجراء هذه العملية كوسيلة لحماية البنت من الزلل.

وقد أيقنت خلال هذا البحث أن كثيراً من الأسر المتعلمة وغير المتعلمة لا تزال تؤمن بأن القياس الوحيد لشرف البنت هو عذريتها ليلة الزفاف. وأن معظم الرجال المصريين لا يتزوجون إلا العذراء. وقد وجدت أن أكثر مايهدد سمعة الاسرة أو شرفها هو سلوك بناتها ونسائها وحياتهن الجنسية التى يجب أن ترتكز أساساً على العفة والزهد. إلا أننى وجدت أن هذا التشدد الاخلاقى الظاهرى، يقابله تسيباً اخلاقياً فى الخفاء. فالأب الذى يضرب أبنته لأنها حادثت زميلا لها يخون زوجته فى معظم الأحيان. والأخ الذى يتظاهر بالتدين بالنهار يمد يده فى الليل ليلمس جسد أخته الصغيرة.

ان الأزدولجية الأخلاقية تقود بطبيعة الحال إلى التناقضات. وقد كنت أدرك من خلال عملي كطبيبة أن حوادث الاعتداء الجنسي على البنات والأطفال ليست بالقليلة في مجتمعنا، لأن مثل هذه الحوادث لا يدرى عنها أحد. وإذا ضبطت بالصدفة، فأن كثيراً من الأسر تتكتم الأمر حفاظاً على سمعة الاسرة وبناتها.

وقد وجدت في البحث أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية في الطفولة مرتفعة في حالة النساء غير المتعلمات عنها بين النساء المتعلمات. فالحالة الاقتصادية لغير المتعلمات كانت أدنى عنها بين المتعلمات،ونسبة المشاكل الأقتصادية أكثر ارتفاعاً في المجموعة غير المتعلمة. ومعظم هؤلاء يعيشون في بيوت صغيرة. وأفراد مثل هذه الاسر كثيرة الانجاب. وقد يعيش في حجرة النوم الواحدة عدد من الأخوة الذكور والاخوات البنات. وقد يكون معهم أيضاً الأب والأم. وفي مثل هذه الظروف تزيد نسبة العلاقات الجنسية السطحية وغير السطحية بين أفراد الأسرة الواحدة. قالت لي واحدة من العاملات في احدى شركات الادوية :

«كنت وأنا طفلة أرقد بين أبي وأخي. ولا أعرف في الليل من منهما الذي يمد يده ويلمس جسدي. وكنت أتظاهر بالنوم خوفاً من أمي التي كانت ثقيلة النوم لا تدري شيئا عما يحدث»

وقد وجدت أن نسبة مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تبلغ

٤٥ بالمئة فى حالة النساء غير المتعلمات (عصابيات وطبيعيات). أما في حالة الطبيعيات (متعلمات وغير متعلمات) فهذه النسبة ٣٥ بالمئة. وهى تزيد عن النسبة التى حصل عليها كينزي فى بحثه، إذ وجد أن هذه النسبة هى ٢٤ بالمئة فقط. وأنى لا أستطيع مقارنة مثل هذه النسب في مجتمعات شديدة الاختلاف فى الظروف الأجتماعية والثقافية كالمجتمع المصرى والمجتمع الاميركى مثلا. كما أن هناك فارق زمنى يبلغ عشرين عاماً بين بحث كينزى وهذا البحث. إلا أننى أستطيع أن أقول أن مثل هذه الحوادث الجنسية مع رجال كبار تزداد فى المجتمع أو فى الأسرة المكبوتة جنسياً، والتى ترتكز فيها التربية على انكار الجنس أو احتقاره. وفى مثل هذا الجو المكبوت قد لا يجد الشخص وسيلة للتخلص من توتره الجنسى إلا من خلال طفلة ترقد بجواره على السرير. وهي تنتشر أيضاً في مجتمعنا المصري بسبب الوضع الأدنى للفتاة والمرأة فى الأسرة، والأزدواجية الأخلاقية التى تسهل في مجتمعنا للرجل استغلال المرأة اجتماعياً أو اقتصادياً أو جنسيا. وفى حالة اعتدائه الجنسى عليها، فأنه يدرك أنها تخاف الفضيحة أكثر مما يخاف هو ، وأنها رغم كونها الضحية الا أنها هى التي تتحمل أثر الاعتداء لأنها هي التى تفقد عذريتها أو شرفها أو سمعتها، أما هو فلا يفقد شيئاً.

ان مفهوم الشرف مرتبط في المجتمع المصري بما يسمى «العرض» أو عذرية الفتاة قبل أن تتزوج ، واخلاصها لزوجها وطاعته بعد الزواج .

فإذا مافقدت البنت عذريتها لأى سبب، وإن كان اغتصاباً رغم أنفها، فانها تصبح فتاة بغير عذرية أو بغير شرف. وأن شرف الأسرة أو عرضها قد أصبح فى الأرض، وعلى رجال الأسرة أن يستردوا شرفهم الضائع اما بتتل الفتاة (كما يحدث فى الصعيد أحياناً) أو بكتمان الأمر (الذى يسمى الفضيحة) وتزويجها فى السر من الرجل الذى أعتدى عليها أو أى رجل آخر يتطوع للزواج منها. ويعتبر هذا الرجل المتطوع شهماً مضحياً بنفسه من أجل انقاذ شرف الأسرة، وكأنه يتطوع للموت في الحرب مثلا، أو في كارثة، وليس أنه يقبل على الزواج من فتاة.

لكن الزواج من فتاة غير عذراء يعتبر حتى اليوم فى مجتمعنا المصرى أمر مكروه لا يقبله أى رجل . وإذا أكتشف الرجل أن عروسه غير عذراء ليلة الزفاف، فسرعان مايطلقها. فتنتشر الفضيحة والعار الذى يلحق بأسرة الفتاة، التى قد تكون بريئة تماماً من أى تجربة جنسية قبل الزواج، وانما شاء حظها العاثر ألا تنزف ليلة الزفاف، أو قادها حظها العاثر إلى زوج لا يعرف العذراء من غير العذراء، وهذا امر صعب لا يمكن أن يعرفه أحد وكم يجهل هذا الأمر أيضاً معظم الاطباء. ولأن العذرية لا تعرف إلا بالنزيف الدموى ليلة الزفاف. وكم من عذراوات لا ينزفن قطرة واحدة ليلة الزفاف، بسبب اختلاف أغشية البكارة واختلاف أحجام أعضاء الرجال الجنسية، وبسبب حوادث غير جنسية في حياة البنات، أو حوادث جنسية وقعت فى طفولة البنت المبكرة، مثل هذه

الأعتداءات الجنسية من رجال الاسرة ذاتها أو من الغرباء.

ويتضح من جدولى ١٣ـ١٤ أن نسبة المشاكل الجنسية والعاطفية فى فترة المراهقة للعصابيات تبلغ ضعف النسبة للطبيعيات (٤١ بالمئة مقابل ٢٠ بالمئة). وقد كانت معظم هذه المشاكل بسبب الممارسات الجنسية قبل الزواج، والخوف من فقدان العذرية أو فقدانها فعلاً ،أو الخوف من الحمل أو التعرض للحمل فعلا، ومحاولة الاجهاض بشكل أو بآخر. ذكرت لى احدى الطبيعيات أنها فقدت عذريتها، لكنها ذهبت إلى طبيب فأعاد لها العذرية بعملية صغيرة نظير مائة جنيه، ثم تزوجت وهى تعيش سعيدة مع زوجها. احدى العصابيات قالت أانها فقدت عذريتها لكنها لم تذهب إلى طبيب وتزوجت وصارحت زوجها بالحقيقة. لكنه فضحها عند أسرتها. ومنذ ذلك الوقت وهى تعانى من العصاب. وقد أستمعت إلى مشاكل متعددة من هذا النوع. وحينما كنت أسأل المرأة أو البنت عن حياتها الجنسية قبل الزواج، كانت تتردد كثيراً فى التصريح وأنى أعتقد أن هذه النسب التى حصلت عليها أقل من الحقيقة، وهى تعتبر نسباً منخفضة إذا قورنت بمثيلاتها في المجتمعات الأخرى. وبالطبع لابد من مراعاة الفروق فى الظروف الأجتماعية والثقافية عند مقارنة مثل هذه النسب فى مجتمعات مختلفة. وتقول الدراسات الجنسية فى بلد مثل بولندة أن ٧٩ بالمئة من الاناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج في سن السادسة عشر أو ماحولها. وفى دراسة أخرى، فقد

وجد أن ٩ر٠ ٥ بالمئة من الاناث كانت لهن علاقات جنسية قبل الزواج. أما في المجتمع الاميركى أو المجتمع السويدى، فأن العلاقات الجنسية قبل الزواج أصبحت هى القاعدة سواء فى حالة الذكور أو الاناث. وقد أصبح المجتمع السويدي فى السنين الاخيرة يفصل بين الجنس والزواج. وقد أظهرت نتائج البحث أن اغلبية الأسر فى المجموعات الأربعة تفضل الذكور عن الاناث (٥ر٧٢ بالمئة فى المتوسط) لكنها تزيد فى الأسر غير المتعلمة عنها في الأسر المتعلمة. وتزيد نسبة النساء والفتيات اللاتى تمنين أن يكن ذكوراً في المجموعة المتعلمة عنها فى المجموعة غير المتعلمة. ذلك أن التعليم يزيد من وعد الفتاة بحقوقها، فتصبح أكثر ادراكاً لمظاهر التفرقة بينها وبين أخيها. ويزداد تمردها على الوضع الأدنى وتتمنى أن تكون ضمن الجنس الأعلى. ويلعب التعليم دوراً ايضاً في تشجيع الفتاة أو المرأة علي مقاومة الكبت، ويجعلها أكثر جرأة في ممارسة الجنس أو محاولة ارضاء رغبتها الجنسية أو الفكرية. فقد لوحظ ارتفاع نسبه الطموح الفكرى وتفضيل التعليم على الزواج بين المتعلمات (٢ر٨٦ بالمئة).

ويدل ارتفاع نسبة تفضيل التعليم عن الزواج فى المجموعات الأربعة ان الطموح الفكرى، والرغبة فى التعليم والعمل وتحقيق الذات من خلال العمل المنتج (وليس من خلال الزواج) هو صفة طبيعية في المرأة لا تغير من كونهاأنثي. وأنها حين يفرض عليها الزواج كوظيفة وحيدة فى الحياة

تشعر بالأحباط والنقص وعدم تحقيق الذات، وتتعرض للمشاكل النفسية وللعصاب. وقد أتضح من نتائج البحث أن المرأة العصابية أكثر طموحاً فى الحياة من المرأة الطبيعية. وأنها تشعر بكونها انسانة لها عقل وجسد اكثر من المرأة الطبيعية التى تقتل طموحها الفكرى فى الحياة من أجل الزواج أو النجاح في حياتها الزوجية.

وحيث أن المجتمع لازال ينظر إلى أن الوظيفة الأساسية للمرأة فى الحياة هى الزواج ، ولهذا تواجه المرأة الطموحة فكرياً العراقيل والصعاب التى تقودها أحياناً إلى العصاب . وتواجه المرأة العصابية المشاكل الجنسية والمشاكل الأسرية أكثر من المرأة الطبيعية، بسبب رغبة المرأة العصابية فى الانطلاق والتساوى مع الرجل فى الحرية الاجتماعية والشخصية، وهو مطلب طبيعى للمرأة التي تشعر بأنسانيتها وتكامل شخصيتها كجسم وعقل. أما المرأة الطبيعية، فأن قبولها للأمر الواقع وتكيفها معه، يجعلها أكثر استسلاماً للقيود الجنسية والاجتماعية والأسرية، وبالتالى أقل مواجهة للمشاكل والعصاب من المرأة غير المكبوتة أو العصابية.

وقد لوحظ فى نتائج هذه الدراسة أرتفاع نسبة المشاكل داخل الاسرة بين المتعلمات العصابيات (٤٦ بالمئة) عنها بين المتعلمات الطبيعيات (٣ر١٣ بالمئة). وهذا يشير إلى أن المشاكل الأسرية خلال فترة المراهقة أكثر تأثراً على نفسية الفتاة من الحرمان العاطفى خلال مرحلة الطفولة.

وقد يكون سبب ذلك أن القيود والكبت والتحذيرات، تزيد على الفتاة فى سن المراهقة عنها فى مرحلة الطفولة، وأن الطفلة البنت تتمتع بحرية اجتماعية أكثر من الفتاة المراهقة. ولهذا تزيد وطأة المشاكل الأسرية على الفتاة المراهقة. أكثر من الطفلة البنت، وتشعر الفتاة المراهقة بالظلم والأضطهاد وتمييز الذكور عليها أكثر من الطفلة البنت.

وقد أتضح من البحث أن ٥٨ بالمئة من العصابيات المتعلمات لديهن مشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه. وهذه النسبة مرتفعة عن حالة الطبيعيات المتعلمات، حيث لا تشعر بمثل هذه المشكلة إلا ٦ر١٦ بالمئة منهن فقط. وهذا يشير إلي أن من العوامل التى تسبب العصاب للنساء والفتيات مشكلة الجمع بين الدورين داخل البيت وخارجه. وأن مثل هذه المشكلة لا يواجهها الرجل، الذى لا يطلب منه أى عمل أو مسؤوليات داخل البيت. وبأزدياد خروج المرأة إلى التعليم والعمل، فأن أثر هذه المشكلة يزداد، خاصة وأن عقلية الرجل والمجتمع عامة لا تزال ترى أن أعمال البيت هى مسؤولية المرأة وحدها، وأن الرجولة أو الذكورة تقتضى من الرجل إلا يكنس ويمسح ويغسل الصحون، فهذه أعمال لا تليق بكرامة الذكر، وانما هى تليق فقط بجنس الأناث الأدنى.

أما أرتفاع نسبة المشاكل بسبب الدورين داخل البيت وخارجه بين النساء غير المتعلمات، فقد يرجع إلى أن هؤلاء النساء لا يستطعن الأستعانة بخادمة أو شغالة نظراً لأنخفاض مستوى حياتهن الأقتصادى.

ويدل الارتفاع هنا فى نسبة من لا يرضي مستوى العمل طموحها، إلي انخفاض العمل في مجموعة العاملات غير المتعلمات (كان أغلبه روتينى أو آلي أو يدوى أو أحد أعمال الخدمة المنزلية).

وإذا عرفنا أن مجتمع العمل أو الدراسة لا يساوى فى نظرته بين المرأة والرجل، وبالذات فى حالة غير المتعلمات، لأدركنا أن المرأة غير المتعلمة أكثر استسلاماً للتفرقة والاضطهاد من المرأة المتعلمة، وأن المرأة الطبيعية أكثر استسلاماً من المرأة العصابية. ولو أضفنا إلى ذلك أن طموح المرأة الطبيعية فى العمل أو الدراسة أقل ارضاء من المرأة العصابية، فأنه يتضح أن المرأة الطبيعية أكثر خضوعاً لظروفها السيئة من المرأة العصابية وأن هذا الخضوع ليس نوعا من الصحة النفسية بقدر ماهو نوع من العجز والاستسلام وعدم المقاومة.

وأرتفاع نسبة المشاكل الزوجية فى هذا البحث يوضح أن الزواج يمثل مشكلة كبيرة فى حياة المرأة، وأنها بأنتقالها من حالة كونها غير متزوجة إلي كونها زوجة تصبح معرضة لعدد من المشاكل الاجتماعية والنفسية والجنسية التى تسبب لها العصاب فى أحيان كثيرة.

ويتضح أن المرأة العصابية المتعلمة أكثر المجموعات قدرة على اختيار زوجها عن حب. وأن أقلهن في هذا الشأن هى المرأة الطبيعية غير المتعلمة. ورغم ذلك فأن المرأة الطبيعية غير المتعلمة هى أقل المجموعات اقداماً على العلاقات الجنسية خارج الزواج، علي حين أن

المرأة العصابية المتعلمة هى أكثرهن اقداماً على هذه العلاقات. ولو أضفنا إلى ذلك أن سيطرة الزوج وعدم تعاونه مع زوجته يزيد فى حالة الطبيعيات غير المتعلمات ، نرى أن المرأة العصابية المتعلمة أكثر من غيرها جرأة فى البحث عن ارضاء رغباتها، وأكثر رفضاً لواقعها ولسيطرة الرجل، رغم أن حياتها أفضل بالنسبة للمرأة الطبيعية وبالذات غير المتعلمة.

ان نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج فى مجموعتى العصابيات المتعلمات وغير المتعلمات كانت (٣ر٢١ بالمئة). وهى أكثر منها لدي مجموعتى الطبيعيات متعلمات وغير متعلمات (٩ بالمئة) بالرغم من أن عدم الاشباع الجنسى في معظم الحالات يكاد يكون متساوياً (٥ر٧٧ بالمئة و٤ر٧٠ بالمئة). ومعنى ذلك أن المرأة الطبيعية رغم حرمانها الجنسى أقل جرأة فى ممارسة الجنس خارج الزواج من المرأة العصابية. أو أنها أقل جرأة فى التصريح بهذه الممارسة لو أنها حدثت.

وقد أتضح من النتائج أن النساء العصابيات يفضلن حياتهن عن حياة أمهاتهن بنسبة أكبر من النساء الطبيعيات، وأن النساء المتعلمات يفضلن حياتهن عن حياة امهاتهن بنسبة أكبر من النساء غير المتعلمات. وهذا يشير إلى أن المرأة العصابية رغم مشاكلها فى الحياة أكثر طموحاً ورغبة فى التقدم والسير إلى الامام من المرأة الطبيعية.

كما أن التعليم يلعب دوراً فى أن يجعل المرأة اكثر اقداماً على

التقدم رغم مايخلقه التقدم من مشاكل جديدة.

وقد وجد فى البحث أن العصابيات المتعلمات أكثر استخداماً لوسائل منع الحمل من الطبيعيات ، وأن الزوجات غير المتعلمات أقل استخداماً لوسائل منع الحمل من المتعلمات.

وتفسير ذلك أن الثقافة تجعل المرأة أكثر وعياً ورغبة في التحكم فى جسدها وحملها وولادتها، وأنها لا تحتاج إلى الاطفال من أجل تحقيق ذاتها من خلالهم، كما تحتاج إليهم المرأة غير المثقفة. وحيث أن ازدياد وعى المرأة بحقوقها كانسانة يعرضها للصراع من أجل تحقيق ذاتها داخل البيت وخارجه ،لهذا فأن المرأة العصابية أكثر ادراكاً بأن كثرة الأطفال تمثل قيداً للمرأة علي وقتها وحريتها، وبالتالي هي تحاول التحرر من هذا القيد عن طريق وسائل منع الحمل . وقد لاحظت أن النساء العصابيات أقل التصاقاً بأطفالهن من النساء الطبيعيات. وقد فسر بعض الأطباء المعالجين مثل هذه الحالات بنقصان في مشاعر الأمومة بسبب المرض النفسى، ولكنى وجدت أن شدة التصاق المرأة الطبيعية بأطفالها وتعلقها الشديد بهم ليس إلا أمومة مريضة متضخمة، تعوض بها عن أنواع الحرمان الأخرى المفروضة عليها من الأسرة والمجتمع.

ومن أهم نتائج البحث هو أن المشاكل الفكرية والاجتماعية كانت أكثر اهمية لدى معظم الحالات من المشاكل الجنسية أو العاطفية.

وقد تختلف هذه النتيجة مع الفكرة الشائعة بأن المرأة أقل طموحا من

الرجل فى المجالات الفكرية والاجتماعية، وأنها أكثر انشغالا بالأمور العاطفية والزوجية والجنسية. ان المرأة ليست اقل طموحاً من الرجل فى الحياة الفكرية والاجتماعية، ولكنها تكبت طموحها الفكرى من أجل ارضاء الرجل سواء كان زوجاً أو اباً أو ولى أمر. وهى ليست أكثر من الرجل انشغالا بالأمور الجنسية والعاطفية، العكس هو الصحيح. فلقد أتضح لي من الحديث مع أزواج بعض الزوجات العصابيات والطبيعيات، أن الزوج أكثر حساسية لكفاءته الجنسية ورغبته فى اثبات هذه الكفاءة بشتى الطرق. أما المرأة فهى لا تهتم كثيراً بدورها الجنسى أو عدم اشباعها الجنسى، وتحس وطأة المشاكل الأخرى أكثر. وتفسير ذلك أن المجتمع يساعد الرجل أكثر من المرأة على اشباع طموحه الفكرى والاجتماعى، فيقل انشغاله به عن المرأة التى تشعر بأن المجتمع يحرمها من اشباع طموحها الفكرى والأجتماعى أكثر مما يحرمها من اشباع طموحها العاطفي والجنسى. ان المرأة في نظر المجتمع أداة جنس وحب وعاطفة أكثر منها أداة فكرية للعمل والانتاج فى المجتمع.

ومن جدول رقم (٣٣) نجد أن القلق أكثر أنواع العصاب انتشاراً بين المتعلمات. وهذا معناه أن التعليم يجعل المرأة أكثر وعياً بوجودها ، ومن ثم أكثر وعياً بالصراع . فالمرأة التى لا تحس وجودها ،وقيمة هذا الوجود، لا تحس بالصراع من أجل اثبات وجودها أو تحقيق ذاتها. وبالتالى لا تعرف القلق في حياتها. فالقلق ليس إلا قلقاً على الوجود

كما عبر عن ذلك رولوماى فى تعريفه للقلق النفسى كنوع من أنواع العصاب.

ان القلق يحتاج إلى درجة معينة من الوعى حتى يحدث ، والقلق ليس إلا رغبة فى الحصول على المزيد، ورغبة فى حياة أفضل وطموح أكبر، وتحقيق نوع من التكامل والرضا عن النفس وتحقيق الذات. أما الخوف فهو شعور بالضعف والرغبة فى الانسحاب، وعدم القدرة على مواجهة التحديات والصراعات، والهستيريا هى ذلك العجز عن مواجهة الصعاب الذى يأخذ شكل العجز العضوى فى أحد أعضاء الجسم. القلق هو مرض النساء القويات الصامدات اللاتى يواجهن التحديات، والهستيريا والخوف هما مرض الضعيفات العاجزات عن المواجهة. ولهذا فان علاج القلق ليس هو (في رأيى) بأزالته عن طريق المهدئات والمسكنات، ولكن علاج القلق هو تسليح المرأة بقوة، وامكانيات أكثر للأنتصار على التحديات وتحقيق ذاتها كانسانة متكاملة. ومن هنا أهمية فهم المعالج أو الطبيب النفسى لمشاكل المرأة الأجتماعية، وأهمية أيمانه بحق المرأة فى الحياة كأنسانة متكاملة العقل والجسد فى مجتمع يساوى بين جميع أفراده.

اما الجدول الذى يشير إلى نسب الاعتداءات والحوادث الجنسية في حياة البنات الصغيرات، فربما يكون أقل من الحقيقة، إذ لم يكن من السهل لكل امرأة أو فتاة أن تعترف لى بكل ماوقع لها فى طفولتها،

رغم جهودى فى هذا السبيل. كما أن ذاكرة بعض الأطفال تنسى مثل هذه الحوادث إذا حدثت فى سن مبكرة جداً أو بسبب أن ذاكرة الانسان تنسى فى معظم الاحيان ماتريد أن تنساه.

أن هذا النسيان لا يعني أن الحادث ضاع في الزمن، ولكن معناه أنن الحادث أختفى فى سراديب العقل الباطن ورقد فى الظلام، وقد يطفو على السطح حينما تساعد الظروف على اظهاره.

وقد يندهش بعض الناس لحدوث مثل هذه الحوادث الجنسية مع البنات الأطفال بواسطة الرجال الكبار الغرباء أو من أفراد الأسرة نفسها. وهذه الدهشة تدل على أن هؤلاء الناس ينسون حقائق كثيرة، ويتجاهلون تناقضات عديدة يعيشها الرجال الكبار فى المجتمع. لقد وجدت أن معظم هذه الاعتداءات على الاطفال البنات تحدث فى الأسر المكبوتة جنسياً، ولذلك لا يكون أمام الأخ الشاب المراهق إلا أخته الصغيرة، خاصة إذا كانت تشاركه سريراً واحداً كما يحدث فى الأسر ذات الموارد المحدودة. أعترفت لى احدى النساء أن أخاها الذى يكبرها بأربعة أعوام أتصل بها وهى طفلة ولم يكتف بها بل أتصل بأخواته الثلاث الأخريات الأصغر منها، مع أنه كان شاباً طبيعياً ومتفوقاً فى دراسته، ولم يشك فيه أحد من الأسرة. وإذا كان الأخ المحروم يعجز عن التحكم فى نفسه مع أخته الطفلة، فما بال الشاب الغريب سواء كان جاراً أو بواباً أو خادماً أو مدرساً، ولكن من يدفع ثمن هذا ؟ انها البنت المسكينة وحدها، التى

تفاجأ فى ليلة الزفاف أنها ليست عذراء. وتحدث الكارثة التى تعصف بمستقبلها. أو إذا مرت ليلة الزفاف بسلام، فأن تجربتها السابقة والتى غلفتها بالاحساس بالذنب والخوف والكبت، تقودها إلي البرود الجنسى وعدم القدرة على الاشباع.

ان الجدول الذى يشير إلى نسبة عدم الاشباع الجنسى في المجموعات الأربعة من النساء قد لا يعبر عن كل الحقيقة، لأن المرأة المصرية بطبيعتها تخجل من الحديث فى الجنس، وهى إذا لم تخجل، فهى تجهل معنى الاشباع ولا تعرف ماذا يعنى الأورجازم. وهى إذا عرفته نظرياً لم تعرفه عمليا. وهى إذا عرفته عمليا فهذا أمر نادر يتوقف على قدرتها على تحطيم حواجز الكبت والخوف النفسية داخلها. ويتوقف أيضا على أن يكون زوجها قادراً على فهمها ومتعاوناً معها، إلى أبعد حد، وليس انانياً، وأغلبية الرجال غير ذلك، بحكم التربية القائمة علي تمييز الذكور عن الاناث .

ان الجدول الذى يشير إلى نسبة الأزواج الذين يتعاونون مع زوجاتهم فى أعمال البيت والأطفال، يمكن أن يعطينا فكرة عامة عن أن أغلبية الأزواج لا يتعاونون مع زوجاتهم. وهناك بحث محلى آخر أوضح أن غالبية الأزواج فى الأسر المصرية (فى الريف والحضر) لا يسهمون مطلقاً فى الأعمال المنزلية أو رعاية الأطفال (فيما عدا الذهاب بهم إلى الطبيب) وذلك فيما يقرب من ٨٥ بالمئة . هذا برغم أن معظم الزوجات الريفيات

يشاركن أزواجهن العمل بالحقل أو يعملن بالتجارة ، وأن نسبة غير قليلة من الزوجات فى الحضر، يعملن خارج البيت ويشاركن فى نفقات الاسرة مع الزوج.

ان أنانية الأزواج ليست إلا نتيجة لتلك التربية التى تقوم فى معظم الأسر على التفرقة فى المعاملة بين الولد والبنت. وقد رأينا في جداول البحث كيف أن أغلبية الأسر المصرية لا تزال تفضل الذكور عن البنات، ومثل هذه التربية تخلق رجالا ساديين أنانيين، ونساء ماسوشيات سلبيات. كما ان هذه التربية تفسد العلاقات بين الرجال والنساء، وبالذات العلاقات الزوجية، وتسبب مشاكل متعددة وخاصة للزوجات العاملات، بسبب الصراع الذى تعيشه المرأة العاملة سواء فى عملها خارج البيت أو في علاقتها مع زوجها داخل البيت، او فى علاقتها مع نفسها وصراعها بين صفات الانوثة التقليدية من طاعة وخضوع، وصفات المرأة العاملة المستقلة الشخصية والرأى. ان الدورين اللذين تقوم بهما المرأة العاملة خارج البيت وداخله يشلان لها عبئاً جسدياً ونفسياً شديداً، وتجد المرأة العاملة نفسها أحياناً من شدة الارهاق، ومن شدة الصراع بين الدورين، مطالبة بأن تختار إما عملها وإما حياتها الزوجية. أما الرجل فهو لا يواجه بمثل هذه المشكلة ابداً. لأن المجتمع بجميع قوانينه ونظمه قد جعل العمل للرجل حقاً وواجباً لانقاش فيه. وكذلك جعل الزواج للرجل البيت

الذي تخدمه فيه الزوجة وتطيعه وتلبى رغباته، وإلا أستخدم ضدها قانون الزواج، فطلقها أو عاقبها.

وفي بحث محلى وجد أن الاختيار بين البيت والمهنة تمثل مشكلة انفعالية حادة عند كثير من النساء ،فتسبب لهن حيرة دائمة، وصراعاً نفسياً موصولا.أما الرجل فأن الزواج لا يعطله عن عمله. ذلك أن الزواج عنده حادث عارض. ووصل إلى نتائج مشابهة عدد من الباحثين أمثال سيجيل Siegel وكول Cole وبلاد حيث وجدوا أن النساء العاملات يظهر عليهن أعراض نفسية أكثر حدة مما يظهر على العمال الرجال الذين يشاركونهم العمل نفسه والظروف نفسها.

وسوف يظل الزواج مشكلة فى حياة النساء العاملات إلي أن تحدث المساواة الكاملة بين الجنسين داخل الزواج وخارجه.

وبسبب التفرقة فى المعاملة بين البنات والأولاد. واعداد البنت للزواج والخدمة بالبيت أكثر من اعدادها للعمل المنتج فى المجتمع، وبث صفات الأنوثة الخاطئة فى نفس البنت منذ صغرها من حيث الطاعة والهدوء والاستكانة، وزجرها أو اتهامها بالاسترجال ان أبدت شيئاً من قوة الشخصية او الاستقلال فى الرأى. كل ذلك يفسد العلاقة بين الأزواج والزوجات وتصبح الزوجة المثالية هى الزوجة المطيعة المستكينة، وليست الزوجة الذكية صاحبة الرأى. ان ذكاء المرأة أو استقلال رأيها يعتبر عيباً لا ميزة، ويفسر تفسيراً سيئاً على أنه نوع من العناد أو العصاب أو

الشذوذ أو التشبه بالرجال. ان معظم الزوجات الذكيات المثقفات اللاتى تحدثت معهن كانت أحدى مشاكلهن الأساسية أن أزواجهن يكرهون صفة الذكاء فيهن ويقاومونها بشتى الطرق. ويفضلون عليهن النساء الغبيات لمجرد أنهن يطيعنهم طاعة عمياء.

وفى بحث محلى، أتضح أن أكثر صفات الزوجة تفضيلا عند الأزواج (في المجموعة الريفية) هى قدرة الزوجة علي قيامها بواجباتها كربة بيت ومدبرة للشؤون المنزلية. وأن تكون مطيعة. ومتعاونة . وبالنسبة للأزواج (في المجموعة الحضرية) فضلوا من صفات الزوجة الطاعة أولا، ثم القدرة على الصبر والصمود أمام الأزمات، والمشاركة في تقدير مايتعرض له الزوج من ظروف، وحسن الخلق، وحسن التدبير فى الشؤون. أما الصفات التى يكرهها الزوج فى زوجته (في المجموعة الريفية) فهى صلابة رأيها أو عنادها، ثم عدم حب الزوجة لأهل الزوج، والتدخل فى شؤونه الخاصة، والغيرة من الزوجات الأخريات. وبالنسبة للأزواج (فى المجموعة الحضرية) فالزوج يكره فى زوجته الغضب وشدة الحساسية أولا، ثم صلابة الرأى والعناد، وعدم الاهتمام بمظهرها والغيرة على الزوج، وعدم حبها لأهله، وأخيراً رغبة الزوج فى السيطرة.

أما الزوجات فقد وجدت الباحثة أن الصفات التى تكرهها الزوجة فى زوجها (فى المجموعة الريفية) هى أولاً سرعة غضب الزوج، والخضوع لأهله، وأنانيته الشديدة واهانة الزوجة واساءة معاملتها ، والتحكم فى

الزوجة واستبداد الزوج. وفى المجموعة الحضرية وجدت الباحثة تشابهاً فى الصفات غير المستحبة إلى جانب صفات أخري لم تشر إليها الزوجات الريفيات. وكان من أولى الصفات غير المفضلة عندهن هى سرعة الغضب بالنسبة للزوج، ونرفزته الشديدة على أبسط الاسباب، وعدم معاملته لها كزوجة. ورأت بعض الزوجات أن أخلاق أزواجهن وتصرفاتهم كلها معيبة.

وأوضحت الدراسة أن بعض الأزواج فى المجموعتين حاولوا القيام بمحاولة لتغيير هذه الجوانب فى طباع زوجاتهم حتى يتم التوافق بينهما بالصورة التى يرتضونها. إلا أن نسبة الأزواج الذين فشلوا فى تغيير زوجاتهم (فى المجموعتين) أكبر من نسبة الأزواج الذين أحدثوا هذا التغيير. وهذا يدل فى رأيى على أن مقاومة الزوجة (سواء فى الريف أو المدينة) لسلطة الزوج ليست هينة ، وأن الصراع بين الزوج ووزوجته لا ينتهى دائماً بخضوع الزوجة الكامل. وانما هو خضوع جزئى أو ظاهرى خوفاً من الطلاق أو المشاكل مع الزوج، وتظل المرأة فى أعماقها محتفظة بصفاتها الطبيعية غير المستحبة من الزوج. وأهمها تلك الصفة التى يطلق عليها الزوج أسم صلابة رأى الزوجة أو عنادها. ان افصاح الزوجة عن رأيها يعتبر فى نظر الزوج نوعاً من العناد، لأن الزوج يرى (عرفاً وقانوناً) أن الزوجة واجبها «الطاعة» فقط، وليس لها أن تناقش أو أن يكون لها رأى. فإذا كان لها رأى، فهذا ليس ميزة فيها كأنسانة تفكر

وتعتز برأيها، وانما هو عيب وصفة غير مستحبة توضع تحت عنوان العناد وصلابة الرأى. ويحاول الزوج أن يصلح زوجته، وذلك بأن يحولها من زوجة لها رأى إلى زوجة بلا رأى. ورأى زوجها هو رأيها. فأن فشل فى اصلاحها فالويل لها، الطلاق أو الزواج بأخرى،أو السب او الضرب. وفى حالة الأزواج المثقفين أو المهذبين، فأنه الاهمال أو الهجران، والتسلل إلى عشيقة أو امرأة أخرى تعترف له أنها تطيعه طاعة عمياء، لان رأيه صائب مائة فى المائة، ولانه لا يخطئ أبداً، ولأنه ليس بشراً ولكن آله.

وكم تصبح المشكلة حادة فى حياة المرأة العاملة خاصة، إذا كانت ذكية ومثقفة، لأنها تضطر في كثير من الأحيان أن تتظاهر بالغباء من أجل الحفاظ على حياتها الزوجية، أو تضطر إلي تنفيذ رأى زوجها الخاطئ لانه مصر عليه ورافض لرأيها. وهذا بطبيعة الحال يؤدى إلى اصابة النساء المتزوجات بالعصاب أكثر من النساء غير المتزوجات، والنساء الذكيات المثقفات أكثر من النساء غير المثقفات.

على أن المرأة التى حرمت من التعليم أو حرمت من العمل لها أيضاً مشاكلها التى تسبب لها العصاب. أن الأنقطاع عن التعليم أو العمل يسبب للمرأة، وخاصة الذكية، عصاباً وألماً نفسياً بسبب احساسها بضياع مستقبلها، وعدم قدرتها على تحقيق ذاتها كأنسانة لها طموح فكرى في الحياة. وتظهر هذه المشكلة بوضوح فى الطبقات المستريحة اقتصادياً حين تشعر المرأة غير العاملة بالفراغ القاتل وضياع حياتها هباء، وأن

الزواج لا يحقق ذاتها كأنسانة. فالرجل لا يحقق ذاته من خلال الزواج ،وانما من خلال العمل المنتج فى المجتمع. وتبين من بعض البحوث عن المرأة العاملة أن المرأة تخرج إلي العمل تحت الحاح الضغط الانفعالي لشعورها بالوحدة أكثر من خروجها تحت ضغط الحاجة الاقتصادية. وهذا بالطبع فى غير الطبقات الكادحة والفقيرة، التى تمثل الحاجة الاقتصادية السبب الرئيسى لخروج نسائها للعمل. بل إلى خروج الرجال للعمل أيضاً. ان الحاجة الاقتصادية هى التى تدفع ملايين الرجال والنساء من الطبقات الكادحة والفقيرة إلى العمل. أما فى الطبقات المستريحة نسبياً، فأن الانسان (امرأة ورجل) يشعر بحاجة إلى العمل من أجل تحقيق ذاته كانسان،ولكن العمل هنا لابد أن يكون من ذلك النوع الذى يحبه الانسان ويختاره، وليس العمل الذى يفرض عليه ويشعر نحوه بعدم الرضا. وهذا أمر لا يتحقق فى العالم لمعظم الناس (نساء ورجال) بسبب النظم الاجتماعية القائمة على التنافس والأستغلال أكثر من التعاون والمساواة.

وقد أتضح من نتائج البحث أن عدم الاشباع الفكرى فى العمل المنتج بالمجتمع الكبير، يمثل مشكلة نفسية فى حياة المرأة المصرية أكثر حدة من عدم الاشباع الجنسى.

وهذا أمر طبيعى فى حياة الأنسان (أمرأة أو رجل). لأن الانسان حيوان مفكر، والمرأة الذكية المثقفة تحتاج الاشباع الفكرى من خلال

العمل المنتج أكثر من غيرها التى لم تحظ بالثقافة والوعى والذكاء.

ان الكبت الفكرى يؤدى إلى كبت جنسى، والبنت التى تربى على كبت أفكارها وآرائها تتعود أيضاً على أن تكبت رغباتها ومشاعرها. والكبت الفكرى طوال سنوات الطفولة والمراهقة يؤدى إلى عقم فكرى فى الشباب والكهولة. وكذلك الكبت الجنسى طوال سنوات الطفولة والشباب يقود إلي عقم جنسي (ومعناه برود جنسى) في سن النضوج والكهولة. ان انتشار البرود الجنسى عند الزوجات أحد نتائج الكبت الفكرى والجنسى المفروض على البنات منذ الولادة. والكبت الجنسى في مجتمعنا كان يمكن أن يكون أقل خطراً على صحة البنات والنساء النفسية لو أن الثقافة والأعلام والفنون فى مجتمعنا تخضع للقيم الاخلاقية نفسها التى تتحكم فى تربية البنات. لكن هذا لا يحدث فى مجتمعنا. لأن الذى يتحكم فى وسائل الثقافة والفنون والأعلام عامة ليست هى القيم الأخلاقية القائمة على الكبت الجنسى، وانما هى القيم التجارية القائمة على الربح من وراء عرض أفلام الجنس والرقصات العارية وأجساد النساء وتأوهات المطربين والمطربات ليل نهار فى الراديو والتلفزيون، وعرض الافخاذ والنهود العارية فى صفحات المجلات.

ويصبح على البنت المصرية أن تحل وحدها المعادلة الصعبة. عليها أن تتشبع بهذه الافلام والصور والأصوات الصارخة بالجنس والشبق، وعليها فى الوقت نفسه إلا تتأثر بها . وان تأثرت (وهذا مايحدث) فعليها أن

تخفى هذا التأثير ، وأن تتظاهر بشئ آخر. أما أن يتحول هذا التأثر إلى فعل (وهذا أمر طبيعي عند الانسان السليم نفسياً وجسدياً) فهذه هى الطامة الكبرى التى تقع في حياة البنت، سواء انكشفت أو لم تنكشف ان انكشافها يقوْد إلي فضيحة علنية يضيع فيها مستقبل البنت أو حياتها، وأن عدم انكشافها يقود إلى احساس طاغى بالخوف أو الذنب يلازمها طوال حياتها، ويسبب لها البرود الجنسى أو العصاب أو ماشابهه. وفى جميع الأحوال لا يؤدى الكبت والتناقضات التى يفرضها المجتمع على البنت إلا إلى التعاسة العامة التى تشعر بها النساء والفتيات من جميع الاعمار، المتزوجات منهن وغير المتزوجات. وقد تنكر بعض النساء هذ التعاسة، ويتوهمن أنهن سعيدات، لكن المرأة منهن لا تصمد طويلا أمام الأسئلة التى تجعلها تعيد التفكير فى حياتها وفى سعادتها السطحية. احدى هؤلاء أقنعتنى أول الامر انها سعيدة وراضية بزوجها وأطفالها وأسرتها، ولا ينقصها شئ. وحينما بدأت أسألها عن طفولتها تلعثمت بعض الشئ. وحينما سألتها عن طموحها في الحياة قالت أنها دفنت هذا الطموح فى اليوم الذى تركت فيه الدراسة لتتزوج. وحينما سألتها عن حياتها الجنسية مع زوجها وهل تحصل على الاشباع، قالت أنها لا تعرف شيئا عن هذا، ولا تمارس الجنس إلا لترضى زوجها. أما هى فيكفيها سعادة أن زوجها لا يتذمر ولا يشخط كالازواج الاخرين، ولا يدخن ولا يعربد مع النساء، وهو رجل مستقيم لا يعرف

الطريق إلا من مكتبه إلى بيته، وهى تعتبر نفسها زوجة محظوظة بالنسبة لغيرها من الزوجات اللاتى يتعرضن للشتم أو الضرب أو الطلاق.

هذه السعادة فى علم النفس تشبه سعادة العبيد. فالعبدُ يشعر بالسعادة فى اليوم الذي لا يضربه فيه سيده. والخادم يشعر بالسعادة فى اليوم الذى لا يشخط فيه سيده. والزوجة تشعر بالسعادة لأن زوجها لا يشتمها ولا يضربها، ولا يعربد مع النساء، ولا يطلقها. وهذا كله لا يمكن ان يسمى سعادة بالمعنى الحقيقى او بالمعنى الانسانى. سعادة الانسان لا يمكن أن تكون سعادة سلبية، لا يمكن أن يسعد الأنسان لأنه لا يتعرض لأذى معين. ولكن الانسان يسعد لأنه يفعل شيئا. وهذه هى السعادة الايجابية. الانسان يسعد لأنه يفكر ويعمل وينتج.

بعض الأزواج انزعجوا حينما بدأت عيون زوجاتهم تتفتح ، أو أنها كانت مفتوحة من قبل، لكنهن كن يعجزن عن اظهار مايعتمل داخلهن خشية الطلاق أو البهدلة(كما عبرت احداهن). وقال لى أحد الأزواج فى انزعاج : لقد بدأت زوجتى تشعر بالقلق وبدأت تشعر بالحنين إلى استكمال دراستها التى قطعتها حين تزوجت. لقد كانت هادئة وراضية بحياتها، ولكنها الآن لم تعد راضية. وسألنى بشئ من الغضب قائلا : هل تعتقدين يادكتورة أن تحويل الزوجة الراضية إلى زوجة غير راضية أمر مفيد صحياً لها ؟ وقلت له : نعم بالطبع ، وهذه إحدى فوائد المعرفة

والوعى والثقافة. ان المعرفة هى اثارة عدم الرضا فى نفس الأنسان من أجل أن يعمل علي تغيير حياته إلي الأفضل. ولولا عدم الرضا لما تقدم الأنسان ولكانت حياته كحياة الحيوانات. ان الحيوانات لا تشعر بعدم الرضا، ولا تشعر بالقلق، ولذلك هى لا تغير حياتها إلى الأفضل، وحياة الحيوانات اليوم هى حياة الحيوانات منذ القدم، اما الانسان فليس كذلك.

وكان هذا الزوج يعارض فى أن تعود زوجته لأستكمال دراستها الجامعية، رغم أن ظروفها من جميع النواحى كانت تساعدها على استكمال هذه الدراسة. ولم أستطع أن أفهم السبب الحقيقى أول الأمر، لكن الزوجة قالت لى أن زوجها لم يحصل على شهادة جامعية، وأنه يعمل بشهادة متوسطة، لكن دخله الشهرى مرتفع بسبب امتلاكه لعزبة باحدى القرى. وقد أدركت أنه يعارض فى استكمالها التعليم خوفاً من أن تحصل على شهادة لم يحصل عليها هو، ولم أعرف حتى اليوم ماذا حدث بعد ذلك، هل رضخت الزوجة وعادت راضية بحياتها، وتنازلت عن الأمل الذى لاح لها ، أم أن قلقها كان شديداً، واصرارها كان شديداً ،ففرضت رأيها وواصلت دراستها.

وقد لاحظت أن الأزواج ينزعجون حينما يزيد وعى زوجاتهم، وقد يقبل بعضهم زيادة هذا الوعى بشرط الا يشتمل هذا الوعى على أى وعي جنسى. وقال لى أحدهم ان الوعى الجنسى خطر للمرأة، وان علم الجنس علم غريب علي مجتمعنا الشرقى. وأنه أحد العلوم المستوردة من

الغرب. وقلت لهذا الزوج ان ابن سينا كان من أوائل العلماء في تاريخ البشرية ان لم يكن الأول الذى بدأ علم الجنس وأعترف به. ان رسالة ابن سينا في العشق تعتبر أول رسالة علمية منحت الحب والجنس دوراً ايجابياً . ففى هذه الرسالة - تغلب أبن سينا لاول مرة على الهوة التى تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة فى الانسان. وبذلك استطاع أن يصل بين طرفى الحب الطبيعى (الجنس) والروحى، وأعطى للجنس دوراً. وجعل حب الجمال الظاهرى، أى الحب الجنسى، عوناً على الاقتراب من الله. وابن سينا فى هذه الرسالة يطبق مبدأه العام فى النفس وأجزائها علي مشكلة الحب والجنس. وكتب ابن سينا منذ حوالى ألف عام فى كتابه الضخم «القانون فى الطب» مؤيداً هذا المعنى.

ورد الزوج بشئ من الغضب : أنا لا أعرف عن أبن سينا شيئاً أو تاريخ الطب فى العالم، ولكنى رجل مسلم، والأسلام يتعارض مع تفتيح عيون الزوجات على الجنس. فالمرأة لم تخلق للأستمتاع الجنسى، ولكنها خلقت لخدمة زوجها والتفانى فى خدمة أطفالها. وإذا كانت الزوجات يطالبن باللذة الجنسية فى الغرب، فهذا قد يتمشى مع أخلاقهم وأديانهم، ولكنه لا يتمشى مع أخلاقنا وإسلامنا.

وقلت لهذا الزوج ان الأسلام لا يتعارض مع الثقافة الجنسية، بل يدعو إلى الثقافة والعلم والمعرفة فى جميع نواحى الحياة، ومنها الحياة الجنسية.

وان الأسلام لا يوافق على تزويج الفتاة لرجل لا ترغبه، ويعارض الزواج بالأكراه.

وان الأسلام لا يوافق على أن تستمر الزوجة في الحياة مع زوجها إذا كانت تكرهه ،أو إذا لم يكن يرضيها.

وان الأسلام يعتبر العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته ليس هدفها الانجاب فقط، وانما ارضاء رغبة كل من الرجل والمرأة، والاستمتاع بالحق الطبيعي في الحياة، ولهذا لا يتعارض الأسلام مع فكرة تنظيم الاسرة وتحديد النسل.

وان بعض فقرات من القرآن والأحاديث النبوية تدرس لبعض نواحي الجنس. وهناك نصوص في الفقه الاسلامي تذكر الاوضاع أثناء الممارسة الجنسية. وهناك ارشادات لكيفية تفادي الحمل أثناء الأتصال الجنسي. وفقرات تشير إلى أن كثرة العيال تسبب الفقر والعجز.

وبعض الناس يعتقدون أن ختان البنت جاء مع الاسلام. وهذا اعتقاد خاطئ، لأن ختان البنات كان موجوداً قبل ظهور الدين الاسلامي. وحينما ظهر النبي محمد وجد أن هذه العادة موجودة عند العرب، وأدرك بذكائه الفطري ضرر هذه العادة على صحة النساء، وسلبها لجزء من قدرة المرأة على الشعور باللذة الجنسية.وجاء في الحديث أن النبي محمد قال لأم عطية الخاتنة :«إذا خفضت، فأشمي ولا تنهكي، فأنه أضوأ للوجه وأحظي لها عند الزوج».

يقال : أشمت الخافضة البظر، أى اخذت منه قليلا جداً. وقوله لا تنهكى، أى لا تأخذى من البظر كثيراً . شبه القطع اليسير بأشمام الرائحة، والنهك بالمبالغة فيه. أى أقطعى شيئاً صغيراً ولا تستأصليها. ومن ثم يجب أن يوصى الخافضات بأن يراعين ذلك لدى الخفاضة فلا يبالغن فى قطع البظر، فان انهاكه ـ أى استئصاله ـ يحرم المرأة لذة الجماع، فلا تحظى عند زوجها.

ومعنى هذا الكلام أن ختان البنات ليست عادة إسلامية.، ولا علاقة لها بالدين. فهى عرفت في مجتمعات متباينة الأديان، وعرفت فى الشرق وفى الغرب، فى مجتمعات مسيحية وفى مجتمعات اسلامية، وفى مجتمعات لادينية . وعرفت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. وبراون وعرفت فى مصر والسودان والصومال والحبشة وكينيا وتانجانيقا وغانا وغينيا ونيجيريا، وعرفت فى بلاد آسيوية،وفى سيلان واندونيسيا. وعرفت أيضاً في أجزاء من اميركا الجنوبية، وعرفت أيضاً فى عهود ايضا قديمة عند بعض قدماء المصريين. وقد قرأت أن هيروديت ذكر شيئا عن ختان البنات ٧٠٠ سنة قبل الميلاد.

وقد بحثت عن دراسة اجتماعية علمية تلقى ضوءاً على سر ممارسة المجتمع لمثل هذه العملية الوحشية على الاناث فلم أجد. لكنى وجدت في التاريخ عمليات أشد وحشية من الختان، وهى وأد البنات وهن أحياء وأيضاً عملية الباس المرأة حزام العفة الحديدى. وعملية غلق أعضاء المرأة

الجنسية بالدبابيس والاقفال الحديدية، وهى عملية شديدة البدائية لكنها تشبه إلى حد كبير الطريقة السودانية فى ختان البنات. إذ تقطع كل أعضاء البنت الجنسية (البظر والشفرتين الداخليتين والخارجيتين) ثم يغلق الجرح بقطعة من أمعاء الشاة، ولا تترك إلا فتحة صغيرة جداً (تسمح بدخول طرف الأصبع فقط) من أجل خروج البول ودم الحيض. ويعاد فتح هذا الجرح حين تتزوج الفتاة، ليتسع دخول عضو الزوج . ثم يعاد فتحه حين تلد الزوجة طفلها . ثم يعاد اغلاقه بعد الولادة، او بعد الطلاق من الزوج، لتعود المرأة عذراء مرة أخرى، ويحكم اغلاقها بالخياطة حتى لا يمكن لرجل أن يتصل بها إلا الرجل الذى سيتزوجها. وحينئذ يعاد فتح الجرح مرة أخرى، وهكذا.

والسؤال الذى يخطر بالذهن هنا هو : لماذا فعل المجتمع مثل هذه العمليات الوحشية ضد المرأة ؟ والأجابة على هذا السؤال هى أن المجتمع أدرك منذ قديم الزمان أن الرغبة الجنسية عند المرأة قوية جداً بطبيعتها. وأنها لو تركت هكذا بغير تدخل من جانب المجتمع، فسوف ترفض النساء القيود الأخلاقية والأجتماعية والقانونية والدينية التى تفرض على المرأة زوجاً واحداً. ان نشوء المجتمع الأبوى القائم على الأسرة الأبوية (القائمة على فرض زوج واحد على المرأة وتعدد الزوجات للرجل) ما كان ليقوم أو يستمر، إلا بفرض قيود وعمليات صارمة تقلل من طبيعة المرأة الجنسية، حتي يمكنها الخضوع لزوجها الواحد. وهذا هو السبب فى عداء

المجتمع الشديد لرغبة المرأة الجنسية ومقاومته المستمرة لها بأبشع الوسائل. أن المجتمع يدرك أن أى تهاون من جانبه فى هذا المجال، معناه خروج المرأة من قفص الزواج الاحادى الحديدى، والأتصال برجل آخر. ومعنى ذلك اختلاط النسب، وأختلاط أطفال الزوج الشرعى بأطفال رجال غرباء. ومعنى ذلك انهيار الأسرة الأبوية القائمة على أسم الأب فقط.

وإذا عرفنا من التاريخ أن الأب لم يكن حريصاً على معرفة اطفاله إلا من أجل أن يورثهم أرضه، فأننا ندرك أن السبب الرئيسى لنشوء الاسر الأبوية كان سبباً اقتصادياً.ومن أجل أن يحمي المجتمع مصالحه الاقصادية، فأنه يدعمها بالقيم الاخلاقية والدينية والقانونية.

وعلى هذا فان دراسة التاريخ توضح لنا أن حزام العفة الحديدي وعملية الختان ومثيلاتها من العمليات الوحشية ضد رغبة المرأة الجنسية لم تنشأ إلا لأسباب اقتصادية.

بل ان أستمرار مثل هذه العمليات فى مجتمعنا حتى اليوم ،انما هو أيضاً لأسباب اقتصادية. ان آلاف الدايات والحكيمات والاطباء الذين يثرون على حساب عملية ختان البنات، لا يمكن إلا أن يقاوموا أى محاولة للقضاء على مثل هذه العادات الضارة.

وفى المجتمع السودانى جيش هائل من الدايات يعشن علي هذه العمليات المتكررة، من فتح أعضاء المرأة واغلاقها فى مناسبات متعددة مابين زواج وولادة وطلاق وزواج مرة أخرى.

ان الأسباب الاقتصادية، ومن ثم الأسباب السياسية، هى التى وراء نشوء واستمرار عادات مثل ختان البنات. وهذا التوضيح هام لان كثيراً من الناس يخلطون بين السياسة والدين. وكثير من الناس يعمدون إلى اخفاء الأسباب السياسية والاقتصادية بأسباب دينية، حتى يصرفوا الأذهان عن الأسباب الحقيقية. وكثير من الناس يقولون أن الأسلام هو السبب وراء ختان البنات فى مصر، وهو السبب وراء الوضع الأدنى للمرأة فى البلاد العربية.

لكننى أرى أن سبب التخلف فى مجتمعاتنا العربية ليس هو الدين الاسلامى، وانما هو السلطة السياسية خارج مجتمعاتنا (الأستعمار الاجنبى) أو السلطة السياسية فى الداخل (الحكومات العربية الرجعية المستغلة) او كلاهما معا. ومحاولة تفسير الدين تفسيراً خاطئاً واستخدامه ليخدم اغراض القهر والخوف والاستغلال.

ان الدين بمعناه العام هو الصدق والمساواة والعدالة والحب والصحة لجميع الناس رجالا ونساء. ولا يمكن أن يكون هناك دين يدعو إلي المرض أو تشويه أجساد البنات وقطع بظورهن.

وإذا كان الدين من عند الله، فكيف يمكن للدين أن يأمر بقطع عضو من الجسم الذى خلقه الله ؟ المفروض أن الله لا يخلق الأعضاء اعتباطاً . ولا يمكن أن الله يخلق البظر فى جسد النساء، ثم ينزل على الناس ديناً يأمرهم بقطع هذا البظر. فهذا تناقض خطير لا يقع فيه الله. وإذا كان قد

خلق البظر كعضو حساس للجنس وظيفته الأساسية والوحيدة هى الأحساس بلذة الجنس، فمعنى ذلك أن الله قد أباح للنساء اللذة الجنسية وانها جزء من الصحة النفسية . وعلى هذا فان المرأة التى تحرم من اللذة الجنسية تحرم من جزء من الصحة النفسية. ولا يمكن أن تكتمل صحة المرأة النفسية بدون اكتمال لذتها الجنسية.

ان عدداً كبيراً من الامهات والآباء المتعلمين لا يزالون يفزعون من ترك البظر فى أجساد بناتهم. وقد قال لى بعضهم ان الختان يحمى البنت من الأنزلاق والزلل. وهذا منطق خاطئ ، لأن الذى يحمى البنت أو الولد من الزلل ليس هو بتر الأعضاء الجنسية، وانما هو الوعى والمعرفة التى تساعد البنت على تحديد هدف ومعنى فى حياتها. والسعي لتحقيق هذا الهدف وهذا المعنى. وكلما زاد وعى الانسان (امرأة أو رجل) كلما أرتفع هدفه في الحياة إلى المستوى الانسانى والرغبة فى تطوير الحياة إلى الأفضل ولا يقتصر هدفه فى الحياة على استخدام أعضائه الجنسية أو ممارسة الجنس. ان أكثر البنات تحرراً (بالمعنى الصحيح للتحرر) أقلهن انشغالا بالجنس ، لان عقل البنت منهن يصبح مشغولاً بأشياء أخرى كثيرة فى الحياة. أما البنات المكبوتات، فلا يشغل رؤوسهن إلا الجنس والزجل. وقد وجدت أن المرأة الذكية المثقفة بصفة عامة، أقل انشغالاً بالجنس عن المرأة الأخرى، لكنها أكثر جرأة فى ممارسته. وهى تنساه بعد الممارسة والشعور بالرضا. وتفكر فى أشياء أخرى.

ان الجنس فى حياة المرأة الذكية المتحررة لا يشغل من حياتها إلا حيزه الطبيعى. أما الجهل والكبت والقيود والتخويف، فتجعل الجنس فى حياة معظم البنات والنساء يتضخم ويتمدد ليشغل كل حياة المرأة أو الفتاة:

وتدل نتائج البحث على أن الحب مفقود فى معظم الحالات بين الزوج والزوجة. ومعنى ذلك أن معظم الأزواج والزوجات محرومون من الحب ومحرومون من الجنس بمعناه الصحيح. ومعنى ذلك أنهم يحاولون تعويض ذلك الحرمان خارج الزواج. ولا شك أن الرقم فى هذا البحث الذى يشير إلى نسبة العلاقات الجنسية خارج الزواج اقل من الحقيقة.إذ ليس من السهل على الزوجة أن تعترف فى مثل هذه البحوث بممارستها الجنسية خارج الزواج. أما الأزواج فأنه من المعروف فى معظم المجتمعات (وليس فى مجتمعنا فقط) أن لهم علاقاتهم المتعددة خارج الزواج، ويشجعهم على ذلك النظم والقوانين وتقاليد الحضارة الأبوية التى تعطى للرجل وحده الحرية الجنسية.

لقد فشل الزواج بقوانينه الجائرة التى لا تساوي بين الرجال والنساء فى تحقيق السعادة للأزواج والزوجات . فالسعادة لا يمكن أن تتحقق إلا فى ظل المساواة والحب والحرية. وهذه المبادئ الثلاثة، عجز الزواج عن منحها للرجال والنساء، وبالذات النساء. ولهذا لم أدهش حين وجدت أن ٨٥ بالمئة من الزوجات يرفضن الزواج بأزواجهن مرة أخرى لو عادت

السنين إلى الوراء».

وقد لاحظت أن المرأة غير المتعلمة وبالذات الريفية أكثر رضاء عن حياتها من المرأة المتعلمة أو التى تعيش فى المدينة.

ولا شك أن من ميزات الحياة الريفية ذلك الزواج المبكر الذي يحل مشكلة المراهقين والمراهقات فى المدن ومايتعرضون له من كبت نفسى وجنسى، وقوانين أخلاقية متناقضة، وازدواجية فى القيم، ومشاكل متعددة . كما أن الحياة الريفية أقل تعرضاً من المدن للتناقضات الثقافية والأخلاقية الموجودة فى مجتمعنا والتى تنتقل عن طريق أجهزة الاعلام والافلام والمجلات والصحف وغيرها.

لكن حياة الفلاحة المصرية بصفة عامة حياة قاسية شقية، والأستغلال يقع عليها مضاعفاً. والذى يهبط إلى الريف المصرى يستطيع أن يرى الفلاحات الكادحات بجلاليبهن السوداء المتربة، وعيونهن الغائرة الحزينة، ووجوههن الممصوصة، وأيديهن وكعوبهن الخشنة المشققة، فيدرك علي الفور مدى انسحاق الفلاحة المصرية. والذى يعيش يوماً فى بيت من بيوت الفلاحين يسمع صوت الزوج الخشن حين ينادى زوجته «يابت !» أو يرى كفه الخشنة الغليظة التى تسقط فوق وجهها فى صفعة قوية لأى خطأ منها، أو صوته الغليظ حين يرتفع غاضباً لأتفه سبب قائلا : على الطلاق بالثلاثة ! بالاضافة إلي ماتتعرض له البنت الفلاحة ليلة الزفاف من مهانة التقليد الذى لازال سائدا فى الريف المصرى، وهو فض بكارة

العروس بالأصبع واظهار الدم على بشكير للناس. وكم من مآسى بسبب العذرية فى الريف.

أما النساء العاملات الكادحات فى المصانع أو الوظائف والأعمال الدنيا، فحياتهن أشد قسوة ، لأنها تجمع التناقضات والمشاكل جميعا: مشاكل الريف ومشاكل الحضر، مشاكل التطلع إلى الطبقة الأعلى، مشاكل الدخل الصغير المحدود، مشاكل العمل خارج البيت وداخل البيت، كل ذلك فى ظل القوانين نفسها الجائرة التى تحكم النساء جميعاً.

وقد أوضح تعداد ١٩٧٦ أن نسبة العاملات بأجر ٢ر٩ بالمئة من القوة العاملة كلها. لكن هذه النسبة لا تضم الفلاحات وربات البيوت اللاتى يعملن بغير أجر.

والمرأة الكادحة هى التى تعمل داخل البيت (الطبخ والتنظيف ورعاية الاطفال) وتعمل أيضا خارج البيت فى حقل أو مصنع أو مكتب أو أى مكان آخر. وتمثل النساء الكادحات أغلبية النساء في المجتمع المصرى، من فلاحات وشغالات وعاملات بالمصانع وموظفات بالمصالح الحكومية والشركات ،ومهنيات في مختلف أنواع المهن. هؤلاء اللاتى يقمن بأعمال فى المجتمع جنباً إلي جنب مع الرجال، ثم يعدن آخر اليوم إلى البيت ليخدمن الأسرة أو الأب أو الزوج والاطفال، وتحول ظروفهن دون الحصول على خادمات المنازل.

ولا يخفى على أحد الحياة الشاقة المؤلمة التى تعيشها الفلاحات

المصريات ، وقد أعتدت أن أزور قريتي كفر طحلة (قليوبية) كل عام، وأعيش بين الفلاحات من قريباتى ومن اهل قريتى، وأستمع إلى قصص حياتهن المؤلمة، وأشهد نماذج من حياتهن التعيسة. وأقف على مدى مايسود القرية المصرية حتى اليوم من أفكار متخلفة تحقر المرأة ، وخزعبلات وخرافات.

ولا شك أن الفقر أو المشكلة الاقتصادية هي أهم مافى حياة النساء الكادحات. ان السعى وراء لقمة الخبز يمتص حياة المرأة منذ شروق الشمس حتى غروبها. فلا تكاد تجد الوقت لتلتقط أنفاسها ، أو تنظر إلى نفسها فى المرآة لتعرف أنها امرأة أو رجل ، أو تفكر فى ذلك الشئ الذى نطلق عليه أسم الحب أو الجنس.

سألت مرة احدى قريباتى المتزوجات عن حياتها الجنسية مع زوجها وعما إذا كانت ترضيها أم لا ، وتطلعت إلى المرأة الفلاحة بدهشة وقالت : ماأن أضع جسدى المهدود فوق الحصيرة حتى أنام كالقتيل إلى أن اصحو على آذان الفجر.

ونظرت إلى هذه المرأة. كانت شابة فى الثلاثين لكنها تبدو فى الخمسين ، خشنة الملامح ، جافة الجسد، سمراء البشرة، سوداء الجلباب، ولديها من الاطفال ثمانية .وسألتها : كيف أنجبت هؤلاء الاطفال؟

قالت في حزن : لا أعرف . ولدتهم كما تلد الجاموسة .

وسألتها : والزواج ؟

قالت : الله يلعنه يادكتورة ! نحن هنا فى القرية لا نعرف شيئاً . ماأن تكبر البنت منا ويبرز ثديها حتى يزوجها اهلها لأى فلاح.

سألتها : ألا تذكرين ليلة الزفاف ؟

قالت : أذكر أنه أغلق الباب على وضربنى بفلقة الحمارة حتي عضضت الأرض ثم قفز فوقى وأنتهى كل شئ.

وقد لمست الكثير من مشاكل الفلاحة المصرية الأجتماعية والنفسية والجنسية، لكنى أعتقد أن المشكلة الأقتصادية تطغى على جميع المشاكل الأخرى إلا فى بعض الحالات النادرة، حين تصادف المرأة مشاكل حادة بسبب زوج شديد القسوة يذيقها ألوان الضرب والعذاب، أو حماة أو ضرة (زوجة ثانية لزوجها) تحول حياتها إلي جحيم ، أو طلاق يشردها فى الطرقات تشحذ لقمة عيشها ، أو تفقد صوابها ولاتجد أمامها إلا الزار أو المشايخ أو أهل النصب والاحتيال.

والفلاحة المصرية رغم مشاكلها المتعددة أكثر قوة وصحة نفسية من المرأة العاطلة بغير عمل داخل البيت أو خارجه.

ولا توجد لدينا بيانات لتحديد نسبة دقيقة للنساء العاطلات، إلا أننا جميعاً نعرف أن هذه الفئة من النساء موجودة فى مجتمعنا ، وأنها تمثل معظم النساء من الطبقة العالية والطبقة فوق المتوسطة، ونساء الطبقة الجديدة التى تضخمت فى السنوات الاخيرة بسبب الثراء السريع مع الجهل والتخلف.

ومعظم هؤلاء النساء يعشن فى المدن الكبيرة والمدن الصغيرة، ومنهن من تعلمت تعليماً عالياً بالجامعة ثم لزمت البيت بسبب الزواج أو التقاليد أو عدم حاجة الاسرة إلي مورد اقتصادى اضافى. ومنهن من لم تتعلم على الأطلاق بسبب التقاليد.

على أن السمة الغالبة على هذه الشريحة من شرائح المجتمع المصرى أنها أكثر الفئات راحة من الناحية الاقتصادية (بدليل وجود خدم بالمنزل)، وأن مستواها الاقتصادى أعلى من مستواها الثقافى والحضارى (بدليل وجود المرأة بالبيت، وبدليل شدة التمسك بالتقاليد والعادات القديمة ولو ظاهريا).

ومن المعروف فى علم المجتمع أن التغيير الاقتصادي يحدث بأسرع من التغيير الأجتماعي أو الثقافى أو الوجدانى. فما أسهل على الفلاح المصرى بمجرد أن يحصل على بعض المال، أن يشترى الثلاجة والراديو او السيارة، ولكن ماأصعب عليه أن يغير من عاداته وتقاليده ونظرته إلى المرأة . وبالمثل أيضاً ماأسهل على الأسر العالية فى مصر أن تشترى أحدث الاجهزة، وتستخدم أحدث الوسائل التكنولوجية فى البيت والعمل، بل وترتدى أحدث الملابس من سراويل ضيقة وفساتين قصيرة تكشف عن أفخاذ النساء (المينى جيب) وغيرها من أزياء القرن العشرين. ومع ذلك تظل الأعماق عاجزة عن التخلص من الأفكار المتخلفة وخزعبلات القرن التاسع عشر . وبالمثل أيضاً ماأسهل على

المجتمع أن يتحول بالقرارات الأقتصادية وقرارات التأميم من مجتمع اقطاعى أو رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى، ومع ذلك تظل الأفكار والمشاعر الوجدانية والتقاليد اقطاعية أو رأسمالية . ويمكن القول أن مجتمعنا المصرى مزيج من كل هذه التناقضات والصراعات بين الريف والحضر، بين القديم والجديد، وبين الشرق وبين الغرب، وبين الأقطاع والرأسمالية والأشتراكية. وتختفى هذه التناقضات أحيانا، أو تطفو على السطح أحياناً، لكنها موجودة وتكو ن ظاهرة عامة عندنا.

ولا شك أن دراسة حياة المرأة المصرية فى الأسرة فوق المتوسطة والعالية، وهذه الاسر التى تكون النساء فيها عاطلات أو شبه عاطلات يعطينا صورة عن جزء من حياة مجتمعنا المصرى عامة، كما أنها تعطينا صورة أوضح عن تلك التناقضات. التى نعيشها . لأن المرأة (بسبب كثرة المحظورات عليها بالنسبة للرجل) أكثر عرضة للوقوع فريسة التناقضات الاجتماعية.

ان المرأة المصرية في هذه الاسر هى مستهلكة فقط (بعكس المرأة المصرية الكادحة أو الفلاحة التى هى منتجة ولا تكاد تستهلك شيئا). ولهذا فأن الفرق كبير جداً بين هاتين المرأتين فيما عدا أنهما متساويتان فى الخضوع للزوج بسبب اعتمادهما الأقتصادى عليه. (رغم أن الفلاحة المصرية منتجة عن طريق عملها فى الحقل، إلا أنها تعمل بغير أجر لحساب زوجها وتعتمد اقتصادياً عليه). ان نظرة واحدة إلى وجه وشكل

المرأة من هذه الطبقات، وإلي وجه وشكل المرأة الفلاحة، تعطينا صورة صارخة للتناقض بين هذه وتلك. ان المستهلكة ممتلئة باللحم، وترتدى أفخر الثياب، وتضع على وجهها وجسدها كم هائل ثمين من المساحيق. فى حين تعانى المرأة الفلاحة من النحول وذبول الجسد المرهق، وتعانى نقصاً شديداً فى التغذية أيضاً، وجلبابها الأسود المترب بتراب الحقل، ووجهها الذى لا تغسله إلا بالماء نظراً لأرتفاع سعر الصابون.

ولا شك أن هذا التناقض ليس قاصراً على النساء، ولكنه يشمل الرجال أيضاً، لكنه أوضح مايكون فى النساء. لأن الأستغلال الواقع على النساء مضاعفاً. حيث أن البطالة تفرض على المرأة، ومن ثم يفرض عليها أن تكون مستهلكة فقط. كما أن الفلاحة المصرية تتعرض لأستغلال من زوجها، لأن زوجها يسيطر عليها ويشغلها كالأجير لحسابه، ويستهلك أكثر منها. فهو يعطى نفسه من الطعام والملابس والدخان والمتع مالا يعطيه لها.

ان جميع النساء اللاتى يعملن فى البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن المختلفة، جميعهن منتجات، وجميعهن يستهلكن أقل مما يستهلك الرجل فى أسرهن. أما هؤلاء النساء العاطلات بغير عمل فى البيت أو خارج البيت، فهن غير منتجات، ومن اللاتى يمكن أن نقول عنهن أنهن مستهلكات فقط.

وقد يتصور بعض الناس أن بطالة النساء ميزة تعطيهن الراحة. لكن

البطالة نوع من أنواع الاستغلال، والبطالة تحرم المرأة من العمل الذى هو ضرورة انسانية تحقق به ذاتها، وتحقق به نفعاً للمجتمع. وتحقق الذات يمنح الأنسان سعادة وذكاء وتطوراً وانسانية، وتحرم من كل ذلك النساء العاطلات.

ولهذا لا تشعر النساء العاطلات بالسعادة بسبب عدم وجود العمل، وبسبب أيضاً وضع المرأة الادنى فى المجتمع، واحساس المرأة أنها تابعة وعالة على الرجل.

وان القانون يمنح الزوج حرية طرد زوجته فى أي وقت يشاء. ولهذا كله تشعر النساء العاطلات بالفراغ والتعاسة والقلق على مصيرهن ومستقبلهن، ويحاولن تعويض كل ذلك عن طريق الاستهلاك الشره، وقتل المال فى شراء الملابس وأدوات الزينة. وقتل الوقت فى الثرثرة والنميمة. واصطناع احتياجات جديدة لمزيد من الشراء والاستهلاك. واصطناع شهوات جديدة للطعام والحلويات والمربات، والممارسات الجنسية، أو انجاب الأطفال.

ورغم الأكل الكثير، واللحم الكثير، والمساحقيق الملونة، إلا أن المرأة العاطلة من هؤلاء حين تغسل وجهها، يبدو وجهها شاحباً بسبب الشقاء الذى تعيشه، وبسبب التناقضات التى تمزقها. فهى متخمة، لكنها محرومة. وهى مشبعة، لكنها فارغة.وهى مكتظة بالشهوات والمتع، وهى عاجزة عن الاستمتاع بشئ منها. وهى تقتنى الراديو والتليفزيون،

وتقرأ الصحف والمجلات، وتذهب إلى السينما. ولهذا فهى تقع أيضاً فريسة التناقضات الثقافية فى المجتمع كله. ويصلها حتى سريرها الأفلام الجنسية، والرقصات العارية، والموضوعات الفنية الرخيصة المشوهة لكل الحقائق والمشاعر.

يصل إليها كل ذلك عن طريق أدوات العلم الحديث والقرن العشرين. والمرأة تتلقى كل هذا، وهى هنا أيضاً مستهلكة. هى «منفعلة» فقط. لا تجرؤ على «الفعل» بسبب التقاليد. انها قد تحفظ عن ظهر قلب النكات الجنسية الرخيصة، وتثرثر مع صديقاتها بكل قصص العشق والغرام. لكنها لم تعش فى واقع حياتها قصة حب حقيقية. وان عاشتها فهى تعيشها نظرياً فحسب، أو بطريقة مشوهة مريضة. وهى تسمع ليل نهار تأوهات المغنيات والمغنين، وفوق الشاشة الكبيرة والشاشة الصغيرة وأغلفة الكتب والمجلات، ترى أجمل الأجساد. لكنها لا تجرؤ على رؤية جسدها فى المرآة. ولا تجرؤ على الأستمتاع بالجنس. والزوجة من هؤلاء تعانى من الحرمان الجنسى. ان علاقتها بزوجها لا تسبب لها الرضا، وإنما النفور وكراهية الجنس. أن الرضا الجنسى لا يمكن أن يحدث فى ظل علاقة غير متساوية، ولا يمكن أن يحدث فى ظل تربية صارمة تسبب العقد. ولا يمكن أن يحدث في ظل تناقضات تسبب المرض النفسى القلق. كما أن الزواج فى معظم هذه الحالات يتم لأسباب غير الحب الحقيقى. وقد تكون أيضاً حرمت من العضو الحساس (البظر) بسبب

عملية الختان؟ وفى ظل القيود والمحظورات، فان الجنس يصبح عملية منفرة كريهة، يهرب منها الزوجان، ويذهب كل منهما إلى حيث يعوض عن ذلك بطريقة أو بأخرى.

أن مظاهر التعويض نلاحظها على مثل هذه المرأة العاطلة فى تقليدها الجنونى، أو جريها وراء الموضات، والتظاهر بالجاذبية الجنسية المتأججة ،تعويضاً عن الحاجة الجنسية المكبوتة. أو ذلك النهم الشديد للأكل والأستهلاك الشديد الذى ليس إلا تعبيراً عن الكبت الشديد، والتمزق الشديد بين التناقضات.

ومن أهم نتائج هذا البحث أن أغلبية النساء العاملات متعلمات وغير متعلمات لم يتحررن، ولا يعشن حياة أسعد من حياة النساء غير العاملات. وأنهن مرهقات جسدياً ونفسياً بسبب الدورين اللذين يقمن بهما معاً داخل البيت وخارجه، بدون مساعدة الرجل أو المجتمع.ان خروج المرأة للعمل في ظل ظروف وقوانين لا تساوى بين الرجال والنساء فى جميع الحقوق والواجبات، لا يؤدى إلا إلي المزيد من استغلال الرجل للمرأة خارج البيت وداخله، بعد أن كان يستغلها في الداخل فقط. ان المرأة الذكية الواعية هى التى ترفض أن يستغلها الرجل. ولذلك يزيد تمرد المرأة كلما زاد ذكاؤها وتعليمها. لكن التمرد أو الرفض يسبب لمعظم النساء العصاب. أما القليلات القويات فهن هؤلاء النساء اللاتى يحولن الرفض إلى ثورة، أو إلى فعل حقيقى يرفع عنهن الظلم والاستغلال.

ولهذا لا تصاب الثائرات بالعصاب، فالفعل الحقيقى هو المصدر الوحيد للصحة النفسية عند الأنسان الذكى الواعى. والفعل الحقيقى معناه العطاء للمجتمع، والايجابية، وليس التلقى، والسلبية. وكما قال كيركجارد :«أنه من الافضل أن تعطى عن أن تتلقى . أن التلقي اكثر صعوبة على النفس من العطاء».

وقال سقراط أيضاً :«لكى تعرف نفسك لابد أن تفعل». والفعل هنا هوالعمل الحقيقى الخلاق، وليس العمل الروتينى الممل الذي يشبه دوران البقرة فى الساقية. وكم من النساء يدرن فى ساقية العمل سواء داخل البيت أو خارجه. وكم من رجال أيضاً.

كلمة حول علاج المرأة من العصاب

لعل من أهم مشاكل المرأة أيضاً أنها إذا ماأصيبت بالعصاب أو أى أزمة أو مرض نفسى، فأنها لا تجد أمامها إلا الطبيب النفسى الذى تذهب إليه، فيشبع جسدها بالحقن أو الأقراص أو يوجه إلى رأسها الجلسات الكهربية.

ولأن معظم أسباب العصاب وغيره من أمراض المرأة النفسية ليست داخل رأس المرأة أو جسدها، وإنما هى فى المجتمع والأسرة والمدرسة والشارع وأماكن العمل.لذلك فإن الحقن والأقراص والجلسات الكهربية لا تفيد شيئاً، ولا تعالج المرض من جذوره ، وإنما قد تساعد بعض الشئ في تخفيف الألم أو التخدير المؤقت.

ان علاج الأمراض النفسية من جذورها، أو بمعني آخر إزالة أسبابها الحقيقية يسمى علمياً بأسم الطب الوقائى النفسى، أسوة بالطب الوقائى

الجسدى الذي يمنع الأمراض العضوية عن الناس قبل أن يصابوا بها. ولكن الطب الوقائى (سواء كان وقاية من الأمراض العضوية أو الأمراض النفسية) لا يتقدم التقدم المطلوب الذى يتناسب مع أهميته البالغة لتحقيق الصحة الجسدية والنفسية للناس. والسبب فى ذلك هو أن تقدم الطب الوقائى يتعارض مع مصالح الأطباء ومفهوم مهنة الطب بصفة عامة. ان تقدم الطب الوقائى (النفسى والجسدى) معناه عدم حدوث أمراض جسدية أو نفسية، وهذا معناه أفلاس عيادات الأطباء الخاصة.

حينما دخلت كلية الطب (فى بداية هذا الدخول) كنت أؤمن بأن مهنتى فى الحياة ستكون الطب. فقد كنت أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الطب رسالة انسانية. وفي اليوم الذى تخرجت فيه من كلية الطب (بعد ٦ سنوات ونصف) كنت قد آمنت بأن مهنتى فى الحياة لن تكون بأى حال من الأحوال هى الطب ، وأن الاعتقاد بانسانية الطب ليس إلا حلم مراهقة.

وهمست فى أذن أحد زملائى بهذا التغيير الضخم الذى حدث لى خلال سنوات الدراسة. فإذا به يصيح بصوت عال : وأنا أيضا. وكلنا مثلك.

وقد حاولت أن أفهم الأسباب الحقيقية وراء هذا التغيير الذى يحدث للطالب أو الطالبة خلال سنوات الدراسة، فأدركت أن هذه الأسباب تنقسم إلى قسمين :

(١) الجو أو المناخ العام الذي يعيش فيه طالب أو طالبة الطب ويستنشق القيم المعوقة لنموه النفسى الانسانى.

(٢) المعلومات التى تدخل رأسه خلال هذه السنوات. والتى تفسد نظرته الشاملة إلي الأنسان كوحدة متكاملة من جسد ونفس ومجتمع.

أما من ناحية الجو العام أو المناخ الذي يعيش فيه الطالب الطب، فهو مناخ يدفع بالطالب إلي التطلع إلي عربة استاذه.الطويلة الفارهة، وإلي يافطة عيادته الطويلة، والطريقة التى يضع بها فم سيجاره الذهبى فى فمه. لا أنكر أن بعض أساتذتى فى الطب كانوا يأتون إلى الكلية راكبين الترام العتيق الذى كان يمشى فى شارع القصر العينى. ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة نادرة، وكان معظمهم من أساتذة الطب الوقائى أو الصحة العامة. مما يجعل طلبة الطب يربطون بين التخصص فى الطب الوقائى وبين ركوب الترام.

وحيث أن أي إنسان مهما كانت طبقته الأجتماعية يكره ركوب الترام البطئ المزدحم، فيبدأ الشعور بالكراهية بنمو فى أعماق الطالب تجاه الطب الوقائى، ويعتقد أن التخصص فى الطب الوقائى ليس إلا نوعاً من الكوارث التى يجب أن يحصن نفسه ضدها وأن يتفنن فى أساليب الوقاية منها قبل أن تحدث.

كنت وأنا طالبة أحب قراءة كتب علم النفس والفلسفة والأدب والعلوم الانسانية والإجتماعية . وقد أدركت من هذه القراءات أن أسباب

الأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية أيضاً) تكمن خارج الانسان. أي في المجتمع والبيئة الخارجية، بسبب الفقر والجوع والظلم والقهر والكبت والكذب الخ. ولهذا أدركت أن الطب الوقائي سيكون مصيرى، وليس الطب العلاجى. وهمست بهذه الرغبة فى أذن احدى زميلاتى، فإذا بها تشهق فى فزع وكأننى همست لها برغبة جنسية آثمة أو محرمة وصاحت : ماذا الطب الوقائى ؟ لماذا ياأختى ؟ هو أنت فيك عيب أو عاهة ؟

كان المناخ الدراسى العام داخل كلية الطب يُرّسب فى أعماقنا العميقة ازدراء الطب الوقائى، واحساساً بأن الاتجاه نحوه أو التخصص فيه لا يمكن أن يحدث لطالب ذكى متكامل القوى العقلية والجسمية. وانما لابد أن يكون هناك عيب مافيه يمنعه من الاتجاه نحو التخصصات الطبيعية المشروعة فى الطب. والتخصصات الطبيعية المشروعة فى الطب هى التخصصات العلاجية، مثل الجراحة وأمراض باطنة ونساء وولادة وصدرية وجلدية وعصبية وتناسلية وعيون وغيرها. أما التخصص فى أى فرع من فروع الطب الوقائى، فهو جنوح عن الطبيعة وخروج عليها. ولابد أن يكون ذلك لسبب قهرى. أما أن يكون اختيارياً فهذا هو مالا يقبله أى عقل.

أما عن المعلومات التى تدخل رأس طالب أو طالبة الطب خلال سنوات الدراسة، فهى معلومات لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تؤهل

الطبيب أو الطبيبة لمعرفة الأسباب الحقيقية للأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية أيضاً). وأنى أعترف بأننى لم أفهم فى جسم الانسان أو نفسه أو بيئته، إلا بعد أن تخرجت فى كلية الطب.وذلك من احتكاكى بالمجتمع، وقراءاتى الخاصة فى العلوم المختلفة. ان الدراسة فى كلية الطب تفصل الأنسان عن المجتمع، وتجعله جسداً معزولاً، كجسد الفأر الذى يعزل فى المعمل وبالتالى يجهل معظم الأطباء الأسباب الاجتماعية (وهى الأسباب الحقيقية) للأمراض فى أحيان كثيرة (الأسباب الاجتماعية تعنى الأسباب الأقتصادية والسياسية بطبيعة الحال).

أما عن نفس الانسان، فهذا هو ما لم يعرفنا به أحد خلال سنوات الدراسة في كلية الطب، اللهم إلا محاضرة أو محاضرتين فى السنة الثانية لا توضح لنا نفس الانسان بقدر ماتزيدها غموضاً.

ولست أعتقد أنه يمكن لنا أن نعالج الأمراض النفسية (وكثير من الأمراض العضوية) مالم تعالج الأسباب الاجتماعية لهذه الأمراض. وأول خطوات العلاج هو أن نعرف هذه الأسباب الاجتماعية لنعرف كيف نعالجها. ولعلنا قد أدركنا الآن بعض هذه الأسباب، وعرفنا أن عدم المساواة، والكبت والقيود على الحرية، والخوف، وغيرها من العوامل الاجتماعية التى تتعرض لها البنت منذ طفولتها حتى كهولتها هى التى تسبب لها العصاب والأمراض النفسية.

ولهذا ليس أمامنا من وسائل العلاج إلا علاج هذه الأسباب، وازالة التفرقة بين الجنسين، وازالة الكبت فى حياة البنات و النساء،وازالة القيود التى تمنع البنت والمرأة، وازالة الخوف الذى يجعل البنت أو المرأة تكذب على نفسها والآخرين.

فتصبح عاجزة عن ممارسة الحب الصادق. وتهيئة الظروف والامكانيات التى تساعد المرأة علي العمل المنتج الخلاق، وتحقيق ذاتها كأنسانة لها عقل، وليست مجرد جهاز تناسلي لولادة الأطفال واشباع الزوج.

ومن هنا نرى أن علاج النساء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية تحرير المرأة . وان قضية المرأة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية تحرير المجتمع من الأسباب التى تدعو إلي استغلال الانسان للانسان. والتفرقة بين البشر. وتمزيق الناس إلى مجموعات فقيرة كادحة، يمرضها التعب والجوع والارهاق والهموم، ومجموعات ثرية مستريحة، تمرضها الراحة والفراغ والتخمة وتمزيق الناس إلى جنسين. جنس أنثوى مقهور، يمرضه القهر والخضوع والكبت والخدمة والطاعة العمياء. وجنس ذكرى عدوانى، يمرضه العدوان والبطش والظلم والأستبداد بالرأى.

ان الحكام المستبدين يتعرضون بسبب الأستبداد للسادية، تماماً كما يتعرض المحكومون المستعبدون للماسوشية. ان الاستبداد والاستعباد وجهان لعملة واحدة : هما يسببان السادية والماسوشية؛ ولا يمكن لنا أن نعالج السادية والماسوشية بالأقراص والحقن والكهرباء. ولكن علاجهما

الوحيد هو علاج الأستبداد والأستعباد.

ومن هنا أهمية عدم الفصل بين العلوم السياسية والعلوم الطبية. أو أهمية ربط السياسة والطب. فالسياسة بمعناها الحقيقى لا تعنى تدبير المؤامرات أو المناورات، أو لعبة الانتخابات، ولكن السياسة هى توفير الطعام والصحة والوعى والمعرفة للناس. أو بعبارة أخرى توفير الصحة الجسدية والنفسية للناس. ويتضح لنا أن هدف السياسة الصحيحة هو نفسه هدف الطب الصحيح، وليس هناك أى تعارض بين الطب والسياسة، بل لا يمكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر.

ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الأطباء والطبيبات حين يدركون هذه الحقيقة ،يقودهم عملهم الطبى الصحيح (فى الأنظمة الأستبدادية) لا إلى الثراء وشراء العمارات والأطيان، وإنما إلى السجون أو إلى المستشفيات النفسية. حيث يتعلمون عن طريق اختلاطهم بالمرضي أو المساجين حقائق الحياة أكثر وأكثر . ان هؤلاء المنبوذين من المجتمع سواء كانوا مرضى أو مساجين، يمسكون فى أيديهم وفى حياتهم كثيراً من الحقائق التى يخفيها المجتمع. وقد قال غاندى :«من أجل زعزعة نظام الطوائف يكفى تركيز الجهود علي نقطة حساسة فى المجتمع :المنبوذين. وأنا أقول :من أجل زعزعة الاستغلال فى المجتمع والأسرة الأبوية، يكفى تركيز الضوء على نقطة حساسة فى المجتمع:النساء المريضات بالعصاب.

الجـزء الثـالث

نمـاذج

زينب

هي زوجة فى الرابعة والعشرين من عمرها، شاحبة الوجه، منكسرة العين، قالت لى أنها خائفة من أن تفقد عقلها. وسألتها عن مظاهر فقدان العقل التى تخافها. فقالت أنها حين تحتضن طفلتها لترضعها، تشعر برغبة فى أن تضغط عليها حتى تقتلها. وأنها من شدة هذه الرغبة التى سيطرت عليها أصبحت تخاف أن ترضع طفلتها، بل أحيانا ماترتجف أصابعها حين تلمسها. ومن شدة خوفها من أن تقتل ابنتها أصبحت لا ترضعها ولا تلمسها ، وتتركها وحدها تبكى. وقد أخذها زوجها إلى عدد من أطباء النفس، وحصلت على جميع أنواع العلاجات ابتداء من الجلسات الكهربية حتى الأقراص المهدئة دون فائدة.

ويتلخص تاريخ حياة زينب فى أنها نشأت فى أسرة من أب وأم، وأربعة من الأبناء والبنات. وكانت هى البنت الكبرى. كان أبوها متوسط

التعليم، ويعمل فى شركة صناعية كمشرف أو ملاحظ عمال. ولم يكن مرتب الأب يكفى نفقات الأسرة، فكانت الأم تعمل أحياناً كخياطة وتحيك الملابس على مكنتها بالبيت للأسرة المجاورة. ونشأت زينب على الطاعة واحترام أبيها وأمها، ودخلت المدرسة الثانوية فى الحى المجاور (باب الشعرية) . وكان أبوها (وأمها أيضا) يخاف عليها من صبيان الحى، وخاصة أن اشاعة ترددت فى الحارة أن بعض الرجال عثروا على مولود «لقيط» بجوار الجامع وأنهم سلموه للشرطة. ومن شدة خوف الأب كان يترك عمله أحيانا ويرافق ابنته إلي المدرسة، وكان يشدد عليها الرقابة، ولا يسمح لها بالخروج مع زميلاتها. وكانت زينب لا تعترض على أى أوامر من أبيها.

حصلت زينب على الثانوية العامة، ولم يعطها أبوها فرصة للتفكير في مستقبلها، فإذا به يسعى لتحصل ابنته على وظيفة بالمصنع الذي يعمل به. وأعتقد الأب أنه يضرب عصفورين بحجر واحد. فأن مرتب ابنته سوف يساعده فى نفقات الأسرة، كما أن وجودها معه فى الشركة نفسها يجعلها دائماً تحت مراقبته ويطمئن عليها دائما.

ألشتغلت زينب فى مصنع الشركة ثلاث سنوات، لا يزيد عملها عن تعبئه بعض الزجاجات وتغليفها. وفي تلك الأثناء حصل أخوها الذى يصغرها بعامين على الثانوية العامة، وبرغم أن مجموع درجاته كانت أقل من مجموع درجاتها، إلا أن الأب شجعه على دخول الجامعة. وفعلا

ألتحق الأبن بكلية العلوم. وكانت زينب تدفع كل مرتبها لأبيها ، وكان الأب يعطيها مصروفاً شهرياً أقل مما يعطى أخيها. وكان يقول لها أن أخاها شاب وطالب جامعى ويحتاج إلي مصروفات أكثر منها.

وكان لزينب ابن خالة تخرج حديثا من كلية الهندسة، وعين فى منصب ممتاز (فى عين أبيها) . وأحست زينب أن أباها يسعى بكل الطرق لتزويجها من ابن خالتها. وفعلا استطاع أن يزوجها له، ولم يكن لزينب أن تخالف أى أمر لابيها. وكان يقول عنها انها ابنة مثالية.

وبعد الزواج تركت زينب وظيفتها فى الشركة، وتفرغت لزوجها، الذي كان يعاملها معاملة طيبة بسبب طاعتها وهدوئها.

وتخرج اخوها فى كلية العلوم، وكان متفوقاً فعين بالجامعة، وأشترى سيارة، وأصبح موضع فخر الأب والأم وأفراد الأسرة كلها.

وأنجبت زينب طفلتها الأولى، وبدأت تنتابها حالة الخوف بالتدريج حتى وصلت إلي حالة الخوف التى وصفتها سابقا، وهو الخوف من أن تقتل طفلتها. وتقول زينب هنا :«تصورى يادكتورة أنا أفكر فى قتل ابنتى، وقد أنفق زوجي علي الكثير عند الأطباء للعلاج بلا فائدة. والغريب أن أبى يتعاطف مع زوجى ، ويقول لى بشدة وقسوة :مرض نفسى أيه وكلام فارغ أيه ؟! ان حياتك تتمناها أية امرأة فى العالم. لا أدرى كيف يمكن لواحدة مثلك أن تكون تعيسة إلى هذا الحد. ان عليك أن تسجدي لله شكراً، لأنه منحك أباً حافظ عليك ثم زوجك لرجل

ناجح طيب هيأ لك حياة مريحة ،ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

وتردد زينب لنفسها أمامى :«صحيح يادكتورة ماذا أريد أكثر من ذلك. أننى يجب أن أكون سعيدة، ولكن لا أدرى لماذا أصبحت أخاف حتى من السير بمفردي في الشارع ». .

وسألتها :لماذا تخافين .؟ الانسان لا يخاف إلا إذا شعر بخطر.

قالت : نعم . أشعر بخطر.

قلت : أين هو الخطر؟

قالت : لا أدرى ، ولكنى أخاف.

سألتها : وماذا قال لك الأطباء النفسيون ؟

قالت : قالوا لى أنه ليس هناك خطر فى حياتى ، ولا فى الشارع ، وعلى إلا أخاف، وكتبوا لي الأقراص المهدئة.

وحينما نظرت فى عيني زينب، بدأت الخوف والذعر. أنها تخاف فعلاً، لكن خوفها ليس لخطر خارجي نراه بأعيننا ، ولكن خوفها بسبب خطر داخلى، فى داخل نفسها. هذا الخطر لا نراه نحن وليس واضحا وضوح سيارة تجري بسرعة فى الشارع وتكاد تدوسنا ، او رصاصة منطلقة من مسدس فى وجهنا. ولكنه خطر موجود ومحسوس داخل الشخص الذى يعانى منه. ونحن عادة نقتنع بالخوف الذى يحدث للإنسان بسبب خطر خارجي. نحن لا نقول عن أى شخص أنه مجنون إذا صرخ مذعوراً فى الشارع بسبب سيارة مسرعة كادت تدهسه، لكننا نقول أن زينب

مجنونة لانها تشعر بالخوف ونحن لا نرى أى خطر حولها.

ان عدم رؤيتنا للخطر لا يعنى أن الخطر غير موجود. قد يكون الخطر موجوداً ورؤيتنا هى القاصرة ،وهى العاجزة عن رؤيته أو ادراكه . وهذا هو ماحدث لزينب.

لقد تصور أباها أن الخطر الوحيد الذى يمكن أن يهدد حياتها هو أن تحمل سفاحاً (كالأم المجهولة لذلك اللقيط الذى وجد بجوار الجامع). ولم يدرك على الأطلاق الخطر من ارغامها على قطع دراستها وطموحها ، رغم ذكائها وتفوقها. ولم يدرك على الأطلاق الخطر من فرض زوج عليها لا تريده ولا تحبه. وتصور أنها يجب أن تسجد لله شكراً لأنه منحها هذا الأب الذي حافظ عليها ، ثم زوجها لرجل ناجح طيب. ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

وفى رأيى أن هذا الأب كان خطراً على ابنته كالسيارة المسرعة التى تدهس الانسان وتدوس على جسده، بل أن خطره كان أشد. لأن الخطر الذى يدوس النفس أشد فتكاً بالانسان من الخطر الذى يدوس على جسده فقط.

وبينما أنا أفكر فى هذا ، سمعت زينب تقول لي :«أتعرفين يادكتورة كم أتمنى أن أشفى، كم أتمني أن يزول عنى هذا الخوف، كم أتمني أن أسير فى الشارع كما يسير الناس، وأرضع أبنتى ككل الأمهات دون أن تراودنى فكرة خنقها. أنى أتمنى الشفاء بأى ثمن. بأى ثمن. لقد قلت

لأحد الأطباء : اخلع عينى من رأسى أو أقطع ذراعى ، وأعطنى دواء يشفينى!

وصدقت زينب بالطبع ، فأنا أعرف أن فقدان أى عضو من أعضاء الجسم لا يساوى شيئاً بالنسبة لفقدان النفس. ولهذا فأن السيارة التى تدهس شخص في الطريق العام وتقطع ذراعه أو ساقه أو عين من عينيه، فاخطرها أقل بكثير من أن يرزق الطفل بأب كمثل أبى زينب.

والغريب أننا جميعاً لا نرى خطر مثل هذا الأب.أنه فى نظرنا أيضا أب مثالى. فهو لا يسكر، ولا يسهر ، ولم يطلق زوجته، ولم يعربد، ولم يسرق، ولم يختلس ولم يبطش. ولكنه كان أباً يعمل فى شركة طول النهار، وينفق كل مرتبه على أسرته. يحافظ على أولاده وبناته، ويحميهم من كلام الناس أو السمعة السيئة. ويختار لهم أزواجاً طيبين ناجحين يضمنون لهم الراحة والحماية. مثل هذا الأب فى عيوننا جميعاً ليس إلا أباً مثالياً وأباً محباً لبناته وأولاده. ولكن كم من الجرائم ترتكب بأسم المثالية وبأسم الحب.ان ماحدث في حياة زينب هو جريمة قتل. لقد قتلها ابوها. وهى تعيش مع زوج شبه أباها. أنه زوج مثالي محب لزوجته. أنه لا يسكر ولا يسهر ولا يعربد، وينفق كل مرتبه عليها وعلى البيت والطفلة. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ماالذي يخيفها ؟! ان حياتها آمنة تماما، خالية من الحوادث والمفاجآت، خالية من التحديات والصعوبات، خالية من التفكير فى شئ يحدث. لأن شيئا لم يحدث. لأن

شيئا لن يحدث . لأن حياتها خالية خاوية، كعدم الحياة ،كالموت تماما.

وهنا حدثت الصدمة النفسية لزينب، وتسمى فى علم النفس بصدمة «انعدام المؤثرات في الحياة». وهى تشبه صدمة الموت، لكن الجسد يظل على قيد الحياة. لقد أكتشفت زينب أن حياتها خاوية تماماً. وأنها لم تعد تنتظر شيئاً من حياتها ، فالمستقبل سيكون كالحاضر، كالماضى، ولا شئ سيحدث غير هذا الخواء فى حياتها. والاستسلام ، والطاعة المستمرة لابيها ثم لزوجها. ان شيئاً لم يحدث ليغير هذا وسوف تصبح حياتها لا شئ فى المستقبل، كما كانت لا شئ فى الماضى.

وكانت زينب فى أعماقها لاتكف عن مقارنة نفسها بأخيها، الذى أصبح ملء السمع والبصر بتفوقه الفكرى فى الجامعة. وقال لها أحد الأطباء النفسيين الذى ذهبت إليه، أن ذلك بسبب عقدة الحسد الذى تشعر به البنت نحو أخيها الولد بسبب امتلاكه عضو الذكر (أفكار فرويد). لكنها ذهلت لهذا الرأى، وقالت له انها لم تطرأ على بالها تلك الفكرة أبداً. ولكنها تشعر أنها حرمت من التعليم العالى، وأنها كانت اكثر تفوقاً منه وكاد أن يكون لها مستقبل أفضل من مستقبله. وأنها تشعر أنه من الظلم أن تحرم من طموحها الكفرى. وأن يشغلها أبوها فى الشركة، وتدفع مرتبها الشهرى من أجل أن يدخل أخوها الجامعة، ويتعلم هو وينجح، ويرقى، وتظل هى راكدة فى بيت الزوجية الآن.

والغريب أن هذا الطبيب فسر رغبتها فى قتل طفلتها على أنها نوع

من العدوان بسبب الكبت الجنسى الذى تعانيه. وكان هذا الطبيب قد سأل زينب عن علاقتها الجنسية مع زوجها، فقالت أنها لا تفكر فى الجنس على الأطلاق، إذا رغب زوجها فيه، فأنها تمارس معه الجنس. وإذا لم يرغب فهى لا تفكر فى الموضوع. وأستنتج أنها تعانى من البرود الجنسى، وأن هذا البرود هو سبب الاضطراب النفسى الذي تعانى منه.

ولم يدرك الطبيب المعالج أن البرود الجنسي عند زينب ليس إلا نتيجة الموت النفسى والفكرى الذى حدث فى حياتها. ان الانسان (امرأة أو رجلا) لا يمكن أن يُقتَل فكرياً ونفسياً وتظل رغبته الجنسية صاحية وحدها، متأججة أو مشتعلة بالحياة.

ان النشاط الجنسى فى حياة الانسان جزء من النشاط الفكرى والنفسى، ويدركه الموت والبرود لا شك حين يدرك الموت والبرود النشاط النفسى والفكرى.

ان خوف زينب من رغبتها المسلطة عليها لقتل طفلتها، لم يكن إلا تعبيراً عن احساسها بأن هذه الطفلة البنت سُتقَتل مثلها، وستعيش الحياة التى هى تعيشها. وأنها مادامت ستموت كما هى ميتة، فالافضل لها أن تموت وهى طفلة صغيرة، وقبل أن تتعذب، بدلا من أن تمر بالمراحل جميعها التى مرت بها.

ان زينب قد أدركت الخطر المحدق بحياة أبنتها، هذا الخطر الذى لا يراه معظمنا ومعظم أطباء النفس. لكن زينب قد أدركت الخطر لأنها

عرفته وعاشته وعانت منه. ولأنها أيضا انسانة ذكية ولها عقل يفكر. لكنها فى الوقت نفسه تدرك أن هذا الخطر يملأ الوجود، وأنه أقوى منها، وأقوى من أبنتها، ولذلك فهى تشعر أنها لا تمتلك فى مواجهة هذا الخطر إلا أن تحمى أبنتها منه، وذلك بأن تخفيها من الوجود تماماً.

وهذا هو سبب خوفها من السير فى الشارع. كانت زينب حين تسير فى الشارع تخاف من أن تلقي بنفسها تحت العربات. حينما طلبت منها أن تفسر لى ماذا تشعر وهى تسير في الشارع، قالت : أشعر كأننى سأسقط تحت العربات.

وسألتها : كيف تسقطين ؟

قالت : لا أدرى ، ولكنى أحس أن قوة خفية تدفعنى من الخلف تحت العجلات .

ان هذه القوة الخفية لم تكن إلا رغبة زينب نفسها فى أن تقتل نفسها. وهى رغبة منطقية جداً تتمشي مع رغبتها فى قتل أبنتها. والخوف الذى تشعر به أيضاً خوف منطقى جداً، لأنها تحب نفسها، وتحب طفلتها أيضاً. وبسبب ذلك الحب هى تحاول أن تحمى نفسها وتحمى طفلتها من الموت. وكم يكون شاقا على الأنسان أن تضيق به سبل الحياة جميعاً فلا يجد طريقاً يسلكه إلا الموت. أو لا يجد طريقاً يهرب به من الموت إلا الموت ذاته.

وقالت لى زينب بعينين منكسرتين حزينتين جداً : الموت أرحم

يادكتورة مما أنا فيه، ليتنى أموت، أعطينى دواء يميتنى ويريحنى.

ولم يكن فى استطاعتى أن أكتب لها أى دواء. وماذا كنت أكتب لها: تلك الأقراص الجديدة فى الطب النفسي التى يسمونها أقراص السعادة. ان مثل هذه الأقراص فى رأيى تشبه عصا الحاوى حين يرفعها فى الهواء ويقول أنها ستتحول إلي عصفور.

لم أكتب لها أى دواء، لكنى قابلتها ثلاث مرات، وفى كل مرة كنت أتحدث معها مايقرب من ساعتين، حاولت معها أن القى بعض الضوء على حياتها وأسباب خوفها.

فأن الاسرة التى نشأت بها لم تكن أسرة ريفية فى الريف، حيث يكون للنساء نوعاً من الحرية فى الذهاب إلى الحقل والعمل والاختلاط بالناس ذكوراً واناثاً. ولم تكن من الأسر المثقفة المتحضرة نوعاً ما من حيث يكون للنساء نوع من الحرية فى الذهاب إلى النوادى أو الجامعة أو العمل. ولكنها تلك الأسرة المتوسطة أو تحت المتوسطة، التى تعيش فى المدن، والتى تسيطر عليها التقاليد المتزمتة والأباء أنصاف المتعلمين الذين هم أشد جهلا من الجهلاء الذين لا يتعلمون شيئاً ويتصرفون بفطرتهم وطبيعتهم.

ويتصف معظم هؤلاء الآباء بالإضافة إلى التزمت، يتصفون بالتطلع إلى الطبقة الأعلى. بل أن تزمتهم الشديد ليس له من سبب سوى تطلعهم الشديد. ان الأب لا يتردد لحظة فى التضحية بأبنته من أجل

الصعود درجة فى السلم الاجتماعى. وقد فعل ذلك أبو زينب. لقد أستغلها ، ومص دمها ، من أجل أن يصعد درجة فى المجتمع.

أستغلها قبل الزواج حين قطع تعليمها وشغلها وأستولى على مرتبها. وأستغلها بأسم الزواج حين باعها لزوج من الطبقة الأعلى. كل هذا الاستغلال يحدث فى جو من التزمت الاخلاقي الشديد، والطاعة العمياء للأب ،التى يسمونها فى تلك الطبقة احترام الأب.

وسألت زينب : كنت تحترمين أباك ؟

قالت بصوت ضعيف :جدا. لقد عودنا على أن نقف حين يدخل، وأن نقبل يده حين نصافحه.

سألتها :وأمك؟

قالت : كانت أمى امرأة طيبة، مكافحة، تشتغل طوال النهار فى البيت والطبخ، وبالليل تجلس على الماكينة تحبك الملابس.

سألتها :ماذا كان شعرورك نحوها ؟

قالت : شعور عادي. لم أكن أحترمها مثل أبى، لكنى كنت أشفق عليها، وأحيانا حين تقف فى صف أبى أشعر أني أكرهها.

وسألتها : ألم تشعري بالحب لاحد من الشباب ؟

قالت : لا . كنت أخاف من الصبيان، وكان أبى ينبهنى دائماً للمحافظة على نفسى وإلا أثق بأى شاب. وفعلا كنت أشك فى أى شاب.

سألتها :والجنس؟

قالت :مع زوجى .

قلت : هل كان هناك جنس آخر ؟

قالت : لا.

قلت : إذن مع زوجك.

قالت : الحقيقة يادكتورة أنا لا أحب الجنس . أبى كرهنى في جميع الرجال.

سألت : هل أجروا لك عملية الختان ؟

قالت بالطبع، هذا تقليد فى العائلة كلها.

سألتها : هل شعرت بالخوف يوم عملية الختان ؟

ضحكت وقالت : بالطبع، هربت من الداية فوق الدولاب، لكنهم أمسكونى فى النهاية.

كانت زينب امرأة طيبة هادئة، لم يكن من الممكن لها بعد التربية التى تربتها أن تكون امرأة عنيدة رافضة أو ثائرة على الأوضاع فى حياتها.

ان عجزها عن الرفض والتمرد والثورة، هو الذى، اصابها بذلك العصاب، أو حالة الخوف والفكرة المتسلطة التى تخاف منها.

انها لو أستطاعت أن ترفض وأن تثور لتخلصت من هذا العصاب. لكن مثل هذه التربية الصارمة المغلفة من الخارج بقشرة من الحب، تخدع الانسان وتوهمه أن كل شئ علي مايرام، وأنه ليس هناك سبب يجعله

يثور. وتمضي السنين على هذا النحو، ولا يفيق الانسان إلا على صدمة الموت. واكتشاف الحقيقة المرة، أنه فقد نفسه وأنه مات، وهو على قيد الحياة. كما حدث لزينب . ان الحياة القاسية الصعبة الواضحة القسوة أفضل بكثير من هذه الحياة، لأن الانسان يستطيع أن يثور عليها. ويجد من الأسباب الواضحة التى تجعله يثور مبكراً فى حياته قبل أن يستفحل الأمر ويحدث الموت.

ان الموت فى حياة الانسان أنواع متعددة، أحدها هو الموت البيولوچي . وهو موت الجسم. وأن الناس (بالذات الرجال) يحرصون على أن يعشوا اجتماعياً ومهنياً وسياسياً وبيولوچياً ايضاً. ان الموت النفسى هو أن يعيش الانسان بيولوچياً فقط، ويموت فى المجالات الفكرية والنفسية والاجتماعية.

أن كثيراً من الناس يتصورون أن الموت البيولوچي هو الموت الوحيد الذى يمكن أن يحدث لهم.ولهذا هم يموتون نفسياً وفكرياً، ولا يصابون بالعصاب. أو لا يشعرون بالخطر لأنهم لا يرونه وغير واعين به. ان مرض العصاب ليس إلا «نور أحمر» تشعله النفس علامة الخطر. ان المحظوظين فقط من الناس هم الذين يرون «النور الأحمر» هؤلاء الذين حظوا بقدر كبير من الحساسية والذكاء، والذين ارتفعوا كثيراً عن مجرد أن يعيشوا بيولوچياً ، أو يأكلون ويشربون وينامون ويتناسلون فقط.

وحينما نظرت فى عينى زينب رأيت الحساسية والذكاء، وأدركت أن

زينب لن تشفى من عصابها وحالة الخوف عندها إلا بأن أؤكد لها أن الخطر موجود فعلا، وأنها على حق فى خوفها. وأنها لكى تنقذ نفسها من الموت المحدق بها، لابد أن تعيش فكرياً ونفسياً واجتماعياً، وذلك عن طريق العمل.

ولمعت عيناها ببريق خاطف وقالت :«ياريت يادكتورة، ياريت تشوفى لى شغل . أنا أريد أن أعمل». وطلبت من زينب أن تبحث عن أى عمل لها وأنا بدورى سأساعدها. وفعلا وجدت زينب عملا فى إحدى الشركات التجارية. لم يكن هو نوع العمل الفكرى الذى تريده ، لكنها زارتنى بعد بضعة شهور. كانت مرحة نشيطة، وأدركت أنها اجتازت الأزمة بنجاح. وقالت لي زينب بحماس:« ان عملى روتينى ممل يادكتورة لكنى اشتريت بكل ماهيتى كتبا وبدأت اقرأ ....»

وسكتت لحظة ثم قالت بشئ من التردد والخجل :«وقد بدأت أكتب أيضاً ..»

وسألتها : ماذا كتبت يازينب ؟

قالت بخجل : قصيدة شعر.

سألتها : ولماذا تخفضين صوتك هكذا. هل كتابة الشعر عملية مخجلة ؟

قالت : لا يادكتورة، لكنى وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية كتبت قصيدة شعر وأخفيتها بين كتبى، لكن أبى عثر عليها، فقد كان يفتش

كتبى من حين إلي حين. وحين قرأها مزقها، وأمرنى بأن أذاكر فقط، وإلا أشغل ذهنى بالأمور الفارغة.

وضحكت زينب وهى تناولنى قصيدتها، وقالت :« هذه القصيدة ليست جيدة يادكتورة، لكنى سأكتب قصيدة أخرى. أنى أشعر بالراحة وأنا أكتب. وقرأت قصيدة زينب. كانت أفضل فى رأيى من كثير من القصائد التى أقرأها منشورة في بعض المجلات والصحف. وقلت لها :أنها قصيدة جيدة يازينب وسأساعدك على نشرها فى إحدى المجلات.

وهنا صاحت زينب من شدة الفرح :صحيح يادكتورة ! صحيح يادكتورة القصيدة أعجبتك ؟!

قلت لها : أفضل من بعض القصائد التى تنشر فى المجلات. فلمعت عيناها بالسعادة، وتنهدت تنهيدة عميقة، وكأنما تقول لنفسها :أخيراً .. أخيراً... أعثر على نفسى!

وأصبحت زينب صديقة لي حتى اليوم، ولم تعد تشعر بالخوف، وأصبحت تحتضن طفلتها بكل حنان. وفى المرة الأخيرة التى رأيتها فيها قالت لى :تعرفى يادكتورة ، أنا لم أكن أتصور أبدا أننى سأشفى.

قلت : أنت لم تكونى مريضة يازينب . أنت كنت شديدة اليقظة ولذلك أدركت الخطر من حولك ومن حول ابنتك.

قالت : تعرفى يادكتورة .. أنا سأبذل كل جهدى لأجعل ابنتى تعيش حياة أخرى غير الحياة التى عشتها. سأوفر لها أحسن تعليم، وأحسن

كتب، ولن أزوجها ، ولكنى سأتركها هى التى تقرر حياتها بنفسها.

سألتها : ومارأي زوجك ؟

قالت وهى تضحك : ان زوجي رجل طيب يادكتورة ، ليس شديداً مثل أبى. كما أنه فرح جداً حين شفيت، ويقول لى دائماً : اللي أنت عاوزاه أعمليه.

عليـــاء

«علياء» شابة طويلة سمراء ،ملامحها حادة قوية ، لا يمكن أن تضيع ملامحها من ذاكرة من يراها ولو مرة واحدة. ان عينيها من ذلك النوع الذى يستحوذ على الأنسان ، ويفرض عليه أن يحترم صدقها وذكاءها وان بلغ أية درجة من الجنون، أو الخروج عن المنطق المألوف لأغلبية البشر.

قالت لى وفي صوتها رنة خفيفة من السخرية : لم أكن أتصور أننى أدخل عيادة طبيب نفسى فى يوم من الأيام، كنت شديدة الغرور بأرادتى وقدرتى على تحدى العالم، والتعبير عن نفسى بكل صدق وشجاعة، ولم اكن أتصور أن شيئاً يحطمنى ، ولكننى أدركت أن المرأة لا يحطمها إلا زوجها.

وقاطعتها قائلة : « لا أظن أن شيئاً يمكن أن يحطمك. هذا هو احساسى قبل سماعى لمشكلتك». أبتسمت بطريقتها الهادئة المزوجة

بالسخرية الخفيفة وقالت : ولكنى محطمة فعلا يادكتورة. لقد تأكدت من ذلك فى الأيام الأخيرة. فأنا لا أنام إلا بالأقراص المنومة، ولا أصحو إلا بالأقراص المنبهة . ولم أعد أطيق أى شئ فى حياتى، حتى الكتابة التى كانت المنفس الوحيد لي، أصبحت عاجزة عنها. وقد أقدمت على الأنتحار عدة مرات. ولا يشغلنى الأن سوى أختيار افضل وسيلة للموت. لقد كنت أظن أن الانتحار دليل الضعف، الجبن ،الهروب من الحياة، ولكنى أعتقد الآن أن الانتحار دليل القوة والصلابة ومواجهة الحياة بشجاعة. لم أعد أرى فى الحياة شيئاً يستحق أن أعيش من أجله.

تغيرت ملامحها بسرعة، وكستها مسحة غريبة ومفزعة من الكآبة والحزن، أنتقلت إلى كأنما بالعدوى، فشعرت أن قلبى ثقيلاً، وأخذت أنصت إليها دون أن اقاطعها.

وقالت علياء بعد أن أشعلت سيجارتها : أخرجنى أبى من الجامعة وأنا فى السنة الأولي ليزوجنى من رجل تاجر ثرى. ولكن هذا الرجل طلقنى بعد سنة ونصف السنة أنجبت فيها طفلاً . وكان سبب الطلاق أنه نظر في وجه طفله بعد ولادته، فأحس أنه ليس ابنه. وأن الطفل لا يشبهه . ودهشت لهذا لأنى كنت صغيرة (في الثامنة عشر من عمرى) ولم أكن أعرف أي رجل اخر. قال أنه يشك فى منذ ليلة الزفاف. لأننى لم أكن عذراء. دهشت أكثر وأكثر، لأنى لم أكن قد أتصلت جنسياً بأى

رجل قبل الزواج. وصارح هذا الرجل أبى وجميع أسرتى بكل شكوكه، وأرسل إلى ورقة الطلاق. ورفع أبي عليه قضية نفقة لى وللطفل، لكننا عرفنا أنه صفى جميع أعماله التجارية وغادر البلاد إلى كندا، ومعه زوجة أخرى. وأصبحت أنا وطفلي نعيش فى كنف أبى، الذى كان يتذمر دائماً من طفلى، وكثرة المصاريف، ويلمح لى دائماً بأن شكوك زوجي ربما كانت حقيقة. لكنى كنت أؤكد له دائماً أن زوجي كان كاذباً فى شكوكه، وأنه تعلل بكل هذه العلل ليطلقنى فى ظل تلك الفضيحة التى تسهل عليه التهرب من دفع النفقة لي وللطفل، حتى يغادر البلاد مع زوجته الأخرى. كانت حياتى أنا وطفلي فى بيت أبى جحيماً، ومهانة. ولم تكن أمى تملك شيئاً ولا أخوتى الستة الصغار. وفكرت فى أن أعمل بالثانوية وأعول نفسى وطفلى. وكنت أشعر برغبة شديدة للكتابة، وكتبت قصة قرأتها لأحدى صديقاتى ، فأعجبت بها جداً، وشجعتنى على أن أحاول نشرها في إحدى المجلات. وآخذ عنها أجراً.

وحصلت على عمل كتابى بأحدى المؤسسات الصحافية. وبالرغم من أن عملي لم يكن فنياً، إلا أن جو العمل هيأ لى الأتصال ببعض الصحفيين والكتاب. وبدأت أفهم الحياة، وأقرأ كثيراً، وأكتب من حين إلي حين.

ثم قابلت زوجى الحالى، وهو محام. وأحبنى وأحببته وتزوجنا منذ خمسة عشر عاماً، وأنجبت بنتين. وبذلك أصبح لدى ولد وبنتان. صارحت

زوجى قبل الزواج بكل ماحدث لى فى حياتى قبل أن أقابله، وصدقنى وطلب منى أن أنسى ما فات، وأن أفكر فى المستقبل. وفعلاً فعلت ذلك. وبدأت أعمل من أجل مستقبلي ككاتبة، فقد أحسست أن الكتابة هى مستقبلى الوحيد. وكنت أفرح كلما نشرت لى قصة، وحازت أعجاب بعض الناس. ولم يكن ينغص على فرحتى إلا زوجى، الذى بدأت أدرك أنه يحاول أن يعطلنى عن الكتابة. وكان يتعلل بأن الكتابة تشغلنى عنه وعن البيت. لكنى عرفت أنه يغار من أى نجاح أدبى أحصل عليه. وبدأ يظهر ضيقه كلما تقدمت فى الكتابة وعرفنى الناس، وإذا نشرت عنى أحدى الصحف خبراً، أو نشرت صورتى، فالويل لى فى هذا اليوم. ان زوجى لابد أن يتعمد مشاجرة فى البيت لأتفه الأسباب. وكنت أتحمل زوجى لأننى كنت أحبه، وكنت أحب أسرتى وأولادى، ولا أريد أن تتحطم حياتى الزوجية للمرة الثانية. وكان زوجى يقسو على كلما تحملته، وكلما تنازلت عن حق من حقوقى من أجل ارضائه، طمع فى المزيد. وظللت على هذا النحو حتى وجدتني فى النهاية قد تنازلت عن كل مستقبلى الأدبى، ولم أعد أكتب، ولم أعد أنشر شيئاً، وأصبحت منعزلة عن الحياة الأدبية كلها، ولم يعد زوجي يجد أى سبب للتشاجر معى. لكنى بدأت أشعر بالصداع والأرق، وشعرت بكراهية لحياتى ورغبة في الموت. وذهبت إلى طبيب نفسى، فأعطانى أقراصاً مهدئة أقراصاً منومة، ونصحنى بأن أحاول الكتابة مرة أخرى. لكنى أصبحت

عاجزة عن الكتابة ، وعاجزة عن التفكير عن شئ، أو التركيز. كراهيتى لزوجى تزيد يوماً بعد يوم، لأنى أشعر أنه السبب فيما حدث لى، ولم أعد أشعر معه بأية رغبة عاطفية أو جنسية. وقد أتهمنى منذ شهور بالبرود الجنسى، وهددنى بأنه سيذهب إلى امرأة أخرى فلم أشعر بأي أهتمام. بل شعرت بشئ من الراحة. لأنه سينشغل بأمرأة أخرى عنى. علاقتى بأولادي لم تتغير كثيراً ، لكنى أشعر أننى أصبحت أكثر ابتعاداً عنهم ، وأكثر رغبة فى الانطواء على نفسى. وفى احدي الليالى كنت مؤرقة، وأشعر بصداع شديد واختناق. وحينما رأى زوجي حالتى ثار وغضب، وقال أنه لا يعترف بشئ أسمه مرض نفسى، وأنه لا يرى أى سبب فى حياتى يدعونى إلى الاكتئاب. وأننى يجب أن أحمد الله لأننى عثرت على زوج رضى أن يتزوجنى رغم الماضى الذى عشته. وكدت أصعق من قسوة الكلام الذى قاله لى، والذيأاكد لى فيه أنه لم ينس أبداً ماقلته له، وأنه كان يشك فى أيضاً، وأن من الأفضل لنا أن ننفصل. وأعترف لى صراحة أنه تزوج امرأة أخرى. وفى اليوم التالى أرسل إلى ورقة الطلاق.

وسكتت علياء قليلاً لتستريح ، ونظرت إلى فى تساؤل قائلة : إلا ترين يادكتورة أن هذا الزوج حطمنى ؟!

قلت لها : أنت التى حطمت نفسك حين تخليت عن الكتابة وهجرت الفن الذي كان يعطيك معنى للحياة.

قالت : ولكنى فعلت ذلك من أجل ارضاء زوجى وعدم تحطيم حياتى الزوجية.

قلت لها : ولكن حياتك الزوجية تحطمت رغم ذلك ، أليس كذلك ؟

قالت : نعم.

قلت : إذن كان من الأفضل إلا تهجرى الكتابة أبداً. ان الكتابة جزء من نفسك، لا تستطيعي أن تعيشى بغيرها. أما زوجك فلقد عجزت أن تعيشى معه قبل أن تنفصلا رسمياً بالطلاق. لقد أنفصلت عنه منذ فقدت رغبتك العاطفية والجنسية نحوه. ولم تكن حياتكما معاً بعد ذلك إلا نوعاً من الطلاق غير الرسمى. وإنى أعتقد أن حالتك ستتحسن كثيراً بعد هذا الطلاق، وأنك ستعودين إلى الكتابة، وتجتازين هذه التجربة القاسية بنجاح كما أجتزت غيرها من قبل.

قالت : لا أظن أننى سأستطيع هذه المرة.

قلت : ستستطيعين ياعلياء . أنت نوع من الناس الذين لا يمكن أن تهزمهم الحياة.

تساءلت بدهشة : كيف عرفت ذلك ؟

قلت لها : أرى ذلك فى عينيك .

أبتسمت ابتسامة واهنة ، وشدت قامتها بعض الشئ ،وقالت : كنت أحس ذلك، ولكن الآن .. أحس أننى تحطمت.

قلت لها : لا شئ قادر على تحطيمك مادمت قادرة علي الحصول على

ورقة وقلم.

وأبتسمت أكثر اشراقاً وتساءلت : أتظنيناأننى سأستطيع أن أكتب مرة أخرى بعد كل هذا التوقف.

قلت لها : أنت لم تتوقفى ياعلياء. لقد كنت تقاومين دائما. وهذا الصداع والأرق والتعب النفسى، لم يكن إلا نوعاً من المقاومة . أنك لم تستسلمى أبداً. وسوف تكون كتاباتك أكثر نضجاً وخبرة بالحياة.

وحينما نهضت علياء وصافحتنى أحسست من يدها وهى تشد على يدى كأنها تمدنى بشئ، وأنها قادرة على الوفاء أحسست بهذا العهد.

كاميليا

كاميليا امرأة فى الخامسة والعشرين ، نشأت فى أسرة متحررة، لا تفرق فى المعاملة بين الولد والبنت. ودخلت كاميليا الجامعة، وتخرجت، وأشتغلت بأحدى الوظائف. أحبت أحد زملائها فى العمل، وبادلها الحب، وتطورت العلاقة حتى بلغت العلاقة الجنسية. شعرت بالسعادة معه، ورغبت فى الزواج منه. لكنه لم يفاتحها فى موضوع الزواج، فبدأت هى بمفاتحته على أساس الحب الذى بينهما. لكنها فوجئت بأنه بدأ يتهرب منها، ثم قطع علاقته بها تماماً، وعرفت أنه خطب أبنة خالته، وهى بنت فى السابعة عشر.

تغلبت على الصدمة النفسية، وأستمرت فى عملها وحياتها. وفى يوم عرفت من زميلتها أن أبن عمتها وهو مهندس ناجح، يريد التقدم

للزواج منها. فكرت بينها وبين نفسها فى الموضوع، وأدركت انها لا يمكن أن تعيش بغير زواج، كما أدركت أن معظم الرجال لا يتزوجون الفتاة التى تنشأ بينها وبينهم علاقة حب قبل الزواج. وقررت أن تتزوج أبن عمتها. فهو ناجح، وهو يريدها، وهى لا تكرهه ، وربما تحبه بعد الزواج. لكن المشكلة أمامها كانت تلك العلاقة انسابقة التى حدثت في حياتها. وكانت تعلم أن أبن عمتها لن يسكت إذا أكتشف ليلة الزفاف أنها غير عذراء، سألت احدى صديقاتها عن حل المشكلة، فأخذتها صديقتها إلى طبيب، حيث أجرى لها عملية جراحية بسيطة، وأعاد لها عذريتها نظير عشرين جنيها.

بدأت كاميليا تستعد للزواج، وأشترى لها أهلها الجهاز، وأخذت تسمع كلمات الحب من خطيبها، وكانت تتوقع أنها ستكون سعيدة . لكنها بدأت تشعر بالأرق والصداع وآلام فى أماكن متعددة فى جسمها. وكلما دعاها خطيبها للخروج، تشعر برغبة فى النوم وعدم الخروج. لم تكن تعرف السبب فى تلك الحالة، فهى لا تكره خطيبها، وتريد الزواج منه، لكنها لا تستطيع مقاومة حالة الأرق والقلق الذى أصابها. ذهبت إلى أحد أطباء النفس، فأعطاها أقراصاً منومة ومهدئة، وقال لها أن معظم البنات يشعرن بقلق قبل الزواج، بسبب الخوف القديم منذ الطفولة، وأن هذا القلق سيضيع تماماً بعد الزواج.

وتزوجت كاميليا ابن عمتها، وكانت تتوقع أن يزول عنها الأرق

والقلق بعد مرور ليلة الزفاف علي خير. ومرت ليلة الزفاف على خير، ومرت ليال أخرى كثيرة على خير، لكن الأرق والقلق ظلا ملازمين لكاميليا، بل زادا . وبدأت تشعر أحياناً بعدم القدرة على النهوض من السرير والسير. وأنتابتها حالات من البكاء الطويل، أو الصمت الطويل، أو الشرود الطويل، وبدأ زوجها يضيق بها، بعد أن أخذها لعدد من الأطباء الذين لم يستطيعوا شفاءها.

وسألت كاميليا : هل ذكرت قصة حبك السابق للطبيب النفسى، وقصة العملية الجراحية واعادة العذرية.

وقالت كاميليا : لا.

وسألتها : لماذا ؟

قالت : لم أستطع. خشيت أن يخطئ الطبيب ويقول لزوجى أو أحد أفراد أسرتى. ثم أن هذا الموضوع فات علي خير، وكان لابد أن يضيع القلق اذ أنه السبب.

قلت لها : لكن القلق لم يذهب، لابد إذن أن يكون هناك سبب آخر.

قالت : نعم، ولكنى لا أعرف هذا السبب الآخر. لقد كنت مرحة، وكنت أحب الحياة، وكنت مقبلة على كل شئ، والأن أنا عكس ذلك تماماً، لم أعد مرحة ، ولم أعد مقبلة على أى شئ. كأننى أصبحت واحدة أخرى غير كاميليا التى كنت أعرفها.

قلت لها : هذا هو سبب القلق. لقد تخليت عن نفسك الحقيقية،

وعشت بنفس أخرى مزيفة ليست هى حقيقتك.

قالت : بالضبط . منذ اليوم الذى خرت فيه من عيادة الطبيب بعد أن أجرى عملية اعادة العذرية، شعرت كأننى أضع على وجهى قناعاً وارتدى شخصية أخرى مزيفة.

قلت لها : ولأنك بطبيعتك وبتربيتك انسانة صادقة، لهذا أنت تصارعين هذا الزيف بذلك القلق والعصاب.

قالت بأسى : أنا اكره الكذب، وأتعذب أن أكذب، ولكن ليس أمامى طريقاً آخر وإلا تحطمت كل حياتى.

قلت لها : أنت تحطمين نفسك الحقيقية، وتتصورين أن حياتك يمكن أن تظل من الخارج بالشكل الذى يقبله المجتمع.

قالت : الناس يهمها الشكل الخارجي فقط، أما الداخل فلا أحد يهتم به .

قلت لها : ولكنك لست من هؤلاء الناس الذين يمكن أن يعيشوا على الكذب، ويرتدون شخصيات أخرى غير حقيقتهم.

قالت : نعم، ولهذا أنا أتعذب.

قلت لا: هذا العذاب يدل علي أن جزءاً من نفسك الحقيقية لازال يقاوم. وقد ينتصر يوماً وترفضين الزيف، وقد ينهزم تماماً وتعيشين كما يعيش معظم الناس، فأيهما تفضلين ؟

قالت فى حيرة : لا أدرى.

قلت لها : لا أدرى هذا يتوقف عليك، وعلي هدفك من الحياة. إذا كان هدفك من الحياة هو الأستقرار في حياتك الزوجية الحالية بأى شكل وبأى ثمن، فسوف ينهزم الجزء الباقى من نفسك الحقيقية بمزيد من الاقراص المهدئة والمنومة ،وتشفين من الأرق والقلق، وتقبلين الزيف والكذب كأشياء طبيعية فى الحياة. أما إذا كان هدفك هو أن تكونى نفسك الحقيقية، وأن تطورى هذه النفس لتكون أكثر صدقاً وأكثر عظمة وأكثر نفعاً للمجتمع وتطوره إلي الأفضل، فسوف ينتصر الجزء الحقيقى من نفسك وترفضين الزيف وتخلعين القناع، حتى ولو تحطمت حياتك الزوجية الحالية.

وحين نظرت إلي وجهها رأيته شاحباً، ولم أستطع أن أخمن من شحوبها النتيجة النهائية للصراع فى أعماقها.

ويبدو أنها كانت تريد منى أن أحدد لها طريقها، فسألتنى قائلة : لو كنت مكانى يادكتورة ماذا كنت تفعلين؟

وقلت لها : أفضل نفسى الحقيقية.

ورأيت ابتسامة لأول مرة على وجهها، وقالت بصوت جديد لم أسمعه من قبل : وأنا أيضاً.

نجــوى

فتاة فى الحادية والعشرين، طالبة بالسنة النهائية بالجامعة. تعانى من تبول لا ارادى بالليل وبالنهار، وصداع ، وبكاء قد يستمر طوال النهار والليل. وهى فتاة ذكية حساسة، متفوقة فى دراستها رغم كل هذا، ولم يبق أمامها للتخرج سوي بضعة شهور. لكن التبول اللاارادى يسبب لها كثيراً من الحرج والمشاكل. تشعر أحيانا برغبة فى الانتحار، ولكنها لا تقدم على الفعل. ذهبت إلى عدد من أطباء. النفس وأعطيت أنواعاً مختلفة من الاقراص دون جدوى. قالت لى أن أحد أطباء النفس الذين ذهبت إليهم سألها عن أسمها وأسم أبيها وعمله، ثم شخصها فوراً وكتب فى أوراقها : اكتئاب وقلق. ودهشت كيف يشخص هذين المرضين بعد سؤالين عن اسمها وأسم أبيها وعمله. وحينما أبدت اعتراضها على ذلك، لأنه لا يعرف عنها شيئاً ولم يفحصها، وأنها لن تأخذ الأقراص

التى كتبها لها صرخ فيها قائلا : هذا شغلى أنا.

نشأت نجوى فى أسرة متوسطة الحال، الأب موظف بشركة (تعليم متوسط) ، ولها أخ يكبرها بعامين، ولها أخ أصغر وأخت واحدة. ماتت أمها وهى فى التاسعة من عمرها ، وعرفت من عمتها وخالتها أن أمها كانت تعيسة فى حياتها مع زوجها. وأنها طلبت الطلاق منه ولم يطلقها. وأنها ماتت وهى فى الثلاثين من عمرها لمرض ما فى قلبها. وعاشت نجوى مع أبيها وأخواتها. وتصف نجوى أباها بأنه رجل شديد القسوة، لدرجة أنه من حين إلي حين يطرد أولاده وبناته فى الشارع، ويقول لهم أنه غير ملزم بأطعامهم. ويضطر الأولاد والبنات إلى الذهاب إلي عمتهم أو خالتهم، حيث يتعرضون لقسوة أشد، فيعودون إلى أبيهم . وبالطبع فشل الأولاد والبنات فى دراستهم ، ولم يكملوا التعليم، إلا نجوى التى أستمرت بسبب ذكائها. لكنها لم تكن تحصل على تقديرات جيدة بسبب أنها تطبخ لأخواتها وتغسل لهم وتخدم الأب ايضا، الذى كان يعاملها بقسوة شديدة كأنها خادمة وأقل. وحينما تطلب منه أن يعاملها بهدوء (دون أن يسبها) يقول لها :«أنا تعودت على ذلك، والبنت خلقت لتخدم ولتسب، وإذا لم يعجبك الحال فالباب واسع والشارع واسع». وكانت تضطر أن تخضع من أجل أن تستمر فى دراستها التى كان يهددها دائماً بأنه لن يدفع لها المصاريف،مما أضطرها إلى الاستدانة، وعمل «قرض» من الجامعة تسدده بعد التخرج.

الأب له شخصية هادئه أمام الناس والأقارب، ولكنه في البيت يصبح شرساً وقاسياً. تقول نجوى أنه يتصور نفسه أباً مثالياً لأنه يأويهم في البيت ويطعمهم.

أجريت لها عملية الختان وهي طفلة في السادسة من العمر. وكذلك أختها. وكذلك جميع بنات العائلة. مارست نجوى العادة السرية في الطفولة والمراهقة، وتمارسها الآن على فترات متباعدة. تشعر بحنين جارف لحب رجل، لكن مشكلة التبول اللاارادي تجعلها تخاف. ولم تتصل بأحد من الجنس الآخر سوى بعض المشاعر العاطفية من طرف واحد، من ناحيتها هي فقط.

قسوة الأب على بناته أشد من قسوته على أولاده، ويفرق في المعاملة بينهما، ويتحيز للأولاد رغم فسادهم وانقطاعهم عن الدراسة. الأب كان يضرب أولاده وبناته بشدة بالعصا والكرباج، وهم جميعاً يخافون منه. يكذب أمام الناس ويتظاهر أنه يعاملهم برقة، وإذا صرح أحد أولاده أو بناته بما يحدث حقيقة، ضاعف الأب من قسوته عليه أو عليها.

تقول نجوى أنها محاطة بالقسوة والكراهية، من الأب، ومن أخيها الأكبر، لأنها تكمل دراستها الجامعية وهو لم يكمل دراسته. يعاملها أخوها بقسوة وكراهية . أختها الأصغر فشلت في دراستها، وأصبحت من أجل أن تحصل على ملابسها تخرج من حين إلى حين مع الرجال،

وتأخذ منهم بعض المال. وبالطبع تعرف نجوى عنها كل شئ، لكنها تتظاهر بأنها لا تعرف، لأنها تحب أختها وتشفق عليها من أبيها القاسى.

وتسألنى نجوى بحيرة : هل يمكن يادكتورة أن تغير الأقراص من ظروفى التى أعيشها ؟ ليس امامي الآن إلا الانتحار.

قلت لنجوى أنها قطعت شوطاً كبيراً فى دراستها ، ووصلت إلى السنة النهائية، رغم كل ظروفها القاسية. وأنها لو تخرجت، وأشتغلت ،وتركت بيت أبيها ، فسوف تتخلص من كثير من المشاكل. ولم يكن باقياً على تخرجها إلا شهرين . وطلبت منها أن تتحمل هذين الشهرين بأى شكل . لكنها قالت لى : كنت أتمنى أن يكونا شهرين فقط يادكتورة، ولكن أبى بعد تخرجى لن يوافق على أن أترك البيت. كما أننى لن أعمل بعد التخرج مباشرة، وربما أنتظر عاماً كاملاً حتى أجد عملاً. وهذا أيضاً سبب شقائى. ثم أن أبى بعد أن أحصل على عمل، سوف يستولى على مرتبى بالقوة. ولن أتخلص منه أبداً.

ولم تنجح نجوى من التخلص من التبول اللاارادى رغم مواظبتها على أدوية الأطباء طوال العامين الماضيين. وكانت تتصل بى من حين إلي حين تليفونياً ،وتشكو لى من حياتها في البيت، وأنها غير قادرة على المذاكرة. وأن الاقراص التى تأخذها تسبب لها اختناقا ، وتود لو أمتنعت عنها ، لكن طبيبها يصر على هذه الاقراص.

وأختفت نجوى شهراً أو أكثر، وظننت أنها مشغولة بالامتحانات. لكن

صوتها جاءنى يوماً من خلال التليفون. وسألتها عن حالتها، فقالت : أبى دخل مستشفى الدمرداش الاسبوع الماضى، صدمته عربة وهو عائد إلى البيت ليلاً، ونقلوه إلى المستشفى. وقال لى الطبيب أن الاصابة فى العمود الفقرى، وأنه أصيب بشلل فى نصفه الأسفل وسوف يظل راقداً بقية حياته.

وأحسست أنها فى حاجة إلى، فطلبت منها أن تزورنى. وجاءت نجوى . ورأيت على الفور أنها تغيرت، وأن شيئا ما تغير فى ملامحها ونظراتها. وسألتها عن صحة أبيها. فقالت أنه نقل إلى البيت، وأنها تخدمه هى وأختها ليل نهار، وأنهما يشفقان عليه كثيراً، فقد أصبح كالطفل الصغير. ولم يعد ينادى نجوى إلا بأبنتى الحبيبة نجوى. وأطرقت نجوى إلى الأرض، ومسحت دموعها بمنديلها. لكنها حين رفعت عينيها إلى لاحظت أن شيئاً تغير فيها.

وسألتها : وكيف حالك أنت يانجوى ؟

قالت : تصورى يادكتورة، لقد نسيت مرضى تماماً فى مرض أبى. لم أعد أشعر بأى صداع أو اختناق.

سألتها : والتبول اللاارادى ؟

قالت : منذ اليوم الذي نقل فيه أبى من المستشفى إلي البيت لم أبلل فراشي ولا ليلة حتى اليوم.

سألتها : كيف تعللين ذلك ؟

قالت : أنا أحس أنني تغيرت يادكتورة ،منذ رأيت أبى يتحول فجأة من رجل جبار قاس إلى طفل ضعيف يبول فى فراشه ولا يستطيع أن يضع الطعام فى فمه إلا بمساعدتى أو بمساعدة أختى. هذه الصدمة جعلتنى أفيق من كل آلامى السابقة. وأن أقف على قدمى لأتولى مسؤولية الأسرة، خاصة وأن أخى منذ علم بحادث أبى أختفى من البيت ولا نعرف أين ذهب.

وسألتها : وكيف حال المذاكرة ؟

قالت بأسى : لن أدخل الامتحان هذا العام لأنى غير مستعدة. ولكنى مصممة على التخرج العام القادم، لأشتغل وأعول الأسرة. تصورى يادكتورة أن معاش أبى لا يكفى ايجار الشقة. لكن أختى اشتغلت فى محل تجارى، وسوف تساعدنا حتى أتخرج.

ليـلى

هى موظفة بأحدى الوزارات، ورغم أنها متخرجة فى كلية الأداب، إلا أنها تعمل عملاً كتابياً لا علاقه له على الاطلاق بما تعلمته أو بما كانت تطمح فى عمله. تعالج ليلى منذ عام عند أحد أطباء النفس من حالة اكتئاب. ليلى وصفت لي حالتها كالآتي : «أصحو من النوم الساعة الخامسة صباحاً، لأحضر الأفطار لزوجى وأطفالى، ويخرج زوجى إلى عمله، ويذهب الطفلان الكبيـران إلى المدرسـة، ويبقى الطفــل الثالث الصغير معى، وأحمله على كتفى وأسير حتي بيت حماتى على بعد حوالي كيلو مترين من بيتى. وأحياناً أركب الأتوبيس، ولكنى أفضل السير عن بهدلة الطفل فى الأتوبيس. وأترك الطفل لحماتى التى تتذمر دائماً من الطفل، وأن صحتها لم تعد تحتمل تربية الأطفال ،ويكفيها أنها ربت سبعة أولاد من قبل. وبعد أن أترك الطفل، أركب الأتوبيس

إلى الوزارة. وأن عملية انتظار الأتوبيس والركوب والوصول إلى عملي يستغرق منى علي الأقل ساعتين. بالأضافة إلى الأهانة التي أشعر بها وأنا داخل الأتوبيس، وجسدى محشور بين أجساد الرجال. ومعظم الرجال مكبوتون جنسياً، ولذلك كثيراً ماأهبط من الأتوبيس قبل وصولي، وأسير بقية المسافة على قدمي. وحين أصل إلى عملي، أكون منهكة القوى والأعصاب. ويقابلنى رئيسى فى العمل كل يوم بالتأنيب الشديد، لأنى أتأخر عن العمل كل يوم تقريبا، بالاضافة إلى الأجازات المتكررة ،حين أضطر للبقاء مع طفلى بالبيت إذا مرض، أو إذا مرضت حماتى ولم تستطع رعايته فى ذلك اليوم، أو إذا مرضت أنا وشعرت بالأنهاك العصبى أو النفسى الشديد ولم أستطع النهوض من سريرى.

بحثت عن خادمة أو دادة للطفل تبقى معه فى البيت وتساعدنى فى أعمال الطبخ والغسل والتنظيف، ولكنى لم أجد. معظم الخادمات الآن يطلبن أجوراً عالية لا أستطيع دفعها. قلت لزوجي ذات يوم أننى سأترك عملي واتفرغ لاطفالى والبيت والطبخ، لأنى لا أستطيع أن أجمع بين كل هذه الأعمال والوظيفة. وبحثنا الموضوع، وأتضح لنا أننا لا يمكن لنا أن نعيش بماهية زوجى فقط. فأضطررت إلى الاستمرار في وظيفتى رغم الأرهاق الجسدى والنفسى. زوجي يعود فى الرابعة بعد الظهر منهكاً وفى حاجة إلى أن ياكل ويستريح. وأنا أعود قبله بساعة واحدة، (الساعة الثالثة)، وفي هذه الساعة رغم ارهاقى أطبخ بسرعة الغداء

وأحضر الطعام لزوجى وأطفالى العائدين من المدرسة . حين ينام زوجى بعد الغداء، أذهب إلى بيت حماتى لأحضر طفلى. وفى الليل أجهز العشاء للجميع، وأساعد طفلى فى المذاكرة. وفى الساعة العاشرة مساء أو بعد ذلك، أضع جسمى في السرير وأنا أشعر بكل أوجاع العالم. ولا ينقذنى من أوجاعى إلا النوم. زوجي ينتهى عمله حين يصل إلى البيت الساعة الرابعة، ويأكل وينام، وفى المساء يخرج. ويقول لى أنه ذاهب لزيارة بعض أصحابه. وحين أطلب منه أن يبقى معى بالبيت ويساعدنى، تحدث مشاجرة، ويقول أنه لا يطيق الجلوس فى المساء فى البيت. وقلت له أننى أيضاً لا أطيق البقاء فى البيت والقيام بكل هذا المجهود وحدى. لكنه يقول لى أن كل الزوجات يعملن فى البيوت، وكل الرجال يخرجون فى المساء. وهذه هى طبيعة الحياة. كنت أشعر ببعض اللذة الجنسية فى أول الزواج. لكنى الآن بسبب جسدى المنهك وأعصابى المنهكة، فأنا لم أعد أحتمل الجنس، وأفضل عليه النوم والراحة. ويظهر زوجى الغضب كثيراً حين أقول له أننى متعبة. فتحدث مشاجرة، ويرتدى ملابسه ويخرج، ولا يعود إلا قرب الفجر. وأصبحت أضطر إلى تلبية رغبته رغم تعبى، وأصبحت العملية الجنسية عبئاً جسدياً ونفسياً فى حياتى. وزادت من أعبائى عبئاً. أننى الآن فى الثانية والثلاثين من عمرى، ولكنى أشعر أننى لم أعد شابة، ولم أعد أجد أى لذة فى أى شئ فى حياتى، وأشعر بأكتئاب من حين إلي حين، وأحياناً لا أنام إلا بالأقراص

المنومة. وحين سألنى الطبيب النفسى عن حياتى الجنسية، وقلت له أنني لم أعد أحب الجنس، قال اننى مصابة بالبرود الجنسي، وأعطانى بعض الاقراص والحقن. ولم أشعر بأى تحسن، بل زادت حالتى سوءاً. خاصة وأن زوجي أصبح يهملنى ويخرج كل ليلة، وأنى احس أنه عرف امرأة أخرى. وأشعر بقلق شديد خوفاً من أن يطلقنى. ولا أعرف ماذا أفعل وحدى بهؤلاء الأطفال الثلاثة.ان حياتى لم تعد تطاق، وأصبحت أعصابى على وشك الأنفجار. وأخشي أن أفقد السيطرة على نفسي تماماً، وتراودنى أفكار تخيفنى، منها فكرة الانتحار. والراحة الكاملة فى الموت. ولكنى أتراجع عن الفكرة حين أفكر فى أطفالي، وأن أحداً لن يرعاهم بعدى . خاصة وأن زوجى من النوع الذى لا يطيق رعاية الأطفال، ويقول أنها مهنة المرأة والرجل غير مسؤول عن رعاية الاطفال. مع أن زوجي متعلم ومتخرج مثلى فى الجامعة.

وقلت لليلى ان حياتها صعبة بغير شك، وأنها ليست وحدها التى تعانى، وأنما آلاف الزوجات العاملات يعشن الحياة المرهقة التي تعيشها هى . وأن زوجها ليس الرجل الأنانى الوحيد الذي لازال يرفض مشاركة زوجته أعباء البيت والاطفال، بالرغم من أنها تشاركه نفقات البيت. وقلت لها أن التعليم لا يعنى الثقافة، وكم من رجال متعلمين ولكنهم غير مثقفين. فالثقافة تجعل الرجل فاهماً لأمور الحياة، مدركاً لدوره الجيد حين يتزوج امرأة تعمل مثله، ويشعر بمسؤولية جديدة تجاه البيت

والأطفال، تماما كما تدرك زوجته مسؤوليتها الجديدة تجاه مشاركته فى الأنفاق.

ولكن كيف يمكن أن تشفى ليلى من عصابها بتلك الكلمات. ان علاج ليلى لا يمكن أن يكون بكلمات، ولا يمكن أن يكون أقراصاً تبتلع. أنها في حاجة إلى دار حضانة بجوار منزلها تترك فيها طفلها. وهى في حاجة إلى مقعد فى أتوبيس تجلس عليه بكرامتها لتصل إلى عملها. وهى فى حاجة إلي راحة بالبيت بعد العودة من عملها . وإلى شريك يحادثها فى المساء، أو يخرجان معا إلى المسرح أو السينما. ولكن هذا كله لا يمكن أن يحدث فى حياة ليلى، وفي حياة عدد كبير من الزوجات العاملات فى مجتمعنا. فالمجتمع عندنا لم يخطط بعد لأن تعمل النساء، ولذلك لم ينشئ المجتمع دور الحضانة الكافية لأطفال العاملات، ولم يحل مشكلة الأعمال المنزلية والطبخ بوسائل أخرى حديثة أو مؤسسات، ترفع عن كاهل المرأة أعباء الغسل والتنظيف والطبخ. ولم تتطور عقلية معظم الأزواج بحيث يساعدون المرأة في أعمال البيت والطبخ والأطفال . والسبب فى عدم تطور عقلية الرجل، أن التعليم والثقافة العامة والاعلام والصحافة لا تزال فى معظمها تنشر الأفكار العتيقة التى لا تناسب إلا نساء متفرغات فى البيوت بغير عمل. فمن هذه المرأة العاملة التى تستطيع أن تنفذ تعليمات المحررة أو المذيعة المشرفة على ركن المرأة بشأن رسم الحواجب، وتنعيم البشرة، وعروض

الأزياء ؟ أن المرأة العاملة إذا وجدت المال لشراء هذه الملابس، وهذه المساحيق والدهانات، فلن يكون لديها الوقت، وإذا كان لديها الوقت. فلن يكون لديها الجهد، بعد كل ذلك الأرهاق الجسدي والنفسى داخل البيت وخارجه. ان الثقافة العامة والاعلام لا تخاطب أغلبية النساء الكادحات والعاملات ، ولكنها تخاطب تلك الفئة العاطلة من النساء، والتى لا تعمل خارج البيت، والتى تحررت من العمل داخل البيت بسبب وجود الخادمات والطباخات والمربيات. ولهذا يغضب أزواج العاملات حين يرون زوجاتهم مرهقات غير أنيقات، ويتصورون أن هذا تقصير من الزوجة، او استرجال بسبب عملها، ولذلك يتركون بيوتهم فى المساء، ويذهبون يبحثون عن هؤلاء النساء الأنيقات الناعمات البشرة، اللاتى لا يقشرن البصل والثوم. وينسى الزوج منهم أنه كى يتناول غذاءه لابد لزوجته أن تقشر البصل والثوم. ولكن معظم الأزواج تعلموا الأنانية منذ الطفولة، وفى المدارس ، وفى الشوارع، ومن خلال الكلام الذى يسمعونه فى الراديو، أو يقرأوه فى المجلات والصحف. ولا يمكن لأمثال ليلى من النساء العاملات أن يتخلصن من أسباب العصاب في حياتهن مالم يتعلم الذكور منذ الطفولة التعاون مع اخواتهم. ومعنى ذلك أن تكون مساواة المرأة والرجل حقيقة يؤمن بها المجتمع، ويترجمها إلى افعال، وليست مجرد شعارات أو نظرية داخل أدراج مغلقة.

كنت أدرك أن هذا الكلام كله لا يعالج ليلى، ولكن المشكلة ليست

مشكلة ليلى وحدها. انها مشكلة جميع الزوجات العاملات فى مجتمعنا. والعلاج هنا ليس علاجاً طبياً، ولكنه علاج اجتماعى وسياسى بالدرجة الأولى. وهذا العلاج لن يحدث طالما أن أغلبية النساء بعيدات عن العمل السياسى، يتصورن ان العمل السياسى من اختصاص الرجال وحدهم. وبذلك ينفرد الرجال بالسلطات فى المجتمع، ويصبح اصدار القوانين من عمل الرجال وحدهم، وبالتالى تكون معظم القوانين فى صالح الرجل.

وهذا هو السبب فى أن كثيراً من القوانين فى مجتمعنا تعدلت ماعدا القوانين الخاصة بالمرأة والرجل. لقد تعدلت بعض القوانين التى تنصف الفئات التى ظلمت من الشعب، مثل الفلاحين والعمال بعض الانصاف. وأصبح هناك قانون ينص على أن يمثل الفلاحين والعمال فى التنظيمات السياسية بـ٥٠ بالمئة على الأقل، رغم المحاولات العديدة لاجهاض فعالية هذا القانون. أما المرأة التى تمثل نصف المجتمع، فلا يمثلها إلا أفراد قليلات يعددن على الأصابع. ولا تزال قوانين الزواج والطلاق تظلم المرأة ظلماً بيناً. وحين تبدأ بعض محاولات لتعديل القوانين، يغضب الرجال، ويستخدمون قوتهم لمحاربة التعديل. أما النساء فيتراجعن إلي الوراء، لانهن لا يمثلن أية قوة سياسية يمكن لها أن تفرض التعديل. وينتصر الرجال. وتظل القوانين الظالمة كما هى.

وقد يظن بعض الناس أن النساء المريضات بالعصاب هن فقط اللاتى

يعانين من هذا الوضع. وإلى هؤلاء أنقل مانشرته جريدة الأخبار فى ٢٤ مارس سنة ١٩٧٤. كتبت جريدة الأخبار تحت عنوان : أما من نهاية لهذه المآسى تقول :

«كيف نجد لهذه المآسى وهذه القصص غير الانسانية نهاية : زوجة شابة ظلت أكثر من عشر سنوات تتردد على المحاكم، وبين مكاتب المحامين، وتفقد راحتها وشبابها ومالها من أجل الطلاق من زوج أستعمل حقه فى أن يطلق أو لا يطلق بأرادته وحده، مستغلاً كل الأسباب المشروعة وغير المشروعة ليجعل الزوجة معلقة. لا هى مطلقة ولا هي متزوجة، لا لشئ إلا للكيد والانتقام. وأخرى منفصلة عن زوجها وتعمل فى الخارج ،وتطلب الطلاق من زوجها. وفى كل مرة تعود إلى مصر لترى أبناءها وأهلها، يجبرها زوجها على دفع مبالغ خيالية من أجل موافقته لها على السفر مرة أخرى . لدرجة جعلها تغيب عن مصر سنوات طويلة، وتعيش فى الغربة، وتقاسى الحرمان من الوطن والأهل والأبناء حتى لا تتعرض من جديد لاستغلال الزوج الجشع الذى لا يستعمل حقه الشرعى من أجل حبه لها وحرصه على الحياة الأسرية معها، وإنما من أجل المال فقط.

« ويقابل هذا النوع من الظلم . ظلم آخر ، الزوج الذى يطلق زوجته بدون أسباب قوية، لمجرد نزوة أو رغبة أو ليتزوج غيرها، ويتركها هى وأطفالها بلا مأوى وبلا مورد، مدة لا يعلم إلا الله وحده مداها ، إلى أن

تحكم لها المحكمة بنفقة لا تكفيها هى وأولادها فى أغلب الأحيان . وتضيع الزوجة الشابة بين الحاجة وبين اشفاقها على أولادها. ويصبح مصيرها في مهب الريح بين اغراءات الانحراف وبين العذاب والحيرة فى البحث عن عمل شريف، يصعب عليها إيجاده فى ظروفنا الحالية .

«وزوجة أخرى أفنت زهرة شبابها بجانب زوجها تكافح معه وتتحمل شظف العيش من أجل أن يبنى مستقبله. وبعد أن تصل إلى السن التى لا تستطيع معها بدء حياة جديدة، تجد نفسها بدون عائل اللهم إلا نفقة سنة واحدة، لا تجد بعدها حتى لقمة العيش. لا لشئ إلا ليتزوج الزوج زوجة أخرى شابة تقاسمه نجاحه الذى صنعته زوجته الأولى وأفنت فى سبيله شبابها وحياتها !!!

«أليس هناك نهاية لهذه المآسى التي نسمع عنها، وتحدث حولنا كل يوم، ولا نجد لها حلا عادلا !».

مديحة

كانت مديحة من أذكى النساء اللاتى قابلتهن فى حياتى . وهى تخرجت فى كلية البنات (علوم) ، وأشتغلت مدرسة علوم بأحدى المدارس. لكنها كانت تكره وظيفتها، وكانت تحب الرسم، وحولت حجرتها فى البيت إلي مرسم، واقامت معرضاً للوحاتها في أحد الاحياء الصغيرة بالقاهرة. تزوجت أحد الرسامين ، الذى شعرت نحوه بالحب. أنجبت منه طفلاً. م حدث الطلاق لأن زوجها كان يغار عليها لدرجة الجنون، وحول حياتها إلى جحيم مع أنها كانت تحبه. لم يكن فى حياتها رجل آخر. لم تفكر مديحة فى الزواج مرة أخرى، وتفرغت لعملها الفنى وهو الرسم، وحاولت أن تنجح فيه. لكنها شعرت منذ عشرة شهور بأرق وصداع وخفقان فى القلب. ذهبت إلي طبيب باطنى، فحولها إلى الطبيب النفسى الذى شخص مرضها بكلمة «قلق» وأعطاها بعض الأقراص. لكن

حالتها لم تتحسن. وتصف مديحة مشكلتها كالآتى :

أن كل الحياة من حولى تفرض على أن أكذب. أن أكون واحدة اخرى غيرى. أن أكون مزدوجة الشخصية. لأن المجتمع من حولى مزدوج الشخصية ومزدوج الأخلاقيات. إن مرضى النفسى وأرقى وقلقى كله سببه أننى عاجزة عن أن أكون واحدة غيرى. كل ماأطلبه هو أن أكون نفسى وحقيقتى، وأن أعبر عن ذلك بالرسم.

ولكنهم يسدون أمامى كل الطرق. نصحتنى احدى صديقاتى من الرسامات الناجحات أن أفعل مثلها، وأن أجعل النجاح هدفي (معنى النجاح هنا هو أن يفتتح الوزير معرضى وتكتب عنه الصحف). ولكننى أرى النجاح غير ذلك. أننى أحاول أن أقدم فناً جيداً رفيعاً يعبر عن حقيقة الانسان ومشاعره. كما أننى أشعر بأحترام لفنى، ولا أطيق الانتظار في مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. وتقول عنى صديقتى أننى لست اجتماعية. ولكن الرسم والقراءة وطفلى ووظيفتى التى آكل منها(وهى التدريس) كل ذلك يأخذ وقتى. ومع ذلك فأنا اجتماعية ولست منطوية على نفسى. أنا أحب الأختلاط بالناس، وبالذات الناس الذين أشعر أنهم صادقون فى مشاعرهم وأفكارهم. ولكنى لا أطيق هؤلاء الذين يحاولون التزييف أو النفاق. وهذا هو السبب الحقيقى وراء كراهيتى الانتظار فى مكاتب الوزراء وكبار الموظفين. صديقتى تقول لى أننى سوف أظل رسامة مغمورة لا يعرفها أحد (بمعنى آخر رسامة

فاشلة). ولكنى عاجزة عن أن أفعل ماتفعله هى، وعاجزة عن أكون شخصية أخرى غير شخصيتى . ولكنى أشعر بالعزلة، وأشعر بالوحدة، وأشعر أن فنى لا يصل إلى الناس. وأنا لا أرسم كى أتفرج على لوحاتى، ولكنى أرسم ليري الناس لوحاتى. ان الفنان لا يعيش إلا من خلال تفاعل الناس بأفكاره. أننى فى أشد الحاجة إلى الناس، والوصول إلى توصيل فكرتى إلى الناس يكلفنى الكثير. يكلفمى أن اتملق السلطة، وأكذب، وأصبح مزدوجة الشخصية. ان السلطة تقف بين الناس والفنان، لا يمكن ان يرى الناس لوحاتي إلا بعد موافقة السلطة، وعن طريق أجهزتها ووسائلها. وظللت أرسم بضع سنوات ثم توقفت. كنت أشعر بالاختناق حين أجلس وأتفرج على لوحاتى المتراكمة وحدى، أو مع صديقتي التى كانت تحب رسوماتى ولكنها تكره انطوائى وابتعادى عن الناس.

بعد طلاقى من زوجي بثلاث سنوات شعرت بالحب نحو رجل آخر، لكننا لم نتزوج. لقد كان نسخة مكررة من زوجي السابق. كان يقول أنه يحبنى، لكنه كان يريد أن يملكنى امتلاكاً كلياً بحيث لا أفكر إلا فيه هو. ماذا يأكل، وماذا يشرب ، وماذا يلبس؟ وكيف يستمتع بالجنس والخروج والنزها؟ كان لا يطيق أن أنشغل عنه بالرسم أو القراءة أو حتى طفلى الصغير. وكان يغار من حياتى الماضية، ومن زوجى السابق، ومن طفلى ، ومن لوحاتى، ومن أى شئ يشعر أننى أحبه، أو كنت أحبه.

وقد أراد هذا الرجل ان يسلخنى عن كل هذا، وأن يبعدنى حتى عن طفلى الذى لم يكن له أحد يرعاه غيرى. ولهذا هربت من هذا الرجل، ورفضت الزواج به. ورغم أننى كنت أشعر نحوه بميل شديد. وقد أرهقتنى هذه المشكلة نفسياً، وزادت من أرقى، وقلقى. ولم أجد الحل الا فى الاقراص المهدئة والمنومة.

ولم أشعر بالحب بعد ذلك لأي رجل. لقد أكتسبت من خبراتى السابقة فهماً لشخصية الرجل المزدوجة في مجتمعنا. أنه يفكر بطريقة، ويسلك فى الحياة اليومية بطريقة اخرى. أنه يتكلم نظرياً عن المساواة والحب والأخلاق، ولكنه ينتهك فى تصرفاته اليومية كل هذه المبادئ. ومضت اربع سنوات إلي الآن دون أن أحب أى رجل، ودون أن أمارس الجنس. لأن الجنس مرتبط عندى مع الحب. اننى أشعر بحنين جارف إلى الحب والجنس. وأشعر كالظمآن الذى لا يجد الماء . مع أننى محاطة بالرجال فى وظيفتى. ولكنهم جميعاً من النوع المزدوج الشخصية. وقد قال لى الطبيب النفسى أن أتنازل بعض الشئ عن مبادئى، وأن أعيش كما يعيش الناس ولكنى لا أستطيع . أننى لا استطيع أن أكون مزدوجة الشخصية. ولا أستطيع أن أفقد الحقيقة من أجل أى شئ، وأن كان هو النجاح كرسامة، أو النجاح كامرأة وزوجة. لكن الفشل الذى أعيشه يرهقنى نفسياً، وعدم تمكنى من عرض لوحاتى على الناس يقتلنى، وعدم اشباعى لحاجتى إلى الحب والجنس يرهقنى جسدياً ونفسياً. وأنا

لازلت أعيش في هذه الدوامة، والأقراص المهدئة والمنومة لا تفعل لى شيئاً الآن .

وحينما أزيد كمية الاقراص، أشعر بقواى الجسمية تخور وتضعف. وأعشر بالأختناق، وأحياناً بعدم القدرة علي النهوض من سريرى. وأحياناً أشك فى نفسى، وأظن أن طريقتى فى الحياة خاطئة، وأن العيب فى وليس فى الآخرين. ولكننى أتذكر طفولتى، وما كان يقوله لى أبى وأمى، وكم كانا يثقان فى وفى ذكائى، وكانا يشجعانى دائماً على الصدق، وكنت متفوقة فى دراستى. وكان أبى وأمى يمنحانى الحرية ويثقان فى. ولم أتعود أبداً على أن أكذب أو أغير حقيقتى. لدرجة أننى كنت أحكى لأبى ولأمى عن كل مايحدث لي مع زملائى وزميلاتى ولم يكن أبى أو أمى يمنعانى من أن يكون لى اصدقاء من الجنسين. بالطبع لم اتعرض لعملية الختان، وحدثتنى أمى عن الدورة الشهرية والحيض قبل أن اصل إلى سن البلوغ. وحدثتنى عن كثير من الأمور، ومنها العادة السرية. وقد كنت أمارسها قليلاً قبل أن أنام، وخاصة أيام الربيع، حين يصبح الجو دافئا بعد الشتاء، أو حين أتخيل الرجل الذى أحبه. كنت أصل إلي الأورجازم من هذه الممارسات. وقد وصلت إلى الأورجازم بسهولة مع زوجى أول الأمر، وحين كانت حياتنا لا تزال سعيدة. ولكن حينما أفسدت غيرته الشديدة حياتنا، لم أعد أصل إلى الأورجازم، ولم أعد أحب ممارسة الجنس معه. وتكرر هذا مع الرجل الذي

أحببته. أحياناً أمارس العادة السرية حين يشتد توترى الجسدى والنفسى، وأصل إلى الأورجازم، وأشعر أن التوتر زال عنى. لكنى أظل أشعر بظمأ إلى الحب والجنس مع رجل أحبه. حينما أرسم أشعر بالراحة، ولكن حينما تظل اللوحة قابعة فى ركن حجرتى المظلم أشعر بالأختناق. أنا أحب طفلى، وأشعر بالراحة حين أحتضنه وأقبله وأطعمه. ولكنى أشعر أنه لا يأخذ إلا جزءاً صغيراً من حياتى، وطاقتى النفسية والفنية. وأشعر برغبة فى إفراغ تلك الطاقة فى شئ أكبر. ليست عندي مشكلة اقتصادية، لأن مرتبى الشهرى بالاضافة إلي مورد آخر صغير من منزل تركه لى أبى يكفينى أنا وطفلى. ليست عندى مشكلة في الوظيفة سوى أننى أشعر بالملل من التكرار. ولا أشعر بلذة فى الوظيفة، أو تجديد بها. ولكنى فى حاجة إليها بسبب المرتب الشهرى ، ولأننى لا أستطيع أن أعيش اقتصادياً على الرسم وبيع لوحاتى كما يفعل الرسامين المشهورين.

هذه هى مشكلة مديحة كما عبرت هى بنفسها عنها. وقد ذهبت إلى طبيبين نفسيين للتخلص من الأرق والصداع وحالات الاكتئاب التى تصيبها. أحد الأطباء شخصها «قلق» وأعطاها الأقراص اللازمة. والطبيب الثانى حاول أن يقنعها أن المشكلة داخل رأسها هى، وأن العلاج هو اقتلاع هذه المشكلة الوهمية من رأسها عن طريق تغيير كيمياء الدماغ. وذلك عن طريق حقنها بمادة كيميائية معينة، سوف

تشعر بعدها بالراحة والسعادة وانتهاء المشكلة. ولم تقتنع مديحة بهذا الكلام ، لكنها تركت نفسها ليفعل بها الطبيب النفسى ماهو يراه. وفعلا اخذت جميع العقاقير الكيماوية التى أعطاها لها. ولكن حالتها لم تتحسن، ولم تشعر بالراحة أو السعادة.

والمشكلة كما هىّ واضحة ليست فى رأس مديحة. أنْ عقل مديحة عقل ذكى منذ الطفولة. وهى فنانة وخلاقة، وهى انسانة طبيعية تماما. وسليمة النفس والجسد والعقل. ولكن المشكلة فى المجتمع الذى يحوط بمديحة. وعلاج المجتمع لا يكون بالأقراص والعقاقير، ولكن بعلاج المجتمع ذاته من الأساليب التى تفرض على أمثال مديحة الكذب والازدواجية فى الشخصية والاخلاق.

ســوزان

هى امرأة فى الثامنة والعشرين ، مثقفة ثقافة عالية، وبعد تفوقها الجامعى سافرت إلي أوروبا في بعثة دراسية ،ثم عادت وأشتغلت فى عمل فكرى تشعر فيه بلذة وعطاء فكرى لعدد من الناس. شعرت بالحب لأحد زملائها وكان يدرس معها فى اوروبا. وقد أستمر هذا الحب (أربع سنوات خلال البعثة الدراسية. وكانت هذه المدة كافية لأن يعرف كلاً منهما الآخر معرفة كبيرة ، متنوعة، منها المعرفة الفكرية والمعرفة الجنسية. وتقول سوزان : كان رجلاً ذكياً متطور الأفكار، وكان يتعامل معى بالمثل، ويحترم حقوقى كأنسانة مثله تماماً، ويعترف بأننا متساويين فى الذكاء والعقل. وكان بيننا أيضاً توافق جنسي كبير بسبب احترامه لايجابيتى ورغباتى تماماً كرغباته، ولهذا أستمر الحب بيننا أربع سنوات.

وحينما عادا إلى مصر فكرا معاً فى الزواج. لكنها شعرت أنه متردد فى الزواج منها، وبدأت تفهم جوانب جديدة فى شخصيته. وأن عودته

إلي المجتمع الذى تربى فيه والذى نشأ فيه على تقاليد معينة، جعلته يعود إلى الإيمان بهذه التقاليد، خاصة وأنها فى صالح الرجل. لكنه كان لا يزال يحبها، وكانت لا تزال تحبه. وبرغم بوادر الخلافات الفكرية التى بدأت بينهما، إلا أن الزواج تم بينهما. وأستمر ثلاثة أعوام، ثم حدث الطلاق بعد أن أنجبت سوزان طفلاً واحداً. وعند الطلاق كانت حاملاً فى الطفل الثانى، فلجأت إلى طبيب وأجرى لها عملية اجهاض. وتقول سوزان :« خلال ثلاث سنوات الزواج حاول زوجى أن يغيرنى لأن أتقبل العلاقة بين الزوج والزوجة على أساس أن الزوج له حقوق وواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الزوجة، ولكنى لم أستطيع ولم أقبل أن أتغير».

وتحكي سوزان عن أن زوجها لم يعترف لها صراحة بأنه المسيطر، ولكنه كان يغلف ذلك دائماً بطريقة أو بأخرى .كأن يقول لها مثلاً : ماذا يقول الناس عنى؟ أنهم سيقولون أننى لست رجلاً كى أترك زوجتي تفعل ماتفعلين. ولم تكن هى فعلت شيئاً سوى أنها تصرفت بطبيعية وتلقائية فى وسط مجموعة من الأصدقاء والصديقات، وعبرت عن آرائها فى بعض الأمور، أو طلبت من زوجها أن يصنع الشاى للضيوف لأنها منهمكة فى النقاش معهم. وتقول سوزان :«فى كل مرة يأتى أصدقاء له يطلب منى أن أصنع لهم الشاى، وأصنعه عن طيب خاطر. ولكن حين يأتى أصدقاء لى، وأطلب منه أن يصنع الشاى لهم (بسبب انشغالى

معهم) يغضب، فأضطر أن أترك اصدقائى بعض الوقت لأعمل لهم الشاى».

ولم يكن زوجها يعارض في خروجها إلى العمل بالطبع. فعمل المرأة أصبح من القيم الاجتماعية السائدة، ولم يعد يتشكك الناس فى رجولة الرجل الذى يوافق على أن تعمل زوجته. بالاضافة إلى أن مرتبها كان يضاف إلى مرتبه فى الأنفاق على الأسرة. لقد كان زوجها قادراً على تقبل القيم الاجتماعية السائدة فقط، لكنه كان عاجزاً تقبل أى قيمة اخرى غير سائدة. مثل أن يصنع الزوج الشاي لضيوف زوجته، أو أن يرتدى فوطة المطبخ ويغسل الصحون مثلاً. ولم يكن لديهم شغالة مستديمة للقيام بالأعمال المنزلية. (بسبب النقص فى الشغالات عامة، وبسبب عدم وجود وقت عند سوزان أو زوجها للبحث عن شغالة) وإنما كان يأتيهم طباخ فى الصباح، يطبخ الطعام وينصرف . وكان على سوزان أن تعد المائدة وتغسل الصحون، بالاضافة إلى تنظيف البيت. وحين جاء الطفل زادت أعباؤها بالطبع. ولم يكن زوجها يمانع في مساعدتها أحياناً، لكنه كان يكره هذه الأعمال، وكان يساعدها لبضعة دقائق ثم سرعان مايمل ويكف، ويتركها هى تكمل الجزء الأكبر الباقى.

وتقول سوزان :« كنت أشعر بعدم العدلة، ففى الوقت الذى أشاركه فى الأنفاق على الأسرة، وأبذل جهداً فى عمل خارج البيت مساوياً للجهد الذى يبذله فى عمله، أجدنى في البيت أشتغل أكثر منه. وفى الساعتين

اللتين ينامهما بعد الغداء،أشتغل أنا في المطبخ بغسل الصحون وازالة التراب من فوق الاثاث».

لكن أهم ماسبب لسوزان حالة الأكتئاب التى أصابتها، والتى قادت إلى الطلاق، هو أن زوجها كان يحاول أن يغير شخصيتها وطبيعتها بحيث تتلاءم مع كونها زوجة له. وأن الزواج مؤسسة أبوية، السلطة فيها للأب (لم يقل ذلك صراحة لها، وكان يدعى أنها مؤسسة قائمة على التعاون بين الزوجين والمشاركة، لكن أعماله كانت تتناقض مع مايقوله) . مثال ذلك أن سوزان كانت من النوع الطبيعى البسيط سواء فى ملابسها أو فى تصرفاتها. لم تكن من النوع الذى يزيف وجهه بأنفعالات غير حقيقية، أو يغطيه بطبقات من المساحيق، وكانت مشغولة بعملها الفكرى عن الجرى وراء الموضات والأزياء الأنيقة من آخر طراز. وكان زوجها على خلاف ذلك. فهو من النوع الذى يحب دائماً أن يظهر بأحسن مظهر ممكن، وأن ينتمى في مظهره إلى الطبقة العالية . وكان يقول لها أن كل الناس ترتدي أقنعة حين تلتقي فى المجتمع، وأنه لابد أن يرتدى أيضاً القناع. ولكنه كان يخلع قناعه فى البيت. ولم تكن سوزان بطبيعتها تميل إلي ذلك، وترى أن تكون دائماً على حقيقتها سواء داخل البيت أو خارجه.

وكانت الخلافات بينهما تنشأ أحياناً لأنها تريد أن ترتدي الملابس المريحة البسيطة التى تحب أن ترتيديها. وكان هو يصر على أن يتدخل

في ملابسها ، ويطلب منها أن ترتدى الملابس الأنيقة اللائقة بزوجة رجل له منصب محترم، وأسرة تنتمى إلى الطبقة العالية.وخاصة فى الحفلات الليلية، حيث تتبارى الزوجات (والأزواج) فى الأعلان عن انتمائهم للطبقات العالية. وفي مرة من المرات أحتد النقاش بينهما حول الملابس التى كانت سترتديها في إحدى الحفلات. كانت تصر سوزان على ارتداء بلوزة بسيطة وبنطلون . وأصر الزوج على أن ترتدى فستاناً للسهرة كان قد أشتراه لها فى أحد سفرياته إلى أوروبا. وأنتهى النقاش بأن ذهب هو إلى الحفل وحده. ورفضت سوزان إلا أن ترتدى الملابس التى تريدها هى. كانت تقول له أنها لا تتدخل فى الطريقة التى يلبس بها، فلماذا يتدخل هو فى ملابسها ؟ وكانت سوزان تحب بعض الأشياء الصغيرة التى تذكرها بصباها وطفولتها، كأن تشترى قرطاساً من الفول السودانى مثلاً وتأكله وهى سائرة فى الشارع. وكان زوجها يستاء أشد الأساءة، ويقول لها أن مثل هذا لا يليق بوضعها الاجتماعى. وكان يشعر بالحرج حين يراها أحد من أصدقائه أو أفراد أسرته وهى تتصرف مثل هذه التصرفات ويقول لها :«ماذا سيقول الناس عنى؟». وكانت سوزان تغضب ،وتقول له :« مادخلك أنت فى هذا؟ أن الناس يجب أن تحكم عليك بتصرفاتك أنت، وتحكم على بتصرفاتى أنا» لكنه كان يرد عليها قائلاً «طالما أنت زوجتى فأن كل تصرف من تصرفاتك ينسب إلى أنا». وتشعر سوزان بالضيق وتقول له :«ولكنك الآن تقيدنى ، أنت تريد مني أن أتصرف

وفق ماتريد أنت ، وليس وفق ماتريد أنت فحسب، ولكن وفق مايريده الناس عن زوجتك ، ومعنى ذلك أن أقلد تصرفات جميع الزوجات من طبقتك الأجتماعية ،وأن ألغى شخصيتى وطبيعتى تماماً».

وأعتذرت سوزان لي وهى تحكي عن كثرة الخلافات التى كانت تنشب بينها وبين زوجها بسبب مثل هذه الأشياء، التى تبدو صغيرة جداً وليس لها قيمة. لكن سوزان أكدت لى أن مثل هذه الأشياء الصغيرة، ليست صغيرة، وليست تافهة. لأنها تحدث كل يوم. ولأنها الحياة اليومية لأى زوج وزوجته، ولأى انسان. ان من أبسط الحقوق للأنسان أن يرتدى الملابس التى تريحه (بشرط إلا يصدم مشاعر الناس بالملابس الشاذة جداً)، وأن يتصرف بحرية وتلقائية (طالما أنه لا يضر أحداً).

وتقول سوزان أن زوجها كان يقول لها دائماً أن كلمة (يضر أحداً) هذه نسبية، فأن عدم قبولها للقيم الاجتماعية السائدة في طبقتهم تضره من حيث أن الناس يقولون عنه أنه زوج غير قادر على السيطرة علي زوجته وهنا تشعر سوزان بالرغبة فى الصراخ، وتقول له : ولكنى سأضطر إلي تغيير كل صفاتي وكل شخصيتى من أجل أن تتمتع أنت وسط أسرتك ومجتمعك بلقب «الزوج المسيطر على زوجته». وتسأل سوزان زوجها هنا :« وأنا، ألم تفكر في الضرر الذى يحدث لي أنا بسبب محاولتك قتل شخصيتى الحقيقية» .ويرد زوجها قائلاً :« نحن لا نعيش وحدنا. أننا نعيش وسط مجتمع».

وبهذا شعرت سوزان أن زوجها يريدها أن تخضع لقيم المجتمع السائدة. وكانت هى ترفض هذا الخضوع، وتشعر أنها تخون نفسها وتخون عقلها لو أنها فعلت مالا تؤمن به، أو ماتشعر بأنه العدالة. وكانت ترى أن العدالة هى أن يكون من حقهاً أن تتصرف وتلبس وتفكر بما تراه مناسباً لها.

ومما زاد من شدة الصراع بين سوزان وزوجها أن سوزان نشأت في أسرة متحررة نوعاً ما، وأن أباها كان رجلاً مفكراً متقدماً لا يفرق فى المعاملة بين بناته وأولاده. وكانت سوزان اكبر اخوتها البنات والبنين. وكانت أمها قد توفيت وهى طفلة، فمارست سوزان مسؤولية الأم إلي حد ما. وبسبب تحرر أبيها وأتساع أفقه، فقد شعرت بشخصيتها. وكانت تتصرف بحرية. وكان أبوها يشجعها على أن تكون طموحة فكرياً، وساعدها أيضاً ذكاءها علي أن تتفوق في دراستها، ووجدت فى مكتبة أبيها الفرصة للقراءة وتوسيع أفقها.

أما زوجها فقد نشأ فى أسرة ثرية، والده رجل أعمال وصاحب مصنع. ولا يهمه من حياته إلا الربح المادي بأى شكل. وأمه كانت من الطبقة الأرستقراطية التى تعلمت قليلاً من الفرنسى وقليلا من البيانو، ثم باعها أهلها بأسم الزواج لهذا الزوج الرأسمالى الثرى. وكان له ثلاث أخوات بنات تعلمن فى مدرسة فرنسية ثم تزوجن لأزواج أثرياء من أصحاب الأرض أو أصحاب المصانع. وهكذا تأثر زوجها بقيم هذه الأسرة

الرأسمالية الثرية والجاهلة، والتى تعيش لتأكل أفخر أنواع المأكولات، وترتدى أفخر أنواع الملابس، ولا يكون دور النساء فيها إلا الاستهلاك الشديد فقط (كل نساء أسرته ليس لهن عمل لا داخل البيت ولا خارجه). أما رجال أسرته فهم مشغولون ليل ونهار في مصانعهم وفى تجميع أكبر قدر من الأرباح ورأس المال.

وكان زوج سوزان مختلفاً عن رجال أسرته في أنه تعلم تعليماً عالياً، وسافر إلى الخارج فى بعثات متعددة. وكان متفوقاً فى عمله الفكرى، ولم يكن يهتم كثيراً بالمال مثلهم، ولكنه كان متأثراً إلى حد كبير يقيم أسرته، يقيم وزنا كبيراً لكلام أمه. وكانت أمه حين تقارن بين سوزان وبين بناتها من ناحية الأناقة والأهتمام بالبروتوكول الأجتماعى، تجد أن ابنها كان يستحق زوجة أفضل. ولم تكن مثل هذه الام بطبيعة الحال تقدر أى صفة فكرية فى سوزان، لأن الزوجة فى رأيها لا تقاس بالفكر، وإنما تقاس بالشكل الخارجي والأناقة والجمال. وكانت سوزان مشغولة دائماً بسبب عملها الفكرى وقراءاتها. وكانت الأم تغضب من ذلك، وتقول لأبنها دائما : «لقد تزوجت رجلاً وليس امرأة».

وتبتسم سوزان بمرارة وتقول أن زوجها كان يتأثر بكلام أمه ، وكان على استعداد لتقبل فكرة أنها رجل وليست امرأة، لو لا تلك العلاقة الجنسية الناجحة بينهما ، والتى كانت تؤكد له أن سوزان امرأة. وكان الجنس يلعب دوراً كبيراً فى استمرار الحياة الزوجية بينهما ، رغم الخلافات

الكثيرة للأسباب السابقة وماشابهها .

وتقول سوزان أن نجاح الجنس بينهما كان بسبب أنها كانت ايجابية، وكانت تتصرف معه بحرية. وأنها كانت تحبه، وتشعر أنه يحبها رغم كل الخلافات. وكانت سوزان تصل إلى الأورجازم بسهولة وعدة مرات، ولم تكن تشعر بأى حرج مع زوجها. وقد جاء ذلك من تربية أبيها المتحررة لها، ومن اختلاطها المبكر بالجنس الآخر وحياتها فى أوروبا سنوات طويلة، وعدم احساسها بأن اللذة الجنسية أثم أو عيب. وبالطبع لم تتعرض سوزان لعملية الختان، أو التربية الصارمة لقمع شخصية البنت، لأن أمها توفيت وهى طفلة، ولأن أباها كان متحرراً ، ولم يكن يفرض عليها القيود المعتادة.

وتقول سوزان أن زواجها أمتد ثلاث سنوات بسبب الحب والثقة المتبادلة بينهما . وبالرغم من أن زوجها كان يعلم أنه ليس الرجل الأول فى حياتها العاطفية والجنسية إلا أنه كان يثق فى أنها انسانة صادقة، ولم يكن يشك فيها أبداً من هذه النواحى، لأنه كان متأكداً من حبها له. وفعلا كانت سوزان تحبه. ولم تكن من نوع النساء الذى يمكن أن يكذب على الزوج أو على الآخرين، كانت تشعر أنها في غير حاجة إلى الكذب، وقد رباها أبوها على أن تكون صادقة دائماً.

وكانت سوزان رغم اعتزازها بشخصيتها على استعداد دائماً للعطاء والحنان. لكنها لم تكن تؤمن بالتضحية الدائمة من جانب الزوجة، والأخذ

الدائم من جانب الزوج. كانت تريد الحياة الزوجية تبادلاً في العطاء والأخذ. لكن ذلك كان مستحيل الحدوث فى ظل القيم الاجتماعية السائدة التى تفرض عليها أن تضحي بكل شئ كبير وصغير فى حياتها وشخصيتها من أجل زوجها. ولم يكن زوجها (بتربيته وأسرته وعدم قدرته على الصعود فوق القيم السائدة) قادراً على تحمل ماتسببه تصرفات سوزان الطبيعية واعتزازها بحريتها وشخصيتها من حرج ومشاكل بسيطة، لا تزيد عن موضوع الرجولة ومفهومها السائد من حيث السيطرة وحكم الزوجة. وكانت هناك أيضاً الخلافات حول المشاركة فى الأعمال المنزلية، أو فى رعاية الطفل، ومحاولة زوجها القاء كل هذه الأعباء عليها وحدها.

أما كيف حدث الطلاق، فتقول سوزان أن الخلافات اليومية أصبحت تزيد بينهما ، حول اللبس والأكل والطفل والخروج والحفلات وزيارة أسرته ، إلى حد أن ذلك أصبح يؤثر على حبهما وعلى علاقتهما الجنسية. وتقول سوازن :

«بعد مشاجرة من هذه المشاجرات حول رأى أمه فى لم أشعر برغبة جنسية فى تلك الليلة، لكنه أصر على أن يحدث الجنس ليحدث الصلح ككل مرة، لكننى هذه المرة عجزت عن أن أشعر بأية رغبة جنسية نحوه، وحدث الجنس من طرف واحد فقط، وتكرر ذلك، وأصبحت شبه باردة جنسياً معه، وصارحته بالأمر. وبدأت أشعر أن حياتنا معاً أصبحت

مهددة، لعدم المشاركة فى أى شئ، سوى بعض القراءات والأفكار المشتركة العامة المجردة. لكن حياتنا العملية اليومية أصبحت تتباعد . وأصبحت أشعر بحالات الأكتئاب، وأرق ، وقلق، وبدأت فى ابتلاع الأقراص المنومة والمهدئة، لكن حالتى لم تكن تتحسن».

وسألت سوزان :« فكيف حدث الطلاق؟ ».

وقالت :« فكرت فى الطلاق حين وجدت نفسى وحيدة فى البيت مع طفلنا وقراءاتى، وأصبح زوجى يخرج ويسهر فى بيت أسرته مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات، الذين لم أكن أشعر بتجاوب فكرى معهم، وأشعر بتفاهة أحاديثهم. وبأتصاله المتكرر بأسرته، والجو الاجتماعى الذى يعيشون فيه. أصبح أكثر شبهاً بهم، وأكثر حرصاً على التكيف مع قيمهم وبذلك زادت بيننا الخلافات إلي حد أن قلت له فى يوم أن زواجنا لم ينجح، ومن الأفضل أن نواجه الأمر بدلا من الهروب من الحقيقة.

ووافقنى زوجى على ذلك، وتم الطلاق بهدوء شديد. وبالطبع أخذت الطفل معى، ولم يطلب هو أن يأخذه.

وسألتها :« هل تحسنت حالتك النفسية بعد الطلاق ؟ »

قالت سوزان :« نعم ، زال عنى الأرق، والقلق ، لكن ماهى إلا بضعة شهور وأصبحت مواجهة بمشاكل اجتماعية كثيرة هى مشكلة المرأة المطلقة في مجتمعنا. وكان على أن أصارع المجتمع مرة أخرى ،ولكن وحدي هذه المرة. وبدأ الأرق يعاودنى، وحالات الاكتئاب، ولم أعد

أستطيع أن أنام بغير الأقراص المنومة».

سألتها :« وماذا عن عملك الفكرى ، هل يرضيك ؟ »

قالت :« لولا عملى الفكري الذى يعوضنى كثيراً ويؤكد لي قدرتى، لفقدت عقلى تماماً. أو فكرت في الأنتحار يأساً من حياتي فى مثل هذا المجتمع . لكن الظروف التى أعيشها تعطلنى كثيراً، وتجهدنى. فإذا بى فى حالة من الأرهاق النفسي يجعلنى عاجزة عن اعطاء علمى حقه من التفرغ والاثراء المستمر. وهذا أيضاً يشقينى ويعذبنى. ولكنى أدور فى حلقة مفرغة، وأحس أننى أصارع قوة ضخمة أكبر منى بكثير، وأحيانا أتساءل أليس أبي هو المسؤول عن شقائى لأنه عودنى على أن أكون مستقلة حرة وصادقة فى مجتمع لا يحب فى المرأة إلا الكذب والخداع وعدم الاستقلال».

وأكدت لسوزان أنها كانت محظوظة ليكون لها مثل هذا الأب المتحرر الواسع الأفق، وطلبت منها أن تكف عن الأقراص المنومة والمهدئة، وأن تصمم بينها وبين نفسها على الاستمرار فى الكفاح من أجل تفوقها في عملها الفكرى ، وتنمية قدراتها فى عملها وفى عطائها الفكرى للناس، مما ينورهم ويساعدهم على تغيير القيم المتخلفة. وأن تفتح ذراعيها للحياة، وتعيش وتسعد وتتصرف بتلقائيه وحرية، وأن ترتدى الملابس التى ترتديها، وتصادق الناس الذين تريد أن تصادقهم، وتأكل الفول السودانى كما يحلو لها وهى سائرة فى الشارع، وأن تشترى الكتب التى

تحبها، وتقرأ ، وتفكر ، وتنتج . وتكون الأنسانة الطبيعية الصادقة. وإذا أحبها رجل كما هى فلتتزوج، وإذا أراد أن يضعها فى قالبه فلترفض.، وليكن زواجها السابق خبرة كبيرة لها، وتجربة تساعدها على فهم الحياة والناس ، تجعلها أكثر تمسكا بمبادئ الصدق لا العكس.

واختفت سوزان شهوراً طويلة، ثم قابلتها صدفة فى الطريق، وأحسست من نظراتها اللامعة وحركتها النشيطة أنها تغلبت على الأزمة. وشدت على يدى وهى تصافحنى، وقالت : « لقد قذفت من نافذة حجرة نومى بكل علب الأقراص المنومة وصممت على أن أكون قوية وشجاعة وصادقة. وأنا أستعد للسفر مرة أخرى فى بعثة قصيرة إلى غينيا ». وتألقت عيناها بالحماس وهى تقول :« هذه أول مرة أزور فيها افريقيا ، وأشعر بشوق كبير لرؤية هذه البلاد ».

وتركتنى سوزان واتجهت إلى مكتب شركة الطيران. وأحسست أن حياتها أصبحت مليئة ومتجددة وأنها أصبحت تعطى لعملها الفكرى اهتماماً أكبر، وأنها وضعت قدمها علي الطريق. وتخيلتها وهى تلتقي بالرجل الصادق مثلها ، الذى يستطيع أن يقدر صدقها ويحترمها فتعيش معه. أو أنها لا تعثر عليه أبداً. فلا تشعر بالفشل أو الاكتئاب، ولا تتعاطى الأقراص المنومة أو المهدئة، ولكنها تجد فى عطائها الفكرى للناس مايسعدها ، ومايعوضها عن أي شئ آخر. والحياة بغير زواج أفضل من الحياة فى ظل زواج فاشل وغير سعيد.

فاطمة (أ)

فاطمة فى العشرين من عمرها، طالبة بكلية الآداب قسم فلسفة، ذكية تقضى معظم وقتها فى قراءة الفلسفة والتاريخ والأدب وعلم النفس. وتفتح عقلها على مفاهيم جديدة تماماً عليها، متناقضة تماماً مع القيم التى تربت عليها فى أسرتها . كانت أسرتها إحدي أسر الطبقة المتوسطة، أبوها كان مدرساً للجغرافيا بأحد المعاهد المتوسطة. وأمها فى البيت ، ولها أربع بنات كبراهن هى فاطمة. وكان الأب من النوع المتدين، الذي ورث التدين عن أبيه كما ورث البيت الذي يعيش فيه. ورغم أنه مدرس، إلا أنه لم يقرأ شيئاً خارج ذلك المقرر المحدود الذي يدرسه للتلاميذ فى الجغرافيا. ورغم تدينه الشديد، إلا أنه كان جاهلاً بالدين، لأنه لم يقرأ فيه إلا تلك المعلومات الأولية التى يعرفها جميع الناس، والتى لا تساعده إلا على أداء الفرائض. أما حقيقة الدين وجوهره، فلم يكن يعرف عنه شيئاً. وكان كمعظم الآباء (وبالذات آباء البنات)

متزمتاً، يخاف على بناته من الفساد الأخلاقى الذي يعتقد أنه منتشر. والذي يري مظاهره فى الرقصات الخليعة فى السينما والتليفزيون، وصور النساء نصف العارية فوق أغلفة المجلات. وقد فرض الأب على ابنته الكبري فاطمة أن تواظب على الصلاة وهى طفلة فى السابعة من العمر. وكان يحذرها من الإختلاط بالأولاد. وكانت فاطمة تلميذة مجتهدة فى المدرسة الإبتدائية، لكنها كانت ضعيفة جداً فى الحساب. فأتى لها أبوها بمدرس للحساب فى البيت (وهو أحد زملائه المدرسين فى المعهد)، وكان هذا المدرس يشرح لها الحساب، لكنها كانت تحس أصابعه أحياناً فوق فخذها، وأحياناً تصعد أصابعه إلى فوق. ومن شدة الخزي والحياء والخوف، كانت تستسلم لأصابعه استسلاماً كاملاً، وأحياناً تشعر باللذة التى سببت لها إحساساً أليماً بالذنب، ورغم أنها كانت تصلى، وتطلب من الله أن يغفر لها، إلا أن الإحساس بالذنب كان يؤرقها كثيراً.

وحصلت فاطمة على الإبتدائية، ولم يعد مدرس الحساب يأتى إليها. وتنفست الصعداء. لكنها وهى فى الثالثة عشر أو الرابعة عشر كانت تمارس العادة السرية أحياناً، وتشعر بلذة، ويعقبها ذلك الإحساس الأليم بالذنب، والذي لا يضيع بالصلاة والصوم وطلب المغفرة من الله.

وحين حصلت فاطمة على الثانوية العامة، لم يمنعها أبوها من دخول الجامعة لأنها كانت تحب التعليم والقراءة، ولأن أحداً لم يتقدم للزواج منها. وكان الأب يحمل هم أربع بنات، ويتمنى لو رزقه الله بأربعة

عرسان لهن ليزوجهن وينتهى من عبئهن. لكن أحداً لم يتقدم. ودخلت فاطمة كلية الآداب وبدأت تقرأ كتب الفلسفة. وكان أبوها يفرض عليها أن ترتدي طرحة تخفى تحتها شعرها، وترتدي أكماماً طويلة صيف شتاء، ولم تكن فاطمة تختلط بزملائها فى الكلية. كانت تتصور أن مصافحتها للرجال حرام، وأن صوتها عورة، وكانت بعد انتهاء المحاضرات تسرع إلى البيت دون أن تكلم أحداً. كانت حياتها تنحصر فى المذاكرة والقراءة والصلاة.

لكنها بعد سنتين فى الجامعة، شعرت بالميل نحو أحد زملائها، وتصورت أن هذا الزميل يخصها بنوع من الإهتمام. كان يبتسم حين يراها فى الفناء. أو يقول لها صباح الخير، فيحمر وجهها وترد عليه بالتحية. وبدأت فاطمة تعيش حباً صامتاً لهذا الشاب، وتغذيه بأحلامها وخيالاتها. ولم تجرؤ على أن تصرح له بهذا الحب، بل كانت تختلس إليه النظرات من بعيد. وفى الليل تحلم أحلاماً جنسية تسبب لها فى النهار إحساسا طاغياً بالذنب. وفوجئت فاطمة فى يوم أن هذا الزميل قد خطب زميلة أخري. وتصورت أنه خانها. وأصيبت بصدمة عنيفة، جعلتها تبكى وحدها وهى فى سريرها. وحين تصلى تطلب من الله المغفرة على ذنوبها. وكانت ذنوبها أنها تخيلت كثيراً أن هذا الشاب يقبلها ويمارس معها الجنس فى أحلامها.

وفى يوم كانت فاطمة تصلى، فإذا بها بدلاً من أن تسبح بحمد الله،

تبدأ فى توجيه اللوم إلى الله، بل أكثر من اللوم. كلمات عنيفة قاسية لا يمكن أن يوجهها أحد إلى أحد، فما بال الله. وأرتعدت فاطمة من الذعر، وحاولت أن تمنع نفسها لكنها لم تستطع. كانت هذه الألفاظ تسيطر عليها ولا تستطيع منعها. ومن شدة الذعر، كانت تبدأ إلصلاة مرة أخري، وتستغفر الله على ما بدر منها من ألفاظ وأفكار سيئة. لكنها بعد الإستغفار تجد نفسها فريسة مرة أخري لهذه الأفكار والألفاظ غير اللائقة. والغريب أن هذه الألفاظ تحولت بعد أيام قليلة إلى أفعال. وأصبحت فاطمة فريسة لأحلام جنسية مفزعة، تُفرّض عليها فرضاً بقوة قاهرة لا تستطيع منعها. ولم تكن هذه الأفعال تحدث إلا مع الله، الذي كان يتجسد أمامها أحياناً على شكل رجل. ومن شدة الفزع كانت تبكى، وتلعن نفسها، وتتهم نفسها بسوء الخلق والفساد، وتكثر من الصلاة. حتى أصبحت تصلى نصف النهار. لكن الصلاة أصبحت ترعبها أيضاً، لأن الأفكار السيئة كانت تغزوها أثناء الصلاة ذاتها.

ولم تستطع فاطمة أن تحكى مشكلتها لأبيها أو لأمها. وحينما بدأ الهزال والشحوب يظهر عليها، أدركت أنها أصبحت عاجزة عن النوم، وعذبها الأرق والبكاء، لجأت إلى الطبيب الباطنى فى عيادة الجامعة. ولم تستطع بالطبع أن تحكى حقيقة المشكلة، لكنها قالت له أنها تشعر بصداع دائم ولا تنام. وحولها الطبيب الباطنى إلى الطبيب النفسى. ولم تستطع أن تحكى له حقيقة المشكلة. كانت ترتعد كلما أنفرجت شفتاها

لتقول كلمة «الله» وتصورت أن ما يحدث لها جريمة لا تغفر، وأن أي أحد سيسمعها، سيتهمها بأفظع الأشياء. وأعطاها الطبيب النفسى بعض الأقراص المهدئة والمنومة. ولم تشعر فاطمة بأي تحسن، وأصبحت حياتها جحيماً. ولم تعد قادرة على المذاكرة أو القراءة. وفى إحدي الليالى، وبعد أن عاشت أكثر من ساعة فريسة لتلك الأفعال والأفكار اللاارادية المنكرة، فكرت فى الإنتحار. وأبتلعت جميع الأقراص الباقية فى الزجاجة. وكادت تموت، لولا أن أمها حملتها بسرعة إلى المستشفى، حيث عملوا لها غسيل معدة، وانقذوا حياتها. وعادت مع أمها إلى البيت.

لكن أسرتها هبت من نومها فزعة ذات ليلة على صوت صرخة عالية، ورأوا فاطمة ملقاة على سجادة الصلاة، والطرحة حول رأسها، تهذي بكلمات غير مفهومة، فحملوها إلى المستشفى النفسى، حيث تلقت الجلسات الكهربية.

وسألتنى فاطمة بصوتها الضعيف الخائر : ماذا أفعل يا دكتورة ؟ إنهم يمنعونى من الموت.

وسألتها : ألم تتحسنى بعد مجيئك إلى المستشفى ؟

قالت : لا. لقد زادت حالتى سوءاً. وبعد أن كانت الأفكار السيئة تراودنى مرة أو مرتين فى اليوم، أصبحت تراودنى ثلاث وأربع وخمس مرات. ولا أدري ماذا أفعل ؟

نظرت إلىّ فاطمة بعينين مذعورتين. وسألتها وأنا أنظر داخل عينيها : ماذا يفزعك يا فاطمة ؟

قالت : يفزعنى عذاب الله.

قلت لها : أن الله لن يعذبك .

نظرت إلىّ فى دهشة وقالت : كيف أننى بنت منحطة، وسوف يحرقنى الله.

قلت لها : لست بنتاً منحطة.

فسألت بسرعة : وهذه الأفكار السيئة يادكتورة ؟

قلت : يمكنك التخلص من هذه الأفكار لو أستطعت التخلص من إحساسك بالذنب . أنك لست مذنبة يافاطمة.

سألت : وهذه الأفكار ؟

قلت : أنها لا تراودك وحدك . بعض الناس تراودهم هذه الأفكار نفسها بسبب التزمت والتخويف والكبت.

أتسعت عيناها بدهشة وقالت : لا أظن أن هناك من يراوده مثل هذه الأفكار.

وحكيت لفاطمة عن بعض الحالات من الفتيات اللاتى قابلتهن، واللاتى كن يعانين من المشكلة نفسها. وشرحت لها أسباب ذلك.

إن الإحساس الشديد بالذنب الذي عانته فى طفولتها بسبب مدرس الحساب، ثم بسبب ممارسة العادة السرية، ثم يسبب الأحلام الجنسية،

أرهقها نفسياً.خاصة، وأنها تعيش فى جو من القيم والتقاليد التى تتناقض تماماً مع ما يحدث لها فى أعماقها. لقد وقعت فاطمة فريسة التناقض بين الواقع الذي يفرضه عليها جسدها، وبين النظرية التى يفرضها عليها أبوها والمجتمع من حواها. ولا شك أن قصة حبها الصامت ومن طرف واحد، تدل على أنها فى حاجة ماسة إلى تبادل الحب مع الرجل. لكن القيم النظرية داخل رأسها كانت تمنعها من ممارسة الحب أو الإعتراف به، وهذا جعلها تختزن عواطفها كالبخار المضغوط داخل نفسها. وكان لا بد أن يأتى يوم وتنفجر نفسها كبركان لأقل هزة، وقد حدثت هذه الهزة حين خطب هذا الشاب (الذي أحبته ومارست معه كل شئ فى أحلامها) فتاة أخري غيرها. إن رد الفعل لهذا الحدث كان شديداً، بسبب شدة الشئ المخزون داخل فاطمة.

ولم يكن لفاطمة أن تشفى من حالتها إلا إذا أصبحت واعية بهذه الأشياء :

١ - إن اللذة التى شعرت بها وهى طفلة (بسبب المدرس) أو بعد ذلك (بسبب العادة السرية) كانت إحساساً طبيعياً، وما كانت لتسبب لها أي ضرر، لولا الإحساس بالذنب الذي صاحبها، والذي كان له تأثير ضار على نفسيتها.

٢ - أن الأحلام الجنسية التى كانت تعيشها كانت أحلاماً طبيعية. وما كانت لتسبب لها أي ضرر لولا ذلك الإحساس بالذنب الذي صاحبها.

٣ - أن حبها لذلك الشاب كان شيئاً طبيعياً، وكان يمكن أن يكون أكثر صحة لو أنها غذته بالحقيقة والواقع بدلاً من الخيالات. وربما لو عرف هذا الشاب أنها تحبه لأحبها، ولكنه كان يجهل بالطبع أنها تحبه، ولذلك لا يمكن أن نعتبر خطوبته لفتاة أخري خيانة لها.

٤ - إن الإحساس بالذنب، والكبت، والتناقض، والخوف الشديد من عقاب الله ، هو الذي أدي بها إلى تلك الحالة العكسية التى أصابت علاقتها بالله . ولا بد لها أن تدرك أنها غير مذنبة، وأن الله لن يعاقبها، وأنها ليست الوحيدة التى تشعر بما شعرت به، وإنما هناك الكثيرين غيرها.

ولم يكن من السهل بطبيعة الحال إقناع فاطمة بهذه الحقائق، ولكنها شعرت بإرتياح شديد، وتنهدت وهى تقول : لقد كنت أتصور أننى فتاة منحطة الخلق، فاسدة. وكنت أظن أننى الفتاة الوحيدة على ظهر الأرض التى حدث لها ذلك. وكلما كنت أؤكد لفاطمة أنها ليست الوحيدة التى حدث لها ما حدث، وأنها فتاة ذكية، وأخلاقها طيبة، وليست منحطة، وأنها تستحق كل خير من الحياة، كلما كانت تشعر فاطمة بالإرتياح. وطلبت منها أن تتطلع إلى المستقبل، وأن تضع لنفسها هدفاً فكرياً تحققه بقراءاتها ودراستها.

وقد قابلت والد فاطمة وشرحت له حالة ابنته على حقيقتها، والأسباب الحقيقة . ولم يكن هذا الأب منغلق الذهن تماماً، وكان قد بدأ يلمس

الراحة والتحسن فى عينى ابنته . وبدأ الأمل فى شفاتها. وبسبب ذلك أنصت إلىّ بذهن مفتوح، وأقتنع بما شرحت له، وطلبت منه أن يساعدنى من أجل شفاء ابنته.

وفعلاً ساهم هذا الأب فى شفاء ابنته. فقد أكد لها أنها غير مذنبة، وأن إحساسها بالذنب لا أساس له. وأن أحداً لَنْ يعاقبها. وأن من حقها أن تحب، وأن تشعر برغبات جنسية. وقد كان لوقع هذه الكلمات من الأب نفسه فعل السحر فى نفسية ابنته، التى بدأت تشعر كأن عبئاً ثقيلاً ينزاح عن قلبها، وقالت لى فى إندهاش وراحة، لم أكن أتصور أن أبى سيقول لى هذا الكلام فى يوم من الأيام.

وساعد هذا الأب ابنته على الخروج من المستشفى، أنتظمت فاطمة فى دراستها مرة أخري. وجاءنى صوت أبيها فى التليفون ذات يوم يقول فى سعادة :

- تصوري يا دكتوره لقد نسيت تماماً هذا الشاب الذي سبب لها الصدمة. لم أكن أتصور أنها ستنساه ، لقد كانت تهذي بإسمه طول الليل.

قلت له: هذا الشاب لم يكن السبب الحقيقى فيما حدث لفاطمة. أنه كان القشة فحسب التى قسمت ظهر البعير. أما السبب الحقيقى فهو الخوف الدفين منذ الطفولة. أو أن فاطمة وهى طفلة، حكت لأمها أو أبيها عن حكاية مدرس الحساب، أو عن العادة السرية. ولو أن أمها (أو

أباها) طمأناها وشرحا لها حقائق الحياة ، لما دخلت فاطمة فى تلك الحلقة المفرغة من الخوف والكبت. ثم الإحساس العنيف بالذنب، الذي تفجر في النهاية على شكل المرض النفسي.

سهير

دق جرس التليفون فى منزلى الساعة السادسة صباحاً، وجاءنى صوت فتاة مضطربة وخائفة، وتطلب منى المجئ إليها فوراً.

وسألتها : أين أنت ؟

قالت :مستشفى العباسية .

سألتها :ما أسمك، وفى أي قسم ؟!

قالت : سهير .... فى قسم ....

ركبت سيارتى الصغيرة، وطوال الطريق من الجيزة إلى العباسية وأنا أفكر فى أمر تلك الفتاة. ولا بد أن الأمر خطير ، حتى تطلبنى بالتليفون فى هذا الوقت المبكر،خاصة وأننى لست من أطباء المستشفى.

ولا بد أنها بذلت جهداً كبيراً فى التمكن من استخدام تليفون المستشفى فى ذلك الوقت، وأنا أعلم حال التليفونات فى المستشفيات العامة فما بال تليفونات المستشفيات النفسية. ولا بد أنها دفعت شيئاً

للتمورجى النبوتجى، أو تنازلت له عن طعامها ، أو نفذت أوامره ومسحت العنبر بدلاً منه (إذا لم تكن تملك شيئاً تدفعه له).

حين دخلت المستشفى من باب الحديقة الخلفى، رأيت بعض المريضات بملابسهن البيضاء جالسات على الحشيش. ونهضت واحدة حين رأت العربة، وأقتربت منى.

قائلة : معك ثلاثة قروش ؟

سألتها : نعم، لماذا ؟

قالت : سأشتري قطعة حلاوة .

وتقدمت واحدة أخري منى تقول : معك سيجارة. وجاء رجل عجوز له عينان واسعتان حزينتان ، وقال لى : أعطنى قرشاً.

ولم أدهش بالطبع، فأنا أعرف من زياراتى لهذا المستشفى، ولغيره من المستشفيات النفسية (وغير النفسية) كم يجوع المرضى والمريضات، وبالذات هؤلاء الذين لا أهل لهم، أو الذين تخلى عنهم أهلهم بسبب طول المرض (مشاعر الأسرة والأهل تجاه الابن أو الابنة المريضة تظهر على حقيقتها). أو الذين لهم أهل فقراء لا يرسلون إليهم طعاماً بصفة منتظمة، أو حتى بصفة متقطعة.

تركت عربتى تحت شجرة أمام المبنى الرئيسى للمستشفى، وسرت نحو المبنى الآخر حيث القسم الذي به «سهير». حين دخلت المبنى لفح وجهى على الفور هواء رطب بارد له رائحة عفنة كرائحة حظائر الماشية

فى بيوت الفلاحين فى قريتنا. ورأيت بعض المريضات جالسات على الأرض، وأمامهن أكواز من الصفيح. وعرفت أنهن يشربن الشاي، وهذا الشاي المغلى عدة مرات (لأستخدامه أكثر من مرة) يعد ترفاً تحظى به المريضات القادرات على دفع ثمنه للتمورجية.

كانت سهير راقدة فى عنبر (يشبه إلى حد كبير العنابر التى رأيتها فى سجن النساء بالقناطر) وسريرها عليه مرتبة رفيعة ممزقة فى أجزاء، ويخرج منها القطن. والملاءة بلون التراب. وإلى جوارها على رف النافذة رغيف أسود، وبقايا عدس فى صحن نحاس، تجمع حوله عدد من الذباب والصراصير السوداء الصغيرة (تذكرت على الفور المناظر التى رأيتها فى سجن القناطر).

جلست على طرف السرير، وفى مواجهتى وجه «سهير» الشاحب بملامحها الدقيقة، وعيناها الواسعتان لها نظرة فاحصة ذكية.

قالت لى بصوت هادئ : ألا تذكرين يادكتوره ؟

قلت لها : يخيل إلى أننى رأيتك من قبل .

قالت : نعم، منذ عامين، حين جئت إلينا فى ندوة فى كلية طب شمس.

قلت : أنت طالبة بكلية الطب ؟

قالت : نعم ، فى السنة النهائية.

قلت : وكيف جئت إلى هنا ؟

قالت : أنا لم أجئ . هم الذين أتوا بى إلى هنا .

قلت : من؟

قالت : أهلى ،وأبى وزوجته.

سألتها : لماذا ؟

قالت : سأحكى لك كل قصتى، ولكننى لجأت إليك اليوم لتساعدينى فى الخروج . فالأمتحان بعد أسبوع واحد، وأريد أن ادخله حتى لا تضيع على السنة. لقد ذاكرت وأنا هنا، ولا أريد أن أتخلف عن الإمتحان. إن تخرجى من الكلية سوف ينقذنى من أبى، وأستطيع أن أعول نفسى، وأعيش وحدي بعيداً عن أسرتى.

وطلبت من سهير أن تترك سريرها، وأن تهبط معى إلى فناء المستشفى لنجلس فى الهواء الطلق وأسمع قصتها. كنت قد شعرت بآلام فى رأسى وجسمى من الرائحة العفنة داخل العنبر، والمنبعثة من جسد امرأة ترقد على السرير المجاور لسرير سهير.

وجلسنا فى الفناء، وبدأت سهير تحكى قائلة: كنت فى السادسة من عمري حين رأيت أبى يضرب أمى ، ويصرخ قائلاً لها : أنت طالق . ولم أعد أري أمى، وتزوج أبى من امرأة (هى أخت زوجة عمى)، وأصبح عمى يزورنا مع زوجته كثيراً. وفى يوم كنت أطعم الفراخ فوق سطح المنزل، حين دخل عمى ورائى العشة ، ورفع عنى ملابسى وهو يهمس بصوت غريب قائلاً : لا تخافى . كنت فى حوالى السابعة من العمر ،

ومن شدة الذعر لم أستطع أن أقول لأبى (بسبب قسوته الشديدة علىّ، دائماً يقول أننى أشبه أمى). ولكنى قلت لزوجة أبى، وكانت تظهر لى بعض العطف أحياناً. ولكنها صفعتنى على وجهى ، وقالت بغضب : لا تقولى هذا الكلام المسئ إلى عمك يا بنت ! أنه رجل فاضل ، ويحب زوجته، وزوجته تحبه، فلا تفسدي حياتهما بهذه الخيالات التى تتوهميها. وكنت طفلة، وصدقت زوجة أبى أن الذي حدث لم يكن إلا خيالاً توهمته. لكن عمى كرر ما فعله مرة ثانية. وفى هذه المرة أدركت أشياء لم أكن أدركها فى المرة السابقة. وقال عمى يهددنى : لا تقولى لأحد وإلا ذبحتك ! وأصبحت أخاف من الصعود إلى عشة الفراخ فى السطح. وضربتنى زوجة أبى مرة لأصعد وأطعم الفراخ ، لكنى رفضت. فظلت تضربنى حتى سال الدم من أنفى، فصرخت وقلت لها : لا أريد أن أصعد ! فصرخت : لماذا؟ فصرخت وأنا أبكى : أنه يصعد ورائى ! فصرخت : من ؟ فقلت لها : عمى ! فنظرت إلىّ فى استنكار، وصفعتنى على وجهى وهى تقول : أنت مجنونة ! سأقول لأبيك ليضربك. وكنت أخاف من أبى، لأن ضربه كان شديداً. وكان يضربنى على رأسى وكأنه يريد أن يقتلنى. فرجوتها ألا تقول له شيئاً، وأخذت أكل الفراخ وصعدت إلى العشة وأنا أرتعد خوفاً. ولم يجئ عمى. وعرفت أنه مريض، ثم مات بعد بضعة شهور. وفرحت حين علمت بموته فرحاً شديداً .وكنت فى حوالى العاشرة من عمري. وأرتدت زوجة أبى

السواد، ورغم أننى كنت صغيرة، إلا أنها أتت لى بفستان أسود لأرتديه، فرفضت، وضربتنى وهددتنى بأن تقول لأبى إذا لم ألبس الفستان الأسود. وأضطررت إلى ارتدائه.

وأصبحت زوجة أبى تفرض علي أشياء كثيرة وتهددنى. وأصبحت أشعر أننى أسيرة لها. ووضعت كل همى فى المذاكرة. وكان لى أبن خالة يكبرنى بخمس سنوات، وكان يزورنا أحياناً. وكنت أحكى له عن قسوة أبى وزوجته، فكان ينصحنى بالمذاكرة ودخول المدرسة الثانوية مثله، ثم نشتغل فى أي عمل ونهرب من أهلنا. وكان هو أيضاً يعانى من قسوة أبيه. وفعلاً كنت متفوقة دائماً فى الدراسة، وحصلت على مجموع عال فى الثانوية، رغم أن زوجة أبى كانت تشغلنى فى البيت، وتفرض على ترك المذاكرة ورعاية أطفالها. وحاول أبى (بتحريض من زوجته) أن يمنعنى من دخول كلية الطب. لكن خالتى وزوجها وابنهما ظلوا وراءه حتى قبل. ودخلت الكلية. وكنت متفوقة دائماً، ولا أجد صعوبة فى أي علم من العلوم، ولكن الصعوبة الوحيدة كانت فى الجو الذي أعيشه فى البيت.

وحينما وصلت إلى السنة النهائية، بدأت زوجة أبى تدرك أننى سأكون طبيبة عما قريب. وبدأت تغير من معاملتها لى، وتناديني أحياناً يادكتورة سهير. وفى يوم جلست إلى جواري، وقالت أتت لى بعريس ممتاز. ولم يكن هذا العريس إلا أحد أقربائها. وكان رجلاً مترهلاً

لم أشعر نحوه بأي مشاعر، وكنت أشعر بالميل لإبن خالتى، الذي كنت أشعر بأنه يحبنى، ويهتم بى. وكان هو سبب تحملى لحياتى الشقية فى البيت، وفى نجاحى فى دراستى. وكنا قد أتفقنا على الزواج بمجرد تخرجى.

لكن أبى جاءنى يوماً وقال لى أن ذلك الرجل (قريب زوجته) قد خطبنى منه، وأنه وافق. وأنه أتفق معه على أن يكون كتب الكتاب الخميس القادم. أما الدخلة فتكون بعد تخرجى هذا العام. ورغم أننى كنت أخاف من أبى، فقد طلبت منه أن يؤجل ذلك كله حتى أنتهى من دراستى. ولم أستطع بالطبع أن أقول له أننى لا أريد هذا الرجل، وأريد رجلاً آخر. لكن أبى رفض فكرة التأجيل، وفوجئت بيوم كتب الكتاب، وأبى هو الذي يوقع عقد الزواج بصفته وكيلاً عنى. وأصبح الرجل المترهل (قريب زوجة أبى) هو زوجى الذي سأزف إليه بعد تخرجى من الكلية.

وهنا اهتزت الأرض من تحت قدمى، وأحسست أن الأمل الذي بنيته راح. وأننى لن أتحرر إلى الأبد من هذه الأسرة. وبدأت أشعر بالصداع والأرق. ولم أعد أستطيع المذاكرة. وجاء الامتحان النهائى ورسبت فى الامتحان بالطبع، وتدهورت حالتى. وأصبحت أشعر برغبة فى البكاء الدائم، والصراخ. وأشتدت قسوة أبى وزوجته علىّ. وأصبحت أقضى اليوم كله فى سريري راقدة، وأشعر بالصداع والآلام فى كل جسمى. وفى

يوم جاءت زوجة أبى لتخرجنى من السرير بالقوة، لأحضر الغداء لأبى. لكنى رفضت. فصفعتنى على وجهى. فأنهلت عليها ضرباً ولكماً. وجاء أبى وضربنى. فأخذت أصرخ بأعلى صوتى، وفقدت الوعى تماماً. ثم حين أفقت وجدتنى هنا فى هذا المستشفى. وعلمت أن زوجة أبى قالت لأبى أننى مجنونة. واقتنع أبى بكلامها، وحملنى على الفور فى تاكسى إلى المستشفى. ولم يحاول واحد من الأطباء أن يسمع ما أقوله. لقد أكتفوا بما قاله أبى وزوجته. وادخلونى بالقوة إلى مكان مظلم رطب، حيث سلطوا على رأسى جلسة كهربية، جعلت عظامى تؤلمنى عدة أيام. ورفضت أخذ أي أقراص، وقلت للطبيب أننى لست مريضة، وأننى طالبة بنهائى طب. فرد على الطبيب قائلاً : لا تتصرفى إذن كالجاهلات، وخذي الدواء الذي يصرف لك. وطلبت منه أن يسمعنى لمدة خمس دقائق لأننى لست مريضة، لكنه لم يتوقف، وأسرع وركب عربته، وغادر المستشفى. والآن يا دكتورة أرجو أن تساعدينى فى الخروج من هنا. إن أي عاقل يدخل هنا لا بد أن يصبح مجنوناً بعد بضعة أيام. إن كل الظروف التى عشتها تدفع إلى الجنون فعلاً. ولكنى لا زلت أحتفظ بقواي العقلية. وقد علمت من الطبيب أن زوجة عمى ذكرت له أننى كنت وأنا طفلة أتخيل أشياء وهمية، فحكيت له قصة عشة الفراخ وعمى . وقلت للطبيب ان هذه الحكاية ليست خيالاً، وأنها حدثت بالفعل. وكنت أتصور أن الطبيب سيصدقنى. لكنه أمر بإعطائى جلسة كهربية. وحينما

طلبت من الطبيب أن يخرجنى من المستشفى حتى لا يضيع على الإمتحان للمرة الثانية، قال لى : سأخرجك حين تشفين تماماً.

وسألته : ومتى أشفي تماماً ؟

قال : حين تكفين عن تصور الخيالات.

قلت له : أية خيالات ؟!

قال : الخيالات عن عمك وعشة الفراخ.

قلت : هذه أشياء حدثت وأنا طفلة صغيرة وقد نسيتها.

قال : هذه أشياء لم تحدث.

قلت له : كيف عرفت أنها لم تحدث ؟

قال : أهلك قالوا أنها لم تحدث.

قلت : ولماذا تصدق أهلى ولا تصدقنى أنا ؟

قال : نحن نصدق الأهل ولا نصدق المرضى.

قلت : ومن قال أننى مريضة ؟

قال : نحن.

قلت : من أنتم.

قال : الأطباء.

قلت : ولكن لم يحدث أن فحصنى طبيب واحد منكم، ولم يحاول واحد منكم أن يسمعنى أكثر من نصف دقيقة. وقد أمرتم لى بجلسة كهربية فوق رأسى، قبل أن تسمعوا منى شيئاً. هل هذه مهنة الطب ؟!

قال غاضباً : المستشفى بها ٣٥٥٠ مريضاً ومريضة (٢٢٠٠ مريضاً، ١٣٥٠ مريضة) فهل يمكن أن أسمع كل واحد منهم أكثر من نصف دقيقة.

قلت : وهل أنت الطبيب الوحيد هنا ؟

قال : نحن تسعة أطباء فقط فى كل هذه المستشفى ، أي أنّ كل طبيب مسؤول عن ٤٠٠ مريض ومريضة، أي أننى لو أستمعت لكل مريض لمدة دقيقة واحدة، فمعنى ذلك أننى أقضى سبع ساعات فى اليوم لمجرد سماع أقوال المرضى والمريضات. ومتى إذن يمكننى أن أقوم بأعمالى العلاجية الأخري.

قلت : ولكنك لا يمكن أن تقوم بأعمالك العلاجية الأخري دون أن تسمع ما يقوله المريض أو المريضة؟

قال : وهل كل ما يقوله المريض صحيحاً ؟

قلت : بالطبع لا ، ولكن هل كل ما يقوله الأهل صحيحاً ؟

قال : لا بالطبع، ولكن ماذا أفعل أنا ؟

قلت : لا بد أن تبحث عن الحقيقة. إن معظم المريضات هنا لسن مريضات. وإنما لهن مشاكل مع الأسرة، ومن الظلم اتهامهن بالجنون أو المرض النفسى.

قال : وماذا تريدين الآن ؟

قلت : أريد أن تكتب لى خروج من المستشفى.

قال : سأكتب لك «خروج» حين تشفين تماماً.

قلت : وكيف تعرف أنني شفيت تماماً ؟

قال : حين تقولين أن موضوع عمك لم يحدث، وحين تتكلمين عن أبيك وأسرتك بإحترام. إن هذا الأب هو الذي أنجبك، وهو الذي أطعمك، وهو الذي أدخلك كلية الطب، ويجب أن تشعري نحوه بالإمتنان لا الكراهية.

وسكتت سهير قليلاً، وكان قد تجمع حولنا بعض الفتيات والنساء المريضات. ونظرت إلىّ سهير بعينيها الواسعتين الحائرتين وقالت : المفروض أن أكذب لكى أخرج من هنا يا دكتوره، وسوف أكذب حتى أخرج من هنا، وألا أنتهيت تماماً.

وقالت إحدي الفتيات، والتى بدت فى مثل عمر سهير (٢٤ سنة) : أرجوك يا دكتورة، وأنا أيضاً أريد أن أخرج، لقد ضيعوا على امتحان العام الماضى. كل زميلاتى وزملائى تخرجوا من كلية الصيدلة، وأنا هنا فى هذا القبر!

وسألتها : كيف دخلت إلى هنا ؟

أبتسمت بسخرية وقالت : الدخول إلى هنا سهل جداً.

وقالت فتاة أخري : يكفى أن يرفع الأب سماعة التليفون ويقول لهم خذوا أبنتى. وقالت امرأة أخرى : يكفى أن يرفع الزوج سماغة التليفون، ويقول لهم خذوا زوجتى !

وقالت سهير : لقد عرفت لأول مرة القانون الغريب رقم ١٤١ لسنة١٩٤٤ الذي لا زال يسري حتى اليوم، والذي بمقتضاه حسب المادة الثانية، فإنه يمكن لأي شخص (الأب أو الزوج أو الجار) أن يبلغ البوليس (ولو كيدياً) ويقول : هذه مريضة أو هذا مريضاً. وتحضر عربة البوليس على الفور وتحمل الشخص بالقوة. وإثبات كون الشخصَ مريضاً أم لا يتم بواسطة مفتش الصحة (الذي لا يعرف شيئاً فى الطب النفسى، أو حتى الطب الجسدي، لأن عمله الأساسى هو فحص الموتى واستخراج شهادة الوفاة). وما أن يري مفتش الصحة رجال البوليس يسوقون إليه شخصاً، فإن هذا الشخص مريض بعقله لا شك. ومهما قال هذا الشخص شيئاً فلا أحد يصدقه. ويكتب مفتش الصحة على الأوراق : حالة جنون. ويساق الشخص إلى المستشفى على الفور.

وقالت إحدي النساء الواقفات حولنا : الدخول سهل جداً يادكتورة، يكفى أن ترزق واحدة مثلى بزوج جشع. أراد أن أبيع جسدي ليسدد ديونه. وحين رفضت، ضربنى، وطلب البوليس. وحين ساقونى إلى مفتش الصحة، قلت له أن زوجى هو المجنون، لأنه يريد أن يجعلنى مومساً ليسدد ديونه. لكن مفتش الصحة كان يستعد للخروج من مكتبه، فلم يسمعنى. وكتب شيئاً على الأوراق بسرعة، وساقونى إلى هنا.

وقالت امرأة أخري : أراد زوجى أن يطلقنى ليتزوج امرأة أخري.

وقال لى : تنازلى عن النفقة والمؤخر، فرفضت. فضربنى، وطردنى من البيت. ونمت عند الجيران، لأن أهلى في أسوان. وفى الصباح عدت إلى بيتى فحاول أن يطردني. فرفضت : فضربنى ومزق ملابسى، وطلب البوليس. وأخذونى بملابسى الممزقة إلى مفتش الصحة، ولم يكن موجوداً. فأتصل به التمورجى بالتليفون. وقرر مفتش الصحة أننى مريضة بالتليفون ودون أن يرانى، وساقونى إلى المستشفى.

وقالت سهير : الدخول إلى هنا سهل جداً، ولكن الخروج عملية صعبة جداً ومعقدة. فكيف يمكن إثبات أن هذا الشخص شفى أم لم يشف بعد. إن مقومات إثبات المرض غير موجودة. وبالتالى لا توجد مقومات تثبت الشفاء. ولهذا يتردي الشخص بالسنوات فى هذه المستشفى، خاصة إذا نسيه أهله، ولم يطالبوا بخروجه. بعض المرضى والمريضات دخلوا المستشفى منذ ثلاثين عاماً. وفى معظم الأحيان لا يطالب الأهل بالخروج. إن معظم الآباء أو الأزواج الذين يدخلون أبنهم أو أبنتهم أو زوجتهم إلى هذه المستشفى، يفعلون ذلك من أجل التخلص منهم. فكيف يمكن أن يهتموا بعودتهم، أو يطالبوا بخروجهم. ثم أن الذي يدخل إلى هنا مرة واحدة يصبح موصوماً إلى الأبد. ومن السهل إدخاله مرة أخري، أو التلميح بأنه دخل هذه المستشفى من قبل، ليتحطم مستقبله.

وقالت فتاة أخري يبدو على وجهها الأسى والحزن : إنى اسعى لدي الأطباء منذ ثلاث سنوات للخروج دون جدوي . لقد أحضرنى أبى هنا

منذ أربع سنوات وأختفى. وكلما طلبت الخروج قال لى الطبيب أن أبى لم يحضر. ولا بد للمستشفى أن تسلمنى لأبى أو ولى أمري الذي أحضرنى.

وقالت فتاة أخري : إنهم يرمون بنا هنا ,ليتخلصوا من أكلنا ومصاريفنا.

وقالت سهير : إنى أطلب منك يا دكتوره أن تنقذينى وتخرجينى من هنا !

وصاحت الفتيات والنساء من حولنا : ونحن يا دكتوره، أنقذينا واخرجينا من هنا !

وكان يوماً من أتعس أيام حياتى ، ووجدتنى وسط أكثر من أربعين أو خمسين فتاة وامرأة، وكل واحدة تحاول أن تحكى قصتها. وكلهن ضحايا أسر مزقها الطلاق وتعدد الزوجات، وخيانة الأزواج، وخيانة الآباء، وضعف الأمهات. وبعضهن طالبات بالجامعة أو المعاهد العليا، أو موظفات، وبعضهن زوجات بغير عمل وبغير عائل. وبعضهن أنقطعت عنهن زيارات الأهل منذ سنوات طويلة، وأصبحن بغير أهل، ويعشن تحت رحمة مجموعة من التمورجية. يأكلن أكلهن (أكل المستشفى الضئيل) ويشغلهن فى مسح الأرض وغسل الملابس والصحون، والتى تعصى الأوامر فليس هناك إلا الضرب، وأحياناً الإعتداء الجنسى ذاته. وحين تذهب الفتاة إلى الطبيب لتشكو، فإن أحداً لا يسمعها، وإن

سمعت فإن أحداً لا يصدقها. لأن معظم أطباء النفس يؤمنون بالمثل القائل : إذا كان المتكلم مجنوناً فالمستمع عاقل.

وتركت سهير والفتيات والنساء البائسات، وذهبت إلى الأطباء. وحاولت أن أعثر معهم على حل، لكن أحداً لم يكن بيده الحل. ووجهات النظر تختلف. كان بعضهم يري أن المريضات والمرضى أيضاً يظلمون، وأنهم جميعاً ضحايا أسر فاسدة، أو فقر شديد، أو مشاكل جنسية وكبت وحرمان، وبعضهم كان يري غير ذلك. ويعتقد أن المريضات والمرضى نوع أدنى من البشر ويستحقون ما هم فيه. وأنست فى أحد الأطباء نوعاً من الفهم وأتساع الأفق والإنسانية، فطلبت منه أن يساعد سهير فى الخروج بأسرع ما يمكن حتى لا يضيع عليها الامتحان. وفعلاً تمكنت سهير من الخروج من المستشفى بمساعدة هذا الطبيب. وكم كانت فرحتى حين سمعت صوتها فى التليفون يأتينى بعد عدة شهور، وينبئنى بأنها نجحت، وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة، وأن الرجل المترهل (قريب زوجة أبيها) يرفض تطليقها، وأنها تستعد لرفع قضية فى المحكمة ليحكم لها القاضى بالطلاق، ولتستطيع الزواج من ابن خالتها.

وسألتها : وما موقف أبيك الآن ؟

قالت : حين خرجت من المستشفى، علمت أنه طلق زوجته. ولذلك هو يشجعنى على الطلاق من قريبها.

سميحة

هى فتاة فى الثانية والعشرين تحاول الإنتحار وتكره حياتها. نشأت فى أسرة تفضل الذكور على الإناث فى كل شئ، حتى الأكل. وتقول سميحة : كان أبى وأمى يطلبان منى دائماً أن أخدم أخى، وأسقيه وهو راقد فى السرير، وأمسح حذاءه، رغم أننى كنت فى المدرسة أكثر تفوقاً من أخى، وكان أخى يضربنى إذا لم أخدمه، وكنت أضربه كما يضربنى. لكن أبى وأمى كانا يسمحان له بضربى ويمنعانى من ضربه.

وكنت أتمنى أن أكون ولداً مثل أخى ليعاملنى أبى وأمى كما يعاملاه، ولا أشعر بالمهانة التى أشعر بها كلما نهرتنى أمى أو نهرنى أبى قائلاً : أنت بنت ! وكنت أبكى وأنا أصلى لله، وأسأله لماذا خلقنى بنتاً. وكنت أوجه إليه اللوم لأنه لا يعدل بينى وبين أخى، ولا يجعل أبى وأمى يعدلان بينى وبين أخى. وقد انهارت كل آمالى حين رفض أبى أن أدخل الجامعة بعد حصولى على الثانوية. وفوجئت بهم فى يوم يقولون

أننى سأتزوج. وبكيت ورفضت. لكن أبى عقد قرانى على رجل لا أعرفه ولا يعرفنى، أبى هو الذي وقع على عقد قرانى لأنه ولى أمري. حاولت الأنتحار عدة مرات، فأخذتنى أمى إلى طبيب نفسى . قال الطبيب أنه سيعالجنى في ثلاثة أشهر، وعلى أن أذهب إليه مرة كل أسبوع. وفعلاً كنت أذهب إليه، وفى كل مرة يجلس أمامى يسألنى أسئلة غريبة. سألنى مرة : لماذا أحسد أخي وأتمنى أن أكون ولداً؟ فقلت له : لأن أهلى يفضلونه على. لكنه طلب منى أن أفكر قليلاً وأتذكر طفولتى. ولما لم أتذكر شيئاً، قال لى : هل لأنه يملك عضو الذكر وأنت لا تملكينه؟ وفوجئت بهذا السؤال الغريب، وقلت له أن ذلك لم يخطر ببالى أبداً. لكنه سألنى إذا ما كنت أحب أبى أكثر من أمي، فقلت له أننى أفضل أمى، لأنها تقف إلى جانبى أحياناً. أما أبى فهو الذي منعنى من دخول الجامعة. وهو الذي عقد قرانى رغم أنفى. لكنه لم يقتنع بكل ما قلته. وقال لى ان هذه هى الأسباب الظاهرية لحالتى النفسية، وأن الأسباب الحقيقية هى أننى أحسد أخى بسبب امتلاكه لعضو لا أملكه. وأعطانى الطبيب عدة جلسات كهربية. وسألنى عما إذا كنت أريد أن أنجب أطفالاً؟ وقلت له أننى لا أريد أن أتزوج، لكنه أخذ يقنعنى بأن أطيع أهلى وأتزوج، فالزواج هو الحياة الطبيعية لكل امرأة، وأن أفكر فى إنجاب طفل يعوضنى عن النقص الذي أشعر به كبنت لا تملك ما يملكه أخي الذكر، وانتهت الأشهر الثلاثة. ولكن حالتى ازدادت سوءاً. وأخرجت

لى سميحة من حقيبة يدها عدداً من الروشتات المسودة بعدد كبير من أسماء الأدوية والعقاقير: أقراص لإزالة الصداع، وأقراص منومة لإزالة الأرق، وأقراص لفتح الشهية، وأقراص مهدئة . وقالت لى سميحة أنها تبتلع ما يقرب من اثنى عشر قرصاً فى اليوم الواحد من مختلف هذه الأدوية.

وذهبت إلى الطبيب النفسى الذي يعالج سميحة وسألته عن اسم المرض الذي يعتقد أنه أصاب سميحة فقال لى : اكتئاب . وسألته عن سبب ذلك الإكتئاب، فقال لأنها ترفض أنوثتها وتتمنى أن تكون ذكراً، بسبب عقدة حسد عضو الذكر منذ طفولتها. وقال لى : ان سميحة بلغت الثانية والعشرين من عمرها ولكنها لم تنضج نفسياً وتقبل أنوثتها، وأنها لا تزال فى مرحلة الطفولة النفسية ولم تتخلص من عقدة حسد عضو الذكر.

وقلت لهذا الطبيب النفسى : أن سميحة لا تعانى من أية عقدة، لكنها تعانى من أبيها الذي حرمها من التعليم، وأصر على أن يزوجها رجلاً غريباً عنها لا تريده.

ورد على الطبيب قائلاً : ولكن سميحة لها ثلاث أخوات بنات أخريات، وقد حرمهن الأب نفسه من التعليم وزوجهن، وهن يعشن مع أزواجهن فى هدوء، ولم تحاول واحدة منهن الإنتحار كما حدث لسميحة.

قلت له : لأن سميحة أكثر طموحاً فى الحياة من أخواتها. إن قبول

أخوتها للقهر بسبب خوفهن من عصيان الأب، أو لسبب آخر، لا يعنى على الإطلاق أن تكون سميحة مثلهن وتقبل القهر.

وقال الطبيب : إن الأب هو الذي يملك حق تقرير مصير ابنته. وليس هذا قهراً. أنا شخصياً لا أوافق أن تتزوج أبنتى ضد ارادتى، وإلا فما فائدة الأب؟ إن دور الأب أن يختار لأولاده أحسن حياة، ويوجههم إلى ما هو فى صالحهم.

قلت له : هناك فرق كبير بين التوجيه وابداء الرأي، وبين الفرض والإجبار.

وقال الطبيب : إن سميحة فتاة غير طبيعية. أنها عنيدة صلبة الرأي. وهى تحاول التشبه بالرجال.

وسألته : كيف ذلك ؟

قال : أنها تكره الفساتين وأدوات الزينة، ولا تعتنى بجمالها كما تفعل كل البنات فى سنها.

قلت : ربما لها هواية أخري غير الفساتين وأدوات الزينة، ربما هى تري جمالها فى شئ آخر غير شكلها. لقد عرفت منها أنها تحب القراءة وأنها تفضل شراء الكتب عن شراء الفساتين وأدوات الزينة.

وقال لى الطبيب : وهل تعتقدين أن هذا طبيعى لفتاة فى مثل سن سميحة؟

قلت له : أنه شئ طبيعى جداً لأي فتاة فى مثل سن سميحة أن

تفضل شراء الكتب عن شراء الفساتين وأدوات الزينة. إن سميحة تعتقد أنها إنسانة لها عقل، يجب أن تغذيه وتنميه بالقراءة والمعرفة، وليست مجرد جسد أو أداة لجذب الذكر. إن سميحة تمثل الفتاة الذكية التى تنظر إلى نفسها نظرة انسانية متكاملة، وليست تلك الفتاة الغبية التى تتصور أن النقود لم تصنع إلا لشراء الفساتين والأحذية واللحم والخضار، وأن شراء الكتب ليس من شأنها وإنما من شأن الرجال. ورد الطبيب بغيظ : إذا انهمكت المرأة فى قراءة الكتب والعمل وخلافه، فمن إذن سيرعى الأسرة والأطفال، ويعد الطعام للزوج حين يعود من عمله مرهقاً. إن هذه الأفكار لا تقود أبداً إلى تدعيم الأسرة، بل إلى تفكيك الأسرة. أنها لا تقود إلى سعادة الأسرة بل إلى شقائها. لقد خلقت المرأة للبيت والرضاعة ورعاية الأطفال وخدمة الزوج، أما الرجل فقد خلق للأعمال الأخري.

ولم يكن هناك جدوي من المناقشة، واستأذنت من هذا الطبيب بعد أن أعطيته قائمة بأسماء الكتب الجديدة فى علم النفس.

ولم يكن فى إمكان الطبيب النفسى بطبيعة الحال أن يشفى سميحة من حالتها، رغم الأقراص العديدة التى كتبها لها. وقد صممت على أن أساعد سميحة وأنقذها من محاولاتها المتكررة للإنتحار، والتى كان يمكن أن تفقد حياتها تماماً فى واحدة منها. وذهبت مع سميحة إلى أبيها وأمها، وتحدثت مع الأب والأم. وأقتنع الأب والأم بأن بقاء سميحة على

قيد الحياة أهم من تزويجها بذلك الرجل (الذي أتضح أنه يملك عمارة كبيرة). وصرف الأب والأم نظرهما عن هذا الزواج، كما أن العريس نفسه كان قد هرب بعد أن علم عن محاولات سميحة للإنتحار. وأستطعت فى الزيارة الثانية أن اقنع الأب والأم بأن تنتسب سميحة إلى الجامعة من أجل استكمال دراستها، بدلاً من أن تبقى فى البيت وتسبب لهم المشاكل. وفعلاً انتسبت سميحة إلى كلية الآداب.

وانقضت بضعة شهور، حين ذهبت إلى معرض الكتاب الدولى الأخير، وبينما أنا أقف فى أحد الأجنحة، رأيت سميحة، لكنها لم ترنى. كانت تقف أمام صفوف الكتب وعيناها من خلف النظارة الطبية تنتقلان ببطء وهدوء فوق العناوين. فيهما لمعة الذكاء، والثبات، والإستغراق . بالرغم من أن شاباً وقف بجوارها، بل شباباً كثيرين ، من كل جانب، يدفعونها ويتزاحمون. لكنها لا تحس بهم. وعيناها لا تنفصلان عن صفوف الكتب. لا تنشغلان لحظة واحدة عن ذلك الإستغراق الشديد، كأنما العالم كله من حولها لم يعد له وجود إلا تلك الصفوف المتراصة من الكتب.

وهبطت عيناي تتأملان جسمها: جسم ممشوق رياضى، وساقان قويتان داخل بنطلون، وقدمان ثابتان فوق كعب سميك منخفض.

وأمتدت يدها إلى كتاب وفتحته، ورأيت أصابع يدها. أصابع رفيعة قوية. أظافرها بغير طلاء. قرأت فى الكتاب بضع صفحات، ثم أعادته

إلى مكانه. وأنتقلت إلى كتاب آخر. أنها لا تكتفى بقراءة عنوان الكتاب أو أسم مؤلفه، ولكنها تحاول أن تتعرف أيضاً على شئ من مضمونه قبل أن تشتريه.

أدركت أن سميحة قد شفيت. وأدركت أنها لم تشف فحسب، ولكنها تمثل الفتاة المصرية الجديدة. وشتان بينها وبين تلك الفتاة القديمة التى كانت تظن أن المعارض لا تقام إلا لعرض الأزياء والموديلات والبضائع ومستحضرات التجميل، وأن النقود لم تصنع إلا لشراء الفساتين والأحذية واللحوم والخضر. أما أن يكون هناك معرض للكتب، فليس هذا من شأنها، وإنما من شأن الرجال. وليس كل الرجال أيضاً، وإنما هؤلاء الرجال الذين تخصصوا فى القراءة. وكأن القراءة تخصص معين لا يقوم بها إلا فئة قليلة من الرجال. والقراءة أيضاً كما قالت لها أمها أو جدتها تضعف البصر ويجب على البنت أن تحافظ على جمال عينيها لتجذب الرجل بسهولة، ويرتفع ثمنها فى سوق الزواج. والرجل لا يحب الفتاة التى تلبس نظارة طبية. لماذا؟ أنها لا تدري. ولكن هذا ما قالته لها أمها وخالتها وعمتها.

وكم يبدو الفرق كبيراً بين الفتاة الجديدة والفتاة القديمة، وبين العينين النظيفتين الذكيتين من خلف النظارة البيضاء، وبين العينين الغبيتين الغارقتين فى سواد الكحل والرميل والظلال الخضراء.

كم يبدو الفرق كبيراً بين الجسم الرياضى المشوق، وبين الجسم

الكسول المرتخى، بين الساقين القويتين اللتين تتحركان بحرية داخل البنطلون، وبين الساقين السمينتين الملتصقتين داخل المينى جيب الضيق، بين القدمين الثابتين فوق الكعب السميك المنخفض، وبين القدمين المقوستين المتأرجحتين على كعب رفيع عال.

كم يبدو الفرق بين الأصابع الرفيعة القوية بأظافرها القصيرة بغير طلاء، تقلب صفحات الكتب فى نهم، وبين الأصابع الطرية البضة ذات الأظافر الطويلة المدببة الحمراء كمخالب الحيوانات المفترسة، تقلب فى اللحوم والفساتين فى نهم.

كم يبدو الفرق صارخاً بين الفتاة الجديدة التى تدفع بسخاء سبعة جنيهات لشراء كتاب تريده، وتبخل بمثل هذا المبلغ على شراء فستان، وبين الفتاة القديمة التى تدفع سبعة جنيهات ثمن تفصيل الفستان الواحد وتعتقد أن الكتاب يصبح باهظ الثمن لو أرتفع سعره عن سبعين قرشاً.

كم يبدو الفرق واضحاً بين الفتاة الجديدة التى يحوطها الشباب من كل جانب فلا تنشغل بهم عما تريد أن تقرأ، وبين الفتاة القديمة التى إذا لمحت شاباً من نافذة أو من على بعد كيلومتر ساوت شعرها وحاجبيها ورمشت بعينيها.

هذه هى الفتاة المصرية الجديدة سميحة، بجمالها الطبيعى وبساطتها وحبها للكتب والقراءة، بنظارتها الطبية البيضاء، وبنطلونها البسيط العملى، وحذائها المنخفض المتين. بشخصيتها الواثقة بنفسها المعتزة

بقيمة عقلها ونفسها، المؤمنة بالمساواة الحقيقية بينها وبين الرجل.

ولم تكن الفتاة الجديدة واحدة فحسب، ولكنها كانت مئات من الفتيات الجديدات يملأن ممرات معرض الكتاب. وامتلأت عيناي بالدموع، دموع الفرح، وتذكرت كيف كنت منذ عشرين عاماً فى مثل عمر هؤلاء الفتيات، وكيف كنت أخفى الكتب تحت البطاطين وأمارس القراءة خلسة وكأنما هى عمل غير لائق بالبنت يستوجب الخفاء.

فاطمة (ب)

هى فتاة ذكية، حساسة، تشتغل بالثانوية العامة، ومنتسبة إلى كلية الحقوق بالجامعة. تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً. لم تعرف أباها، لأن أمها حملت بها قبل أن تتزوج أباها، وهرب الأب، وواجهت الأم المشكلة وحدها. وولدت فاطمة كطفلة غير شرعية، عطفت عليها الأسرة، وتسترت على أمها حماية لها من الفضيحة الكبري بين الناس. لكن فاطمة منذ طفولتها وهى تري الكراهية حولها. وكثيراً ما سمعت أمها تقول لها وهى لم تبلغ الرابعة من عمرها : «ليتك مت قبل أن ألدك» . وبعض أفراد الأسرة حين يضيقون بها يقولون لها :«ليت أمك ماتت ومت معها وهى تلدك».

وعاشت فاطمة فى ظل أسرة أمها. وحملت أسم والد أمها (جدها). وكان هو الذي يطعمها ويطعم أمها أيضاً. وحين حصلت فاطمة على عمل بالثانوية العامة، أصبحت تنفق على نفسها وعلى أمها. وفكرت أن

تأخذ أمها وتعيش فى مكان بعيد عن هذه الأسرة التى لا تكف عن تذكيرها بالماضى الذي تحاول أن تنساه، لكن أمها رفضت، وأصرت على أن تبقى هى وابنتها فى ظل حماية الأسرة.

وحدثت المأساة حين تقدم أحد الرجال للزواج من فاطمة. كانت فاطمة فى الواحد والعشرين من عمرها، وكان هو فى الرابعة والخمسين. ولم تشعر فاطمة نحوه إلا بالنفور. لكن الأب (والد أمها) أصر على تزويجها. فقد كان هذا الرجل يمتلك مالاً كثيراً، وكان الأب رب أسرة كبيرة العدد، وله من الأولاد والبنات تسعة. وأعتقد أن هذا العريس صفقة رابحة لا يمكن تعويضها. وأصرت فاطمة على الرفض، فثار الأب، وأخذ يهددها ويلمح لها بالماضى، وبأنه هو الذي منحها أسمه. ومعنى ذلك أنه منحها الشرف. وأنه هو الذي أطعمها وأدخلها المدارس. وبكت أم فاطمة، وراحت تستعطف فاطمة من أجل أن تقبل الزواج من هذا الرجل ارضاء لأبيها ورداً لجميله السابق. وضعفت فاطمة أمام دموع أمها (وكانت تحبها وتشفق عليها كثيراً). ووافقت على الزواج من هذا الرجل. وحددت الأسرة موعد عقد القران. وقبل الموعد ببضع ساعات، فوجئت الأسرة بصرخة حادة من فاطمة، وسقوطها على الأرض عاجزة عن السير. وحين حملوها إلى الطبيب قال لهم أنها أصيبت بشلل فى ساقيها، وأنه يعتقد أنه شلل هيستيري، وأنها فى حاجة إلى علاج نفسى. وفى اليوم التالي وبعد أن أدركت فاطمة أن موعد عقد القران قد فات دون أن

تتزوج، نهضت من سريرها وسارت على قدميها. وفوجئت كل الأسرة وتصور الأب أنها لم تكن مريضة، وإنما مثلت الدور بإتقان لتهرب من الزواج. وانهال عليها ضرباً وسباً لأنها تسببت فى ضياع العريس. وفى تلك الليلة ظلت فاطمة مؤرقة فى فراشها تبكى. وفى الصباح ظلت تبكى، ولم تتوقف عن البكاء إلا عند الطبيب النفسى الذي أخذوها إليه فى العيادة الخارجية. وعندما سمع الطبيب حكايتها، حولها إلى ضمن حالات البحث الذي أقوم به. وبالرغم من أن فاطمة كانت منهكة القوي، إلا أنها استطاعت أن تحكى لى كل حكايتها بدقة، وتحلل مشاعرها، وتصف مأساة أمها. وقلت للأم أننى أريد أن أقابل والدها لأتحدث معه بشأن فاطمة، وأن عليها أن تحضره معها الأسبوع القادم. وقالت الأم أنه قد لا يوافق على الحضور، فقلت لها إذا لم يوافق، سأذهب أنا إليه لأشرح له بعض الأمور المتعلقة بصحة فاطمة.

وجاء الأب الأسبوع التالى مع فاطمة. وقلت له أن موقفه من فاطمة كان موقفاً غير إنساني، وغير شريف أيضاً. ونظر الرجل إلى بدهشة، وأصر على أنه رجل شريف، وأن كل الناس يعرفون أنه رجل شريف. وأتهم فاطمة بالجنون والمرض، وأنها ابنة حرام، وأن له بنات أخريات على قدر كبير من الأدب والطاعة، ولا تستطيع الواحدة منهن أن ترفع عينها فى عينه، كما تفعل فاطمة. وقلت له أن فاطمة فتاة ذكية وحساسة وصادقة وشريفة، وليست ابنة حرام كما يقول، ولكن الحرام وعدم الشرف

هو أن يحاول أن يبيعها بالمال لهذا الرجل العجوز الذي تنفر منه تحت أسم الزواج. وشرحت للأب معنى الشرف الحقيقى الذي هو الصدق، صدق الأفكار والمشاعر والأفعال. وليس الشرف مجرد أن يحافظ الشخص على أعضائه التناسلية . إن ارتباط مفهوم الشرف بالنشاط الجنسى فقط، يجعل الناس يكذبون ويزيفون ويتاجرون فى بناتهم بإسم الزواج، ويتصورون أنهم شرفاء.

وأدركت من ملامح الأب أنه يسمع مثل هذا الكلام لأول مرة فى حياته. وبرغم أنه حاول أن ينكر خطأه، إلا أننى شعرت أنه بدأ يدرك أشياء لم يكن يدركها وأنه مقتنع غى أعماقه بما أقول. لكنه حاول أن ينكر ذلك الإقتناع وقال : إن فاطمة بنت عنيدة، وهى تريد دائماً أن تنفذ ما فى رأسها بأية وسيلة.

لكنه عندما عاد إلىّ الأسبوع التالى، كان حزيناً وقلقاً. وقال لى بصوت منكسر : «تعرفى يا دكتوره، إن ضميري أصبح يؤنبنى بسبب ما فعلته بأبنتى فاطمة. لقد فكرت طويلاً فى كلماتك، وأدركت أننى فعلاً كنت سأبيعها بالمال من أجل أن استريح أنا. لقد كنت أنانياً، وكنت أفكر فى نفسى وراحتى، ولم أفكر فى راحتها وسعادتها. ولكن أعذرينى يادكتوره. إن العبء علىّ كبير، ولا أستطيع بمرتبى الصغير جداً أن أنفق على تلك الأسرة الكبيرة. الفقر هو السبب يا دكتوره. والجوع كفر!

ورأيت الدموع فى عينى الأب، فقلت له :«إن فاطمة ستشفى، ولكن أرجو ألا تكرر ما فعلته معها مع بناتك الأخريات. أنت الآن عرفت وفهمت».

فقال :«إن الإنسان لا يتعلم إلا من الخطأ، ومهما تأزمت حالتى المالية، فلن أكرر مأساة فاطمة مع بناتى الأخريات».

دريــــة

هى زوجة لمهندس ناجح، وأم لثلاثة أولاد. وقد تركت الجامعة بسبب الزواج. قالت لى أنها تبحث عن معنى لحياتها، وتحس بالفراغ الهائل، وأنها لا تستفيد بعقلها وذكائها. حين قال لها الطبيب النفسى : ألا تكفيك أسرتك، أي زوجك الناجح وأولادك الثلاثة الناجحين، قالت : لا. إننى أهىء لهم جميعاً كل أسباب الراحة والسعادة. ولكن ماذا عن نفسى أنا، أليس لى حق فى السعادة أنا أيضاً؟ أليس لى حق فى التفكير والنجاح فى عمل أحبه وأتفوق فيه؟ إننى لا أستطيع التوقف عن التفكير فى مستقبلى الذي ضاع حين قطعت دراستى الجامعية لأتزوج. ومما يزيد تعاستى أن زوجى وأولادي لا يستطيعون فهم مشكلتى. وأيضاً أبى وأمى وأهلى لا يفهمون سبب تعاستى، ويظنون أننى طماعة، وأكفر بالنعمة التى أعطاها لى الله، وهى الزوج الناجح الذي يحبنى، والأولاد الناجحين الذين ليس لهم مشاكل. وطبيبى النفسى

أيضاً لا يفهم مشكلتى. إننى أطيعه وأبلع الأقراص التى يكتبها لى، ولكن هل تصنع الأقراص لى مستقبلاً؟ هل تعيدنى الأقراص إلى الجامعة فأكمل تعليمى وأثبت للناس جميعاً إننى إنسانة ذكية وأستطيع من أن أقدم كثيراً من الأفكار المفيدة للمجتمع الكبير والإنسانية؟

فى يوم من الأيام فتحت درية الجريدة الصباحية، فرأت صورة إحدى زميلاتها اللاتى كن معها فى الجامعة، وقرأت أن هذه الزميلة نجحت فى اثبات ذاتها كإنسانة مفكرة، وأشادت الجريدة بنجاح هذه الزميلة وأفكارها العظيمة.

ودون أن تدري بدأت درية تتصور أنها كان يمكن أن تكون مثلها لو أنها لم تقطع دراستها. وأنتابتها حالة اكتئاب حادة، وخرجت إلى الشارع تبحث عن عمل، أي عمل، تثبت من خلاله ذاتها. وبالطبع لم تعثر على أي عمل. ووجدت نفسها عند الطبيب النفسى، الذي أعطاها مزيداً من الأقراص المهدئة والمنومة. لكنها لم تعد تنام الليل، وظلت تفكر، وصورة زميلتها أمام عينيها ليل نهار. وظلت الفكرة تطاردها، حتى أصبحت كل يوم ترتدي ملابسها وتخرج تلف فى الشوارع كالتائهة، تبحث عن شيء لا تجده. عن شيء ضاع منها، ولا تعثر عليه مرة أخري. وقلت لدرية أننى أستطيع أن أفهم مشكلتها وأقرها تماماً. وأنها فى حاجة إلى أن تعمل عملاً تحبه وتختاره، وليست فى حاجة إلى أي وظيفة لمجرد الخروج من البيت أو التخلص من الملل أو الفراغ. ولهذا فإن خروجها إلى

الشارع لتبحث عن عمل ليس هو الطريقة الصحيحة لحصولها على العمل الذي ترغبه.

قلت لها : ابحثى داخل نفسك أولاً عن العمل الذى ترغبين فيه . ما ميولك وهواياتك؟ هل هناك نوع معين من الفنون تمارسينه أو تحبين ممارسته ؟ قالت : كنت أحب الموسيقى قبل الزواج، وتعلمت عزف البيانو، ولكنى الآن نسيت ما تعلمته، لأننى لم أستمر بسبب الزواج والأولاد.

قلت لها: لماذا لا تعودين إلى الموسيقى مرة أخري، وتدرسين مرة أخري دراسة منتظمة، وبعد ذلك تنضمين إلى إحدي الفرق الموسيقية وتعزفين فى الحفلات ليسمعك الناس.

سألت بدهشة : وهل هذا ممكن ؟!

قلت لها : طبعاً ممكن.

قالت : أنا فى الثامنة والثلاثين من عمري يا دكتوره.

قلت لها : الإنسان الذكى يمكنه أن يبدأ حياته فى أي عمر. وأنت لا زلت شابة، ولو أخذت موضوع الموسيقى مأخذ الجد والإهتمام ربما تصبحين إحدي الموسيقيات القليلات فى مجتمعنا. إن معظم الموسيقيين والملحنين عندنا رجال. وقد آن الآوان لأن تثبت المرأة المصرية كفاءتها فى فن الموسيقى.

وتلفتت درية حولها فى حيرة وقالت : لقد تأخرت كثيراً. معظم زميلاتى تخرجن ، ويعملن أعمالاً ناجحة. وأنا أبدأ اليوم فقط.

قلت لها : أن تبدأي متأخرة خير من ألا تبدأي أبداً.

وسألتنى : وماذا عن الأقراص التى كتبها لى الطبيب، هل أستمر فى أخذها ؟

سألتها : لماذا أعطاك الطبيب الأقراص ؟

قالت : لأنام.

سألتها : ولماذا لا تنامين ؟

قالت : أفكر كثيراً.

سألتها : فى أي شئ ؟

قالت : فى كل حياتى. لا أشعر بالسعادة. أشعر أن شيئاً هاماً ينقصنى.

سألتها : ماذا عن حبك لزوجك وحياتك الجنسية؟

قالت : أحب زوجى، وهو يرضينى جنسياً تماماً.

سألتها : تصلين إلى الأورجازم؟

قالت : نعم، بسهولة جداً، وفى كل مرة تقريباً.

سألتها : وماذا عن علاقتك بأولادك؟

قالت : أحبهم جداً. وقد كبروا ولم يعودوا بحاجة إلى، ومعظم وقتهم خارج البيت أو مع أصدقائهم.

قلت : والآن تجدين نفسك مواجهة بيوم طويل وساعات طويلة لا تعرفين ماذا تفعلين بها ؟.

قالت : نعم بالضبط .

سألتها : أليس لك صديقات ؟

قالت : لى صديقات كثيرات، ولكنى أكره أحاديثهن التافهة عن الأكل والخدم والملابس، وأكره الثرثرة والنميمة.

قلت لها : لماذا لا تقرأين، ألا تحبين القراءة ؟

قالت : أقرأ أحياناً بعض الروايات الأدبية، وأقرأ الصحف والمجلات كلها تقريباً، لكنى أشعر بالإكتئاب والحزن كلما قرأت عن امرأة تفوقت فى عملها. وأقارن بين حياتها الناجحة وبين حياتى الراكدة فى البيت.

وقالت درية فى حزن: ماذا أفعل يا دكتوره ؟

سألتها : هل أقتنعت بموضوع بدء الموسيقى من جديد ؟

قالت :أقتنعت، ولكن الموسيقى مشوار طويل جداً، ولست شابة صغيرة لأصبح تلميذة من جديد.

وسألتها : وما هو تصورك لنوع العمل الذي كنت تبحثين عنه ؟

قالت : أي عمل.

قلت : وهل وجدت أي عمل ؟

قالت : لا. العثور على عمل صعب لمن يحملون الشهادات، فما بالى أنا ؟

وهكذا أحسست أن الحوار بينى وبين درية يدور فى حلقة مفرغة، ورأيت أن الحل الأفضل لمشكلتها فى نظري هو أن تدرس الموسيقى من

جديد، وتحاول أن تعمل شيئاً خلاقاً فى هذا المجال. وكانت ظروفها الاقتصادية تساعدها على هذه الدراسة بكل يسر. وحاولت أن أشجعها على ذلك، وبدأ عليها حين تركتنى أنها ستبدأ المحاولة. لكنى أحسست أنها قد لا تبدأ، وقد تظل فى حيرتها فترة غير قصيرة، وان لم يكن طوال حياتها.

خيرية

هى امرأة فى الأربعين من عمرها ، تزوجت منذ عشرين عاماً استاذها فى الجامعة، ولم تشتغل بعد التخرج لأن زوجها كان ثرياً ولم يكن فى حاجة إلى مرتبها. كما أنها فضلت التفرغ لخدمة بيتها وزوجها، ثم طفليها من بعد. كبر طفلاها، وتزوجت الإبنة الكبري، أما الإبن فقد تخرج فى كلية الهندسة وهاجر إلى كندا، أصبحت حياتها خالية بعد أن غاب ابنها وابنتها عن البيت. زوجها مشغول ليل نهار بعمله وبحوثه وقراءاته. وهو يكبرها بحوالى خمسة عشر عاماً.

حياتها الزوجية كانت هادئة، وكل عام يحتفل زوجها بعيد ميلادها. وحين جاء عيد ميلادها الأربعين شعرت بصداع حاد، وبدأت تنتابها حالات غريبة أشبه بالدوخة، وتشعر بدوار فى رأسها، وانقباض فى صدرها، وحين تنظر إلى وجهها فى المرآة تري بعض تجاعيد حول عينيها وحول فمها. بدأت تزيد من طبقة البودرة لتخفى التجاعيد، وبدأت تفقد

الثقة فى نفسها. وكلما خرجت مع زوجها فى زيارة أو حفل، راحت تختلس النظر إلى الفتيات الشابات وتشعر برغبة فى الإختفاء عن أعين الناس. وبدأت تتصور أن زوجها أصبح يري التجاعيد فى وجهها، وأنه أصبح يتطلع إلى الفتيات الشابات، وبدأت تنهشها الغيرة وعدم الثقة فى النفس. تراودها فكرة الموت كثيراً، وتتذكر أمها التى ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وتشعر أنها ستموت قريباً. وأصبحت تخاف حين تسير وحدها فى الشارع، ولا تخرج إلا بمرافقة زوجها. تنتابها أحياناً نوبات أرق حادة وتظل طول الليل تتخيل أمها التى ماتت، وتشعر بالإختناق. كانت تشعر بلذة مع زوجها قبل هذه الحالة، ولكنها أصبحت لا تشعر بأية لذة، ويخيل إليها أن زوجها لم يعد يرضى بها، وأنه يفكر فى امرأة أخري غيرها أصغر منها سناً.

أخذها زوجها إلى طبيب نفسى، فقال الطبيب أنها مصابة بما يسمى اكتئاب سن اليأس، بسبب بعض الإضطرابات فى الهرمونات، وأعطاها بعض الأقراص والحقن. لم تتحسن حالتها بل زادت سوءاً. وحين تأخذ الأقراص تشعر بالعرق الغزير يتصبب من جسمها، وتحس كأنما ستموت.

إن حالة خيرية ليست نادرة فى مجتمعنا، بل هى احدي الحالات الكثيرة التى نصادفها فى النساء اللاتى يبلغن الأربعين أو ما حولها. إن هذا الإكتئاب الذي تشعر به المرأة فى ذلك السن ليس له سبب بيولوجى أو هرمونى فى معظم الحالات، وإنما سبب اجتماعى. فالمجتمع ينظر إلى

المرأة فى هذه السن كأنما حياتها انتهت، وكأنما هى أدت دورها فى الحياة (وهى إنجاب الأطفال وتربيتهم حتى التخرج أو الزواج) ولم يعد لها دور آخر. والرجل أيضاً ينظر إلى المرأة كأنما هى أنتهت، ويبدأ ينظر إلى الصغيرات. ولا شك أن نظرة المجتمع والرجل تنعكس على المرأة نفسها. فتشعر أنها أصبحت بغير دور، وأنها لم تعد مطلوبة، ولا مرغوبة. وتفقد الثقة فى نفسها، وتشعر بالعصاب. وقد تفكر فى الإنتحار كوسيلة لإنهاء حياتها بسرعة.

لكن هناك نساء لا يشعرون بإكتئاب فى هذه السن. وهذا يدل على أن السبب ليس بيولوجياً أو هرمونياً. هؤلاء النساء هن النساء اللاتى أدركن أن دورهن فى الحياة ليس الإنجاب وليست تربية الأطفال، وإنما دورهن فى الحياة هو العمل الخلاق والإنتاج والمساهمة فى تغيير المجتمع إلى الأفضل. إن المرأة من هؤلاء تظل واثقة من نفسها حتى نهاية عمرها، وتشعر بأنها مطلوبة، وأنها تؤدي دوراً هاماً للمجتمع.

وحينما سألتنى خيرية عن الطريقة التى يمكن أن تشفيها من حالتها، قلت لها أنها لا بد أن تخلق لنفسها دوراً فى المجتمع. وأن تعمل على تغيير الظروف الاجتماعية التى تعيشها البنات والنساء، والتى جعلتها فى البيت للخدمة وغسل الصحون أو شغل الإبرة، أو زيارة الجيران والأقارب. ولم تمارس عملاً خلاقاً منتجاً فى المجتمع. وقالت خيرية : لقد أخطأت فى حق ابنتى وزوجتها قبل أن تستكمل تعليمها، ولا شك أنها

ستكرر الحياة الخاوية التى عشتها، وتشعر بأن دورها أنتهى بمجرد أن يترك أولادها البيت.

وتساءلت خيرية: ولكن ما العمل الذي يمكن أن أعمله الآن ؟

قلت لها : عليك بالإنضمام أو انشاء حركة نسائية أو تنظيماً نسائياً من أجل رفع وعى النساء، بحيث لا تتخلى أي امرأة عن عملها من أجل الزواج، وبحيث تتربى البنات فى جو يؤهلهن للعمل المنتج وليس للزواج.

وتنهدت خيرية فى أسى وقالت : هل أستطيع أنا أن أفعل ذلك؟

وقلت لها : ولم لا، أن أية حركة فى التاريخ تبدأ بالأفراد، ثم تجذب إليهاالجماعات.

قالت : أننى لست شابة لأبدأ.

قلت لها : أنت شابة، والشباب ليس عدد السنوات التى يعيشها الإنسان. ثم أن الكبر فى العمر ليس عيباً بل ميزة، لأنه يكسب الإنسان خبرة بالحياة والناس.

وان المرأة الواثقة بنفسها تترك العمر الحقيقى يظهر على وجهها. والعمر الحقيقى لا دخل له بشهادة الميلاد . إن المحافظة على الصحة يجعل المرأة تبدو فى شباب دائم وحيوية، لكنها حيوية ناضجة خبيرة بالحياة. والخبرة حين تظهر فى العينين تعطى المرأة عمرها الحقيقى. وبعض النساء يرسمن فى عيونهن نظرة ساذجة جاهلة، «غير خبيرة بالحياة» من أجل التمسك بالشباب وفترة المراهقة.

ولا يمكن لأي إنسان أن يمنع بعض مظاهر التقدم في حياته. أنه قد يؤجل ظهور هذه المظاهر، ولكنها حتماً ستظهر وبالتدريج على وجهه. ان التجاعيد مثلاً تظهر في أماكن معينة من الوجه. وكثير من النساء يحاولن إخفاء التجاعيد بالمساحيق، ولكن المرأة الواثقة بنفسها تنظر إلى كل «تجعيدة» في وجهها كجزء من حياتها تعتز بها وتفتخر.

إن اعتزاز المرأة بنفسها وحياتها وقيمتها في الحياة يجعلها جميلة في نظر الناس، ويجعل من كل تجعيدة تظهر على وجهها جاذبية خاصة.

فالجمال هو الجاذبية. والجاذبية هي ذلك المعنى الذي ترمز إليه الملامح، حين نقول ان هاتين العينين جذابتان، فنحن نقصد «بوعى أو بغير وعى» أن المعنى الذي يشع من هاتين العينين يجذب أنظارنا إليه. وعلى هذا فإن الجمال الخالي من المعنى، جمال بغير جاذبية، بالتالي ليس جمالاً.

ومن هذا المفهوم يمكن لأي امرأة (وأي رجل أيضاً) أن تصنع جمالها الخاص أو جاذبيتها الخاصة، وذلك بقدرتها على إشعاع المعاني المختلفة من ملامح وجهها وملامح جسمها، ومن حركة شخصيتها، ومن حوارها مع الآخرين، ونظرتها إلى الحياة والناس وتفاعلها مع الحياة، ونشاطها وعملها، وخبرتها بالحياة.

على كل امرأة أن تدرك هذا المفهوم الجديد للجمال. أن تفخر بخبرتها في الحياة، أن تثق بكل تجعيدة تصنعها الحياة على وجهها، وتعتبرها

شهادة طبيعية من الحياة بنضجها وخبرتها، وتسجيلاً حياً لمرحلة من حياتها.

أما هذه المرأة التى تظن أن الجمال هو اخفاء حقيقتها تحت المساحيق، والظهور الدائم بملامح الساذجات الغريرات «القطط المغمضة» فهى امرأة لا تعيش العصر الحديث. وإنما عصر الجواري، حينما لم يكن مطلوباً من المرأة أن تكون إنساناً له ملامح تعبر عن مخ يفكر ويشع مختلف المعانى، وإنما أن تكون كتلة لحم مدكوكة لا تعبر عن أي معنى سوي أنها كتلة لحم تؤكل حينما يراد لها أن تؤكل.

ومن الطبيعى لهذه الكتلة من اللحم أن تشعر بالإكتئاب النفسى حين يتقدم بها العمر وتزحف التجاعيد الطبيعية على وجهها. إن اكتئابها ينبع من خوفها من أن تلقى من فوق المائدة إلى حيث صفيحة القمامة. فهى لا تعرف لنفسها قيمة سوي أن تؤكل، ومن الطبيعى أن أكلة اللحوم (سواء كانوا من البشر أو من غير البشر) يفضلون اللحم الصغير، ليمضغ بسرعة ويهضم بسرعة ودون جهد كبير.

ويمكن للمرأة أن تقى نفسها من الإكتئاب الذي تصاب به كثير من النساء بعد سن الأربعين (يسمى خطأ فى الطب النفسى اكتئاب سن اليأس) من أن تدرك أن حياتها لها قيمة أكثر من أن تؤكل، ولها من المعانى الكثيرة المتعددة التى تزداد تعدداً وعمقاً بإزدياد نضجها وتقدمها فى العمر.

بهذه الحقيقة وحدها تنجو المرأة من اكتئاب سن اليأس، لأنها لن تشعر باليأس فى أي مرحلة من مراحل عمرها، ولأنها تدرك أن كل مرحلة لها قيمتها، وهى تصنع قيمة لحياتها ووجودها بصرف النظر عن رغبة الرجل فيها أو إعراضه عنها.

وبالطبع كنت أدرك أن كلامى هذا لن يشفى خيرية من الأعراض التى تشعر بها، فهى فى حاجة إلى أن تشعر أنها مطلوبة ومرغوبة، ولها دور هام فى الحياة. وهذا لن يحدث إلا إذا خلقت لنفسها هذا الدور ومارسته، واستطاعت أن تحقق ذاتها من خلاله.

وقد يقول بعض الناس أن خيرية ومثيلاتها نساء طماعات، وماذا هن يردن بعد كل الحياة التى عشنها، وبعد أن بلغن من العمر أربعين عاماً؟ لكن هؤلاء الناس لا يعرفن أن سن الأربعين إنما هو سن قمة النضوج الأنسانى، وهو السن الذي يبدأ فيه الإنسان (رجلاً أو امرأة) فى الاستفادة من خبرات الشباب. وهو السن الذي يبدأ فيه الإنسان الاستمتاع الحقيقى بالحياة، بعد فترة الإعداد والتجارب السابقة.

ومعظم النساء لا يبدأن فهم لذة الجنس أو تذوقها إلا فى هذا السن . ومعظم النساء والرجال لا يبدأون فى النضج العقلى والفكري والإنسانى إلا فى هذا السن. ولهذا تعتبر سن الأربعين هى المرحلة الأولى من حياة الإنسان التى يبدأ فيها العطاء، عطاء المجتمع خبرته السابقة ونضوجه. وحينما يحكم المجتمع بالإعدام على النساء فى سن الأربعين، فقد حرم

المجتمع نفسه من العطاء الفكري لنصف سكانه.

لكن المجتمع لا يعترف بأن للنساء جميعاً عطاء فكري. إن كل مايهم المجتمع من معظم النساء هو عطاءهن البيولوجى الجسدي فقط. وطالما أن هذه هى نظرة المجتمع للنساء، فسوف تظل خيرئة ومثيلاتها (اللاتى ضحين بعملهن من أجل الزواج) مريضات بالإكتئاب، ما لم يسعين لتغيير حياتهن.

وديدة

طلبت من الطبيبة المشرفة على نزيلات سجن القناطر أن تسهل لى لقاء بعض المسجونات المصابات بأضطرابات أو مشاكل نفسية (بعد أن حصلت على تصريح بزيارة السجن لإستكمال البحث الذي أقوم به)، وكانت أول سجينة أتحدث معها هى وديدة. وهى فتاة سمراء طويلة، لها عينان سوداوان لامعتان، تدلان على الذكاء والحيوية. وقالت لى الطبيبة أن وديدة تعانى من الأرق والصداع، وأحياناً تنتابها نوبات هستيرية، فتصرخ وتلطم على وجهها وتبكى وتصيح بصوت عال، ثم تهدأ بعد قليل وتنام لفترات طويلة وهى شاردة تفكر. وسألت عن التهمة التى حبست من أجلها وديدة، فقالوا لى أنها المخدرات. وسألت وديدة عن عمرها فقالت لى أنها فى الرابعة والعشرين، رغم أن وجهها أوحى إلى بأنها أصغر من ذلك. وكانت ملامحها، وبالذات حين تتكلم وتبتسم، تعطيها وجه فتاة صغيرة غريرة، تفيض سذاجة وبراءة. وقالت لى وديدة

بعد أن أصبحنا وحدنا : كان أبى تاجر مخدرات، وقد أستخدمنى أنا وأمى وأختى فى هذه التجارة. وكانت أمى ترفض أن تطيعه أحياناً، فيضربها ضرباً شديداً حتى يغمى عليها، وكنت طفلة صغيرة، وشعرت بكراهية شديدة لأبى. ولكنى أخفيت شعوري عنه خوفاً منه. وفى بعض الأوقات كان أبى يهجر البيت شهوراً طويلة دون أن يترك لأمى أي مال. وكانت أمى تضطر إلى أن تذهب إلى البيوت لتغسل الملابس لتحضر لى ولأختى الطعام. وفى إحدي الليالى تأخرت أمى فى بيت من البيوت التى تشتغل بها، وكانت أختى الصغيرة نائمة، وشعرت بالجوع يقطع أحشائى، فخرجت إلى «القهوة المجاورة» وأخذت أشحت من الرجال الجالسين قرشاً لأشتري به طعاماً. وقال لى أحد الرجال : تعالى معى لأشتري لك فطيرة بالسكر. وذهبت فأشتري لى الفطيرة، ثم أعتدي على. وكنت فى ذلك الوقت فى العاشرة من عمري. وعدت إلى البيت أبكى، وحكيت لأمى ما حدث، فبكت معى، وقالت لى ليلتها : يابنتى الناس ذئاب، لكن الله موجود، ولا ينسى أمثالنا من الغلابة.

وكانت الشهور التى يختفى فيها أبى أفضل من الشهور التى يعود فيها إلى البيت. وكنت أقول لأمى دائماً: لماذا لا نترك له البيت ونهرب إلى مكان آخر؟ لكن أمى كانت تقول لى وهى حزينة : وإلى أين تذهب ياوردة؟ وكان لأبى صديق يسهر معه الليل ويشاركه تجارة المخدرات. وفى بعض الأحيان يبيت عندنا حتى الصباح. وفى إحدي الليالى، وكنت

فى الرابعة عشر أعتدي على هذا الرجل. وتكرر هذا عدة مرات. وكتمت الأمر بينى وبين نفسى خوفاً من أبى. لكنى عرفت أن أبى يعرف كل شئ، وأنه يترك هذا الرجل معى ويغادر البيت. وحكيت لأمى، لكنها لم تكن تملك إلا البكاء والصراخ. وكان أبى يضربها حتى يتجمع الجيران. فيقول لهم أنها امرأة مجنونة، مصابة بالهستيريا، ولا علاج لها إلا الضرب، وفى يوم من الأيام عدت من إحدي العمليات التى كان أبى يرسلنى فيها لأتاجر بالحشيش، فلم أجد أمى فى البيت. وعلمت من الجيران أن أبى أخذها فى عربة إلى مستشفى العباسية. وظللت أبكى أنا وأختى طوال الليل. وحين رآنى أبى وأنا أبكى، ضربنى وقال لى أننى أشبه أمى، وأنه لا علاج لى إلا الضرب. ولم أعد أبكى. وبدأت أفكر فى وسيلة للهرب أنا وأختى. ولكن أبى أفهمنى أنه سيعرف طريقى فى أي مكان فى العالم، وأنه قادر على إعادتى إليه فى أي وقت.

ومضت سنوات، وأصبحت أنا وأختى نشتغل مع أبى فى تجارته، وعلمنا كيف نهرب من رجال الشرطة، ولم يعد الاتصال الجنسى بالرجال (زملاء أبى) شيئاً غريباً، بل أصبح أمراً عادياً بالنسبة لى أنا وأختى. وتزوجت أختى أحد الرجال وذهبت معه، أما أنا فقد رفض أبى أن يزوجنى، وقال أنه لا يستغنى عنى طالما أن أمى لم تعد من المستشفى، وأنه لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بد له من وجودي معه لأخدمه،

وأيضاً لأساعده في تجارته. وكنت أخاف من أبي، ولم أكن أستطيع أن أخالفه . وسألته : لماذا وافق على زواج أختي ؟ فقال لأنها غبية، وليست لها فائدة.

وفي يوم، أحسست أنني أريد أن أري أمي. فذهبت لزيارتها بالمستشفى دون أن يعلم أبي (كان أبي يحرم على زيارتها). وبكت أمي حين رأتني، وأنا بكيت حين رأيتها. وذهبت إلى الطبيب وطلبت منه أن يخرج أمي من المستشفى لأنها ليست مجنونة. لكن الطبيب رفض، وقال لي أنها مريضة بالهستيريا. وقالت لي أمي أنهم يعطونها قرصاً قبل أن تنام، فتشعر كأنها ستموت، ولا تفيق إلا في اليوم التالي. وأنها تنام في عنبر مع عدد كبير من النساء. وأنها تخاف من بعض هؤلاء النساء. وأن إحدي التمورجيات ضربتها مرة لأنها رفضت أن تمسح دورة المياه. وتوسلت إلى أمي أن أخذها معي إلى البيت، لكنني لم أستطع بسبب قوانين المستشفى.

وعدت من زيارة أمي وأنا أبكي في الشارع. وفي اليوم التالي أرسلني أبي في مهمة. ولم أشعر إلا وأنا أمام البوليس. أنني في هذا السجن منذ العام الماضي، وبرغم الحياة القاسية هنا إلا أنني لا أريد أن أخرج.

وسألت الطبيبة المشرفة عما إذا كانت وديدة قد حصلت على أي علاج نفسي وهي بالسجن. وعلمت أن وديدة عرضت على أحد الأطباء

النفسيين. وطلبت أن أطلع على رأيه فى هذه الحالة، وكان كما توقعت. فقد ظن الإخصائى النفسى (حين علم أن أم وديدة نزيلة بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية) ان وديدة ورثت المرض النفسى عن أمها، ولم يتصور أن أم وديدة ليست مريضة نفسياً، وأن وديدة أيضاً ليست مريضة، وإنما المريض هو ذلك الأب الفاسد الذي قضى على مستقبل ابنته وزوجته. ومن الواضح أن أي أقراص تبتلعها الأم فى المستشفى، أو أي دواء تبتلعه وديدة فى السجن، لن يعالج حالتهما، وإنما العلاج لا بد أن يوجه إلى الأب الفاسد، وإلى الظروف الاجتماعية السيئة التى عاشاها.

وتذكرنى هذه الحالة بحالة «دورا» التى كان «فرويد» يعالجها من ذلك المرض النفسى المسمى «هستيريا». كانت دورا فى ذلك الوقت فتاة ذكية فى الثامنة عشر من عمرها. وقد أعتبر فرويد سلوكها غير طبيعى، وتصرفاتها غير محتملة. وأنها كانت تتمثل أمها. وهذه هى كلماته عنها: «كانت دورا.. تتمثل أمها بهذه التصرفات الغريبة التى جعلتها تتجه إلى هذا السلوك الغريب غير المحتمل». وكان فرويد قد شخص أم دور دون أن يراها بأنها مريضة نفسياً بما سماه « ذهان ربة البيت» House wife's psychosis وبالطبع لا تشعر دورا بأي تحسن مع علاج فرويد، فيأخذها أبوها إلى طبيب آخر، الذي استطاع أن يدرس ظروف أسرتها، ويدرك حقائق لم يدركها فرويد. وقد كتب هذا الطبيب

(د.ليونارد سيمون) عن دورا يقول : إن دراسة فرويد لحالة دورا كان يمكن أن يكون مفيداً لو أنه اهتم بالحقائق فى حياتها والتى تجاهلها ، لأنه طوال فحصه وعلاجه لعقلها الباطن كان يعرف أنها ضحية صفقة جنسية بشعة اقترفها أبوها. إن هذا الأب الذي مرض من قبل بالزهري، ثم نقل العدوي إلى زوجته... هذا الأب دخل فى علاقة جنسية أخري مع زوجة السيد (ك). وكانت هناك دلائل واضحة أن هذا الأب كان يستخدم ابنته دورا ليرضى عشيقته الجديدة (وذلك بأن يقدم دورا للسيد ك). وقد كان فرويد على علم بهذا لأنه كتب : «أن الأب كان مسؤولاً إلى حد ما عن الخطر الذي لحق بها ، لأنه قدمها إلى ذلك الرجل الغريب من أجل أن يشبع هو رغبته الجنسية مع زوجة هذا الرجل». ولكن بالرغم من هذه الحقيقة، وبالرغم أن أباها كان سبب تعبها ، فقد أصر فرويد على أن يعتبر مشكلة دورا مشكلة نفسية بحتة، تتعلق بعقلها الباطن فقط، متجاهلاً سلوك والدها. وقد أنكر أن رد فعلها لهذا السلوك الأبوي الشائن رد فعل طبيعى. ويبدو أن فرويد كان يعتبر أنه من الطبيعى أن يستغل الرجل المرأة أو الفتاة جنسياً بأي شكل، وأنه من المرض النفسى أن تقاوم الفتاة أو ترفض.

والذي يقرأ عن علاج فرويد لدورا يدهش، لأن فرويد لم يحاول أن ينصح الأب بتغيير سلوكه تجاه ابنته، لكنه كان ينصح دورا بأن ترضى بحياتها. وكان يلومها على ثورتها على أبيها. وركز علاجه لها على أن

تتكيف مع حياتها. وإلا فليس أمامها إلا مصيرها المحترم (كأمها) ألا وهو «ذهان ربة البيت». وكان شفاء دورا بطبيعة الحال هو أن تعود فتحترم أباها، وتقدس تلك الأسرة الأبوية التى نشأت فيها، بل وتحب أباها وتخدمه، ثم عليها أن تتزوج رجلاً (لن يختلف كثيراً عن أبيها)، وتخدمه أيضاً وتقبل حياتها معه، والزهري الذي سينقله لها. ثم العشيقات اللائى قد يستخدم بناتها لإرضاء أزواجهن. وهكذا تدور الحلقة المفرغة، ويصبح «ذهان ربة البيت» هو الحالة الطبيعية لجميع الزوجات.

وقد حدث شيئاً مشابهاً لذلك فى حياة دورا. فقد تزوجت وعاشت مع زوجها عدداً من السنوات، ثم ذهبت إلى طبيب نفسى يدعى «فليكس دوتيش» وكان من مدرسة فرويد نفسها، لأنه رأي أن برودها الجنسى لم يكن بسبب سلوك زوجها، الذي لم يكن مخلصاً لها وكانت له عشيقاته كأبيها (وأكثرية الرجال الذين يعجزون عن الإكتفاء بامرأة واحدة)، بل بسبب أنها هستيرية وتكره الرجال (بسبب الحسد بالطبع لأنهم يمتلكون العضو الذي تبحث عنه المرأة بلا جدوي). وحين مات زوجها (ربما من الزهري أو من مرض آخر) قالت دورا أنها لن تتزوج مرة أخري، وبالطبع رأي طبيبها النفسى أن هذا يؤكد تشخيصه السابق لها، وكراهيتها للرجال، وهستيريتها الشديدة غير القابلة للعلاج النفسى. فكيف تكره المرأة الرجال إلا إذا كانت مريضة بالهستيريا المستعصية؟ أما سلوك

أبيها في طفولتها ومراهقتها، وسلوك زوجها فى شبابها، فكل ذلك أشياء طبيعية من الرجل الطبيعى، وعلى المرأة الطبيعية أن تخدم أباها هذا وتحترمه، وتخدم زوجها هذا وتحترمه. فإن عجزت أو رفضت أو شلت يدها وهى تناوله كوب الشاي وهو راقد على ظهره فى السرير، فهى امرأة هستيرية.

كانت خدمة الأب أو خدمة الزوج (ولا تزال) إحدي الواجبات المقدسة للمرأة، وكانت المرأة (لا تزال) التى ترفض هذا الواجب تعتبر امرأة غير طبيعية أو مريضة نفسياً. أما الرجل فإنه من الطبيعى أن يخون زوجته مع العشيقات، ولم نسمع عن رجل أتهم بالمرض النفسى لأنه خان زوجته.

ويكتب «توماس زاس» عن أعراض الهستيريا، مستعرضاً إحدي مريضات فرويد (Anna O آنا «أ») التى شعرت بالمرض أثناء خدمتها لأبيها المريض: «بدأت«آنا » تلعب لعبة الهستيريا بسبب كراهيتها لتلك الخدمة المهينة، وخضوعها لهذا الإضطهاد، وأن تشتغل كممرضة وبغير أجر. وكأن واجب النساء من الطبقة المتوسطة فى عهد فرويد أن يقمن بخدمة وتمريض الأب المريض. وهذا يشبه ذلك الواجب المفروض على النساء فى عصرنا بالنسبة لأطفالهن.

إن المرأة فى الحضارة الذكورية لا بد وأن تكون مهنتها فى الحياة هى الخدمة : أن تخدم أباها، ثم تخدم زوجها، ثم تخدم طفلها. فإن كانت

امرأة ذكية، تدرك أنها تستطيع أن تمارس مهنة أخري أرقى من الخدمة، فهى امرأة غير طبيعية، تعانى من كراهية الرجال، وترفض الواجب المقدس الذي تقوم به كل النساء. وعلى المعالج النفسى أن يروضها لتقبل هذا الدور المفروض عليها بحكم أنوثتها ومصيرها المحتوم فى الحياة.

ومن المعروف أن المرأة تقوم بمهنة الخدمة هذه بغير أجر (نظير إطعامها فقط)، فإذا دعت الحاجة الاقتصادية أباها أو زوجها لكى يشغلها فى مهنة أخري خارج البيت، فهى تقوم بالمهنتين معاً، مهنة الخدمة بالبيت ومهنة الخدمة خارج البيت. وبرغم أنها تدفع أجرها الذي تكسبه لزوجها أو أبيها، إلا أنها لا تعفى على الإطلاق من مهنة الخدمة بالبيت. بالإضافة إلى المعاملة السيئة من الآباء أو الأزواج للبنات والزوجات، والحماية الأخلاقية والقانونية والاجتماعية لهم التى تشجع هذه المعاملة السيئة. وبعد كل ذلك حين تسقط المرأة من الإرهاق الجسدي، أو حين تصرخ من الإرهاق النفسى، فهى امرأة عصبية هستيرية ولا بد لها من علاج سريع، لتعود هادئة مستسلمة إلى حظيرة النساء.

ابتسام

سألتها ما الذي أتى بك إلى سجن النساء؟ فأجابت بصوت هادئ خال من الإنفعال تقريباً : الدعارة. ونظرت إلى وجهها. كان هادئاً، لكنه ليس هدوء الإستكانة والذل، وإنما هو هدوء الترفع والكبرياء. وفى عينيها نظرة مترفعة، وكأنما تقول أننى أشرف منكم جميعاً. وقد كانت ابتسام رافضة تماماً التحدث عن نفسها، وكانت تجيب على أسئلتى بكبرياء وبسخرية أيضاً، حين سألتها كم عمرك؟ قالت ستين عاماً. لكن المشرفة قالت أنها فى الثلاثين، وأدركت أننى أمام امرأة على قدر من الذكاء. وسألتها : هل تعلمت؟ فقالت أنها تعلمت فى الحياة أكثر مما نتعلم نحن فى المدارس، فضحكت، وسألتها عن عملها؟ فقالت أنها كانت ممثلة على المسرح، وكانت تريد أن تكون فنانة عظيمة، لولا ذلك الرجل الذي حطم مستقبلها تماماً.

ولم تفتح لى ابتسام قلبها إلا فى الزيارة الثالثة للسجن، حين بدأت

تثق فى أننى لا أسعى إلى الحصول على معلومات منها من أجل أضرارها. وأعتذرت لى عن عدم قدرتها على الثقة بالناس بسرعة قائلة: كنت أثق بالناس، وهذه الثقة هى سبب وجودي الآن فى السجن. لكن الناس أشرار، وخاصة الرجال منهم. ربنا ينتقم منه !

وسألتها : من هو ؟

قالت : الذي تسبب فى مجيئى إلى هنا . أنا يا دكتوره لست امرأة مومس كما يكتبون تحت أسمى، ولكن حظى السئ جعلنى أتزوج رجلاً مومساً. إن الحياة الفنية مليئة بالرجال المومسين الذين يستغلون الفنانات الناشئات. وقد كنت منذ عشرة أعوام فنانة ناشئة، فتاة بريئة. ولم أكن أحب المدرسة، لأننى وأنا طفلة فى السابعة، كان هناك مدرس يخيفنى حين يعانقنى فى مكان بعيد فى الفناء، وكنت أجري هرباً منه. وكانت أمى تضربنى لأذهب إلى المدرسة. ولهذا كرهت المدرسة جداً. وكنت أحب التمثيل والغناء والرقص. ومات أبى وأنا فى السادسة عشر، فأخرجتنى أمى من المدرسة، وبدأت تبحث لى عن عريس مناسب. وقلت لأمى أننى لا أريد أن أتزوج، وأريد أن اشتغل ممثلة فى المسرح أو فى السينما. لكن أمى رفضت، وزوجتنى لأحد أقاربها. وكان رجلاً بخيلاً جداً وقبيح الشكل. وفى ليلة الزفاف جعلنى أكره الجنس كالعمى، فقد هجم على كالثور وكانت رائحته كريهة، ولم أشعر بأية لذة، وإنما بألم شديد ورغبة فى القئ. وكنت فى الثامنة عشر، وهذا الرجل فى الأربعين

تقريباً. وبعد ستة شهور طلقني، وقال لأمى أننى أرفض حين يرغبنى. وضربتنى أمي، وسألتنى لماذا أرفضه؟ فقلت لها أننى أكره الرجال، ولا أريد الزواج . وبعد شهور قليلة تزوجت أمي، وبعد زواجها لم تعد تهتم بأمري، لدرجة أننى حين قلت لها أننى سأشتغل ممثلة فى المسرح لم ترفض، وأحسست أنها تريد أن تتخلص منى. فقد أصبحت عبئاً عليها بعد زواجها.

وبدأت حياتى الفنية بداية لا بأس بها. فقد أعطونى دوراً ثانوياً فى إحدي المسرحيات. وفرحت جداً بأول أجر أحصل عليه رقم ضآلته. وكنت أشعر بالسعادة وأنا أقف على خشبة المسرح والناس تصفق لى. وبدأت أحلم بمستقبلى كفنانة كبيرة مثل الفنانات الشهيرات. لكن أحلامى كلها تحطمت على يد ذلك الرجل. لقد خدعنى، وأفهمنى أنه قد جن جنوناً بحبى، وكنت ساذجة وبريئة. وصدقته. وكنت أحلم بالحب كأية فتاة فى مثل سنى فى ذلك الوقت. وكنت قد أصبحت فى الواحد والعشرين. وتزوجت هذا الرجل وأنا أحلم بحياة سعيدة. لكن بعد الزواج أدركت أنه يريد أن يستغلنى. وكان يستولى على كل أجري الذي أحصل عليه من التمثيل. وكان يقول لى أن جسمى يصلح للرقص. وعلمنى الرقص. وجعلنى أشتغل فى إحدي الملاهى الليلية، ويستولى على أجري. ولم أكن أحب أن اشتغل راقصة، لأنى كنت أشعر بالإهانة حين يعاكسنى الرجال. وكنت أشعر بكرامتى أكثر وأنا ممثلة. لكنى كنت لا أزال أصدق

كلام زوجى، وأحاول أن أرضيه بأي شكل، لأننى كنت أخاف منه. فقد ضربنى مرة حتى كدت أفقد الوعى. وفى اليوم التالى، ذهبت إلى بيت أمى. لكنى علمت من الجيران أنها تركت الشقة هى وزوجها. ولم أعد أعرف طريق أمى. ولم يعد لى من مأوي سوي بيت زوجى. وكنت لا أزال صغيرة، وأخاف أن أعيش وحدي، وأخاف أن يبحث عنى زوجى ويجدنى ويضربنى حتى أموت. ولهذا عدت إلى بيت زوجى وخضعت تماماً له. لدرجة أنه حين تركنى مع أحد أصدقائه بحجرة النوم لم أرفض. وتكررت العملية مع عدد من الرجال الذين يعرفهم. وعلمت أن هؤلاء الرجال يدفعون له مالاً، ولم أعرف كم يدفعون له، وخفت أن أسأله. وفكرت فى الهرب يوماً، لأنى كنت أكره حياتى، وأشعر بآلام شديدة فى جسمى، ورغبة فى القئ. فقد كنت أكره الجنس كراهية شديدة، وأفضل أن اشتغل كفاعل، وأحمل أحجاراً فوق ظهري، ولا يتصل بى هؤلاء الرجال. لكنى لم أكن أعرف كيف أنقذ نفسى. فقد امتلك هذا الزوج مصيري، وأصبحت عاجزة عن الفرار منه. وكنت أقضى بعض الليالى وأنا أبكى على حالى، وألعن اليوم الذي قابلت فيه هذا الرجل. وأشتد بؤسى حين أصبحت حاملاً، وكنت أريد أن أكون أماً ويكون لى طفل أعطيه حبى وحنانى، لكن زوجى أخذنى إلى طبيب وأجهضنى. وبكيت كثيراً. وفكرت فى الإنتحار. ولم تكن أمامى وسيلة إلا أن ألقى نفسى فى النيل، وأنا عائدة بالليل من المرقص. لكنى لم أكن استطيع أن أفعل

ذلك. وكنت لا أزال آمل أن ينقذنى الله من ذلك الرجل. وكنت فى أشد الحاجة إلى أن أحكى مأساتى لأحد، حتى أخفف عن نفسى الحزن. وكان صاحب المرقص رجلاً طيباً، ورآنى مرة أبكى فسألنى عن السبب، ووثقت فيه، وبحت له بمأساتى. وكنت أتصور أنه صديق لى، وسوف يساعدنى على الخلاص. لكنى فوجئت أنه أحد أعوان زوجى. وبدأت أعرف الحقائق من زميلة لى بالمرقص عن هؤلاء الرجال. وطلبت منى زميلاتى أن أطلب من زوجى أن يعطينى قسيمة الزواج، لأنها تعتقد أن لم يتزوجنى حقيقة، وأن المأذون لم يكن مأذوناً حقيقياً. وحين سألت زوجى عن قسيمة الزواج، ثار وغضب، ونظر إلى نظرة مخيفة. لدرجة أننى تصورت أنه ربما يخنقنى بالليل وأنا نائمة. وأصابنى الأرق. وأصبحت أشعر بالقلق والصداع والآلام فى كل جسمى. ولا أدري لماذا لم أهرب منه، ولماذا ظللت أطيعه رغم أننى أصبحت أشك فيه، وأشعر أنه أصبح يريد التخلص منى. لكن عقلى كان عاجزاً عن التفكير. ولم تعد بى أية قدرة على المقاومة.

وفى ليلة من الليالى بينما كنت مع أحد الرجال فى حجرة النوم، أنفتح الباب فجأة ودخل رجال البوليس. وقلت لهم أننى بريئة. لكن الرجل الذي كان معى شهد ضدي، وقال أنه دفع لى مالاً. وأنكرت أننى أخذت شيئاً. لكن أحد رجال البوليس رفع وسادة السرير ورأيت تحتها ورقة من فئة الخمسة جنيهات. ودهشت لأنها كانت المرة الأولى التى يضع

فيها الرجل مالاً تحت الوسادة. وكان زوجي هو الذي يأخذ المال مباشرة من الرجال. وأخذت استعطف رجال البوليس، وأقول لهم الحقيقة، لكن أحداً لم يصدقني. وأخذ الجميع ينظرون إلى بسخرية واحتقار. وحكموا على بالسجن. فهل ترين يا دكتوره أنني أستحق السجن، وأستحق أن يضعوني في عنبر المتهمات بالدعارة؟! وقد أوشكت مدتي أن تنتهي وأخرج من السجن. ولكن إلى أين أخرج وأي مستقبل ينتظرني ؟!

وصمتت ابتسام طويلاً، وصمت أنا الأخري، وكنت أفكر في مأساتها، فهي متهمة بالإتجار بجسدها مع أنها لم تكن تقبض شيئاً. وهي متهمة بالدعارة وممارسة الجنس مع الرجال، مع أنها كانت تكره الجنس وتشعر بالآلام والغثيان. وقد ضبطوها مع رجل تآمر مع زوجها المزيف ليزجوا بها في السجن، مستغلين القانون الذي يدين المرأة وحدها ولا يدين الرجل. وقد أراد الرجل التخلص منها بعد أن أدرك أنها بدأت تفتح عينيها على الحقيقة وتدرك أنه زوج مزيف. ولم يكن يشعر بالحاجة إليها بعد أن مص دمها عشر سنوات، وأفنى جسدها وشبابها، وذبلت وهي في الثلاثين، وأصبحت تشعر أنها في الستين. وقبل أن أغادر السجن، سألت أحد الأطباء عن العلاج الذي تأخذه ابتسام. فقال أنها تأخذ أقراصاً منومة، وتأخذ بعض حقن من الهرمونات، لأنها تعاني من اضطرابات شديدة في الهرمونات، وقال لي الطبيب ان المرأة الطبيعية لا يمكن أن تمارس البغاء لأنه ضد طبيعة المرأة، وأن معظم المومسات يمارسن البغاء

بسبب اضطرابات فى الهرمونات. وقلت للطبيب : ان ابتسام امرأة طبيعية، وإذا كنت قد فحصتها ووجدت عندها اضطرابات فى الهرمونات فهذه الإضطرابات ليست سبب ممارستها البغاء، ولكنها نتيجة لهذه الممارسة التي فرضت عليها، وانهكت صحتها النفسية مما أدي إلى اضطرابات فى الهرمونات.

وقال الطبيب : هناك نساء يبلغ بهن الفقر مبلغاً شديداً ولا يمارسن البغاء أبداً، إن الأسباب الحقيقية للبغاء ليست اقتصادية ولا اجتماعية، ولكنها أسباب هرمونية بسبب خلل فى إفراز الغدد الصماء لدي هؤلاء المومسات. ولم أسترسل في المناقشة، فقد كنت أدرك الطريقة التى تعلمنا بها الطب، والتى تجعلنا عاجزين عن إدراك الأسباب الاجتماعية لأية مشكلة صحية متعلقة بالجسد أو النفس.

وحينما عدت إلى بيتى، وبينما أنا أتصفح بعض أعداد من المجلة الجنائية القومية باحثة عن البحوث التى أجريت عن البغاء، لمحت عنواناً يقول : دراسة بيولوجية لمجموعة من البغايا. وقرأت البحث وما فيه من جداول، وكانت النتائج كالآتى:«لقد وجد أن النساء البغايا يعوزهن تناسق التكوين الجنسي، كما أنهن مصابات بخلل واضطراب في الغدد الصماء، وأنهن يملن إلى أن يكن قصيرات القامة، وإلى النحافة فى الوزن، وإلى انخفاض مستوي الجمال فيهن، وكذلك عدم الإتزان الهرمونى.

وعرفت أن هذا البحث يشبه غيره من البحوث العلمية البيولوجية، حيث يعزل الإنسان عن ظروفه الاجتماعية والاقتصادية، ويوضع فى أنبوبة اختبار فى المعمل، وتجري عليه بعض التجارب الكيماوية. ولست أقول أن مثل هذه البحوث المعملية بغير قيمة علمية، ولكنى أعتقد أنها لا تصلح لدراسة نفسية الإنسان رجلاً كان أو امرأة. وكما رفض علماء النفس الجدد نظريات فرويد النفسية عن المرأة، لأنه أهمل المجتمع والظروف الاجتماعية التى تعيشها المرأة، كذلك فإن أي دراسة للنساء البغايا تهمل الظروف الاجتماعية لا تقودنا إلى شئ علمى. ولا يمكن لأحد أن يعتقد أن أمثال ابتسام يمارسن البغاء لأنهن قصيرات القامة، أو بسبب خلل فى إفراز غددهن الصماء. إن السبب الرئيسى فى حالة ابتسام هو ذلك الرجل الذي خدعها واستغلها وساعدته الظروف الاجتماعية والقانونية على ذلك.

خديجة

لم تشعر خديجة بأي حرج حين سألتها عن سبب وجودها بسجن النساء؟ فقالت وهى تبتسم بسخرية : قضية قتل. وقال لى أحد الأطباء أن خديجة تعانى من حالة قلق وأرق، ولا تنام إلا نادراً. وسألت خديجة عن سبب أرقها؟ فقالت أنها تقضى الليل فى مناجاة الله، فهو الوحيد الذي يعرف أنها بريئة وليست مذنبة. وسألتها كيف جاءت إلى السجن؟ فقالت : قتلت طفلى. وسكتت، وشردت عيناها فى السماء. ورأيت فى عينيها كماً هائلاً من الحزن العميق، ذلك الحزن الذي لا تراه دائماً فى عيون الفقراء الكادحين، ويشبه السحابة الصفراء فوق العينين. وربما يكون مزيجاً من الحزن ونقص التغذية والإرهاق الجسدي والنفسى الشديدين.

ورفضت خديجة أول الأمر أن تحكى لى قصتها. نظرت إلى بنظرة مليئة بالغضب والكراهية معاً، وقالت بصوت قوي: لا أريد أن أحكى

شيئاً. إنكم لا تفهمون شيئاً. أنتم تأكلون وتشربون، وتسكنون البيوت النظيفة، وتعلمون أطفالكم فى المدارس، وتركبون العربات، ولا يمكن لكم أن تفهموا شيئاً عن حياتنا نحن خدم البيوت، خدم بيوتكم. نحن ننظف لكم بيوتكم، ونغسل ملابسكم وملابس أطفالكم، ونغسل صحونكم، ولا نأكل إلا ما يبقى منكم. وفى الليل ندفع ضريبة فقرنا وذلنا من أجسامنا وشرفنا!. ثم تأتون إلينا تحت ستار العلم لتبحثوا حالتنا من أجل مساعدتنا وأنتم لا تساعدون إلا أنفسكم. والمآسى التى نعيشها ليست إلا حكايات مسلية لكم، وبعد كل ذلك نصبح نحن المجرمين والقتلة، وأنتم الشرفاء أسيادنا، أنتم الذين تضعوننا فى السجن، وتحكمون علينا، مع أنكم أنتم المجرمين والقتلة!

كان إلى جواري يستمع إلى هذا الكلام أحد الأطباء والإخصائية الاجتماعية وأحد المشرفين. ونظر إلىّ الطبيب كأنما يعتذر عما قالته خديجة، وقال ما معناه أن خديجة عصابية، أو نصف مجنونة، ويمكن لها أن تهذي بأي كلام. وقلت للطبيب أن خديجة لا تهذي، وهى عاقلة، بل ذكية. وأنها تعبر عما فى نفسها فى شجاعة. ودهش الطبيب بعض الشئ، وقال وهو يتراجع إلى الوراء: سنتركك وحدك مع خديجة، ربما تستطيعان التفاهم معاً.

وأصبحت أنا وخديجة وحدنا. وظلت خديجة صامتة طويلاً، وأحترمت صمتها ولم أسألها عن أي شئ . ثم رفعت إلى عينيها المليئتين بالحزن

وقالت: إنهم يقولون عنى أننى قاتلة، مع أننى لم أقتل. هل هناك أم تقتل طفلها ؟! وصرخت بصوت عال وهى تسألنى: هل هناك أم تقتل طفلها ؟! ولم أشأ أن أقول لها ردي على هذا السؤال حتى أتركها تحكى دون أن تتأثر بما سأقوله. لكنها كانت مصرة على أن تسمع ردي. وسألتنى مرة أخري: هل هناك أم تقتل طفلها ؟! وعبرت عن رأيى بصدق وقلت لها : نعم، هناك أمهات يقتلن أطفالهن. وليس ذلك بسبب الكراهية، وإنما بسبب الحب. وإذا كنت أنت قد قتلت طفلك، فأنا أستطيع أن أفهم كيف حدث ذلك. لابد أنك عشت مأساة، وأن طفلك كان معرضاً لمأساة أشد، فرأيت أن الموت أرحم له.

قالت بصوت حائر: الموت كان أرحم له ولى، وكنت سأحرق نفسى بعد أن يلفظ طفلى نفسه الأخيرة، لكننى صرخت حين رأيته ميتاً، وتجمع الناس على صراخى.

وسألتها : كم كان عمر طفلك؟

قالت : عشرة شهور.

وأدركت أن المأساة مختلفة عن المآسى التى رأيتها من قبل، حين كانت الأم تقتل طفلها بمجرد ولادته خوفاً من الفضيحة واكتشاف الناس لكونها أم بغير زواج. وهناك بعض الأمهات ممن يعجزن عن كتم أنفاس الوليد حتى الموت، أو ترك الحبل السري ينزف الدم حتى يشحب الوليد ويموت، ويتركن الوليد حياً بجوار جامع ليلتقطه أي قلب رحيم. ولكن

طفل خديجة كان عمره عشرة شهور، إن المسألة لم تكن تتعلق بالشرف أو خوف الأم من الفضيحة. وحاولت أن أفكر فى نوع المأساة التى يمكن أن تقود إلى أن تقتل الأم طفلها وهو قد بلغ من العمر عشرة شهور.

وقالت خديجة دون أن أسألها : أنا لم أقصد أن أقتله. لم يكن فى نيتى أن أقتله. لقد كان هو أمل حياتى، وكنت أشتغل وأشقى من أجله هو، ومن أجل أن أطعمه، فكيف يمكن أن أقتله؟ الله هو الذي قتله، هو الذي أخذه إليه ليرحمه من العذاب، لكن الناس تصوروا أننى أنا التى قتلته. وحين قلت لهم أن الله هو الذي قتله لم يصدقونى. لا أدري لماذا لا يصدقونى، ربما ظنوا أننى أنا الله الذي يأخذ الأرواح من الأجسام. ولكنى لست الله. أنا امرأة مسكينة. كنت خادمة فى بيت كبير محترم، وكنت أعرف القراءة والكتابة، وكنت أذاكر أحياناً مع ستى الصغيرة، واقرأ معها القصص، وعلمتنى بعض الكلمات الانجليزية. وكنت أسمع الراديو، وأري التلفزيون، وعرفت أشياء كثيرة عن الحياة. لدرجة أننى تمنيت أن أدخل المدرسة وأتعلم مثل ستى الصغيرة. وكنت أفهم بسرعة عنها، لدرجة أن أمها (ستى الكبيرة) كانت تقول لها: «خديجة أذكى منك ياسوسو». ونجحت الست سوسو فى الثانوية ودخلت الجامعة، وكنت أحسدها، وأتمنى أن أدخل الجامعة مثلها، لأتخرج وأشتغل شغلة محترمة بدلاً من الخدمة فى البيوت. ولكنى كنت راضية بحياتى فى هذا البيت. فقد كانت الست سوسو تعاملنى كأختها، وكانت تعطينى الكتب

لأقرأها، وتدافع عنى حين تشخط فى الست الكبيرة. وكانت الست سوسو فى نفس عمري، أي فى حوالى السابعة عشر. وكان لها أخ يكبرها بعامين هو سيدي الصغير. وكان فاشلاً فى الدراسة، ويرسب كل عام تقريباً. وكنت أشتغل عند هذه الأسرة منذ كان عمري اثنى عشر عاماً. وكان سيدي الصغير هذا يأتى إلى فى المطبخ كلّ ليلة، ويقول لى لا تقولى لماما أو لسوسو. وكتمت الأمر لأنى كنت أخاف أن تقول الست الكبيرة لأبى الذي كان يأتى كل شهر ليأخذ ماهيتى. ولم يحدث أي شئ لمدة سنوات، وتعودت على أن يأتى سيدي الصغير إلى. وفى يوم من الأيام أحسست أن بطنى بدأ يعلو عما كان. ومضت بضعة شهور. ونظرت إلى ستى الكبيرة نظرة غريبة، وقالت لى : أنت حامل يا خديجة؟ وقلت لها أنا لا أعرف أي شئ يا ستى. لكنها صفعتنى على وجهى وقالت أنها رأتنى أضحك مع المكوجى، وأنه لا بد ضحك على وفعل ما فعل. ولكنى قلت لها أن المكوجى لم يلمسنى، ثم بحت بالحقيقة وهى أن سيدي الصغير (ابنها) هو الذي كان يأتينى فى المطبخ. وظل على ذلك لمدة سنوات. وصفعتنى مرة أخري وقالت لى لماذا لم تقولى لى. ثم طردتنى. ولم أذهب إلى أبى، لأنى خفت أن يقتلنى. ودخلت مستشفى القصر العينى لألد طفلى. وقالوا لى فى المستشفى أننى يمكن أن أترك الطفل وأخرج وحدي. ولكنى لم أستطع أن أترك طفلى. وأخذته معى على كتفى. وصممت على أن أعود إلى الخدمة

بالبيوت، وأعول طفلى حتى يكبر. وحين كنت أنظر فى عينى طفلى أشعر بسعادة غريبة، وأنسى كل آلامى. واشتغلت فى أحد البيوت، وكنت أضع طفلى فى المطبخ وأنظف الشقة الكبيرة. وحين أسمعه يبكى أجري إليه لأرضعه. وبعد بضعة أيام أعطتنى الست الكبيرة حسابى، وقالت لى أنهم أتوا بخادمة أخري، لأن طفلى يزعجهم بالبكاء. ويشغلنى عن عملى، وبحثت عن بيت آخر، لكنهم كانوا يستغنون عنى بعد أيام بسبب الطفل. وفى أحد البيوت قالت لى الست الكبيرة: سنشغلك عندنا بشرط ألا تحضري الطفل معك. وقلت لها أنه لا زال يرضع منى، وأننى ليس لى أحد لأتركه معه. لكن الست الكبيرة أشترطت على ذلك. وكنت قد يئست من العثور على عمل، فتركت طفلى الرضيع عند جارة لى عجوز نظير أن أدفع لها جنيهان فى الشهر. وكان كل مرتبى الشهري خمسة جنيهات، وكانت المرأة العجوز مريضة، ولا تري بعينيها جيداً. وكنت أعود فى نهاية النهار، فأجد طفلى راقداً فوق التراب يبكى من شدة الجوع طوال اليوم. وكنت أبكى وأنا احتضنه وأرضعه، وأشفق عليه مما هو فيه، وأحس بتأنيب ضميري لأنى أتركه. وكنت أستعطف الست الكبيرة لأحضر طفلى معى لأرضعه أثناء النهار. لكنها قالت لى أنها اشترطت على منذ البداية ألا أحضر الطفل، فهى مريضة بأعصابها، ولا تحتمل بكاء الأطفال. وفى يوم عدت من شغلى آخر النهار، فوجدت طفلى مريضاً، جسمه كالنار من السخونة، ومصاب

بإسهال شديد. وبكيت حتى تورمت عينى من منظر طفلى المسكين. وحملته إلى طبيب له عيادة قريبة منى. ودفعت للتمورجى جنيها، ودخلت للدكتور، وأعطانى روشتة بها ثلاثة أدوية، صرفتها من الأجزخانة بعد أن دفعت ٢٨٠ قرشاً. وأعطيت طفلى الدواء لكنه كان يرجعه مع القئ. وظللت طوال الليل ساهرة بجواره أبكى، وكلما أعطيته الدواء يصرخ ويبكى ويرجعه مع القئ. وفى الصباح فكرت فى أن أبقى معه ولا أذهب إلى الشغل، ولم تكن أول مرة آخذ فيها أجازة. كنت قد أخذت أجازات سابقة لأبقى مع طفلى وأرضعه. لدرجة أن الست الكبيرة قالت لى: إذا تغيبت يوماً آخر فأعلمى أننا سنحضر خادمة أخرى. ووضعت الملاءة السوداء لأخرج إلى الشغل، ونظرت إلى طفلى وهو راقد على الأرض ومن حوله بركة من القئ والإسهال وملامحه أصبحت كالعجوز من الإسهال والحمى.وحين نظرت إلى عينيه الغائرتين، وهو ينظر إلى ويبكى، أحسست أنه يتعذب. وأنه سيموت. ولم أشعر إلا وأنا احتضنه فى صدري، وأضغط عليه بكل قوتى حتى فارق الحياة. وحين رأيته ميتاً بين يدي، صرخت وأنا ألطم على وجهى وأصيح: أنا اللى قتلته! وتجمع حولى الجيران، ولم أفق إلا وأنا فى السجن.

وصمتت خديجة فترة ثم قالت : لو لم أصرخ وأقول أننى أنا التى قتلته، لتصور كل الناس أنه مات وحده، أو أن الله هو الذي قتله ليريحه من العذاب. لكنى أنا التى صرخت، وأنا التى اعترفت. وحين

أنكرت بعد ذلك لم يصدقونى. وقال الطبيب الشرعى الذي فحص جثة طفلى أنه مات مخنوقاً، وأنني أنا التى خنقته. مع أننى لم أخنقه. لقد ضغطت عليه ضغطة خفيفة جداً، ولم أكن أقصد أن أقتله، لم أكن أقصد أن أقتله . ولكن الله هو الذي قتله!

وانفجرت خديجة فى بكاء عنيف، وبكيت معها دون أن أدري، رغم أننى قاومت الدموع . لكنى لم أستطع.

وسألتها بعد دقائق : ومتى ستخرجين من السجن؟ قالت بغير مبالاة: لا أدري. لا يهمنى الآن متى أخرج، إن حياتى هنا ليست أسوأ كثيراً من حياتى بالخارج. إن ما يتعبنى الآن ليس هو السجن. وإنما الصداع والأرق، فأنا أشعر كأن رأسى سينفجر، وأشعر برغبة فى الصراخ بأعلى صوتى.

ودخلت الاخصائية الاجتماعية فى ذلك الوقت وقالت لى : إن خديجة تصرخ أحياناً بالليل، وتلطم على وجهها. وقد رأينا تحويلها إلى الطبيب النفسى لتأخذ العلاج المناسب.

ونظرت إليّ خديجة وقالت : أنهم يظنون أننى أصبحت مجنونة، ولكنى لست مجنونة، ولست قاتلة، ولست مجرمة، ولكن قولوا لى ماذا كنت أفعل؟ ماذا كنت تفعل أي أم فى مكانى ؟!

ونظرت إلى خديجة بعينين تقذفان ناراً وسألتنى: ماذا كنت تفعلين يا دكتوره لو كنت مكانى؟ هل أنت أم؟

قلت لها : نعم.

وسألت مرة أخري : ماذا كنت تفعلين لو كنت مكانى؟

وقبل أن أرد كانت الاخصائية قد أخذت خديجة من يدها وأخرجتها من الحجرة. وبقيت وحدي بضع لحظات أفكر، وظل سؤالها يتردد فى نفسى كثيراً. وكنت أعرف الإجابة، وهى ليست بالتأكيد أن أقتل طفلى، ولكن أن أقتل الظلم والفقر والإستغلال فى المجتمع بجميع الأسلحة، وأحد هذه الأسلحة هى الكتابة التى تفتح الأذهان والعيون على الحقائق، ولكن خديجة لم تكن تملك من الأسلحة ما يمكنها من أن تقتل الظلم والفقر والإستغلال.

كل ما كانت تملكه من سلاح هو أن تضغط على طفلها حتى يموت، وتنقذه من الظلم والفقر والإستغلال. لقد مارست خديجة حقها الطبيعى كإنسانة تريد أن تقاوم الظلم. إنها لم تستسلم كبقية النساء المظلومات، وذلك بسبب ذكائها ، وبسبب شخصيتها المكافحة الإيجابية. لقد رفضت خديجة الإستسلام. وأرادت أن تقاوم بالفعل. وان الفعل الذي قامت به هنا لم يكن هو الفعل الصحيح، أو الفعل الذي ينقذها هى وطفلها من الظلم، لكنه كان الفعل الوحيد الذي تملكه. الفعل الوحيد الذي تستطيع أن تمارسه وتقاوم به الظروف السيئة التى عاشتها. وان الصداع والأرق والصراخ والعصاب الذي أصابها ليس إلا نوعاً من المقاومة وعدم الاستسلام. إن خديجة لا تزال تقاوم طالما هى قادرة على ذلك جسدياً

ونفسياً. إنها لا تملك من وسائل المقاومة إلا جسدها ونفسها، وهى تقاتل بهما، وتدافع بهما عن حقها فى الحياة. إن خديجة ليست مجرمة، وليست قاتلة. ولكنها مقتولة، ترفض وتقاوم قبل أن تموت تماماً. وهى ضحية ظروف اجتماعية ظالمة، استغلتها ونهشتها كقطعة لحم، ثم ألقت بها فى السجن كهيكل عظمى أكلوا منه اللحم. كيف يمكن أن تتصور بعد كل ذلك أن المشكلة داخل رأس خديجة، أو فى جسدها، أو فى خلل فى الهرمونات المؤنثة. قال لى أحد الأطباء قبل أن أسمع مشكلة خديجة أن الأم التى تقتل طفلها مثل خديجة مصابة بخلل فى إفراز الهرمونات المؤنثة وهذا يسبب ضعفاً فى شعورها بالأمومة. وقال طبيب آخر أن خديجة تحتاج إلى تحليل نفسى لمعرفة علاقتها بأبيها وأمها فى طفولتها، ولا بد أنها عانت من عقدة أوديب، وكانت تكره أمها، وقد أفسد هذا الشعور أمومتها، وعجزت عن أن تحب طفلها كأي أم طبيعية.

وهكذا كان من الممكن للأطباء والاخصائيين أن يدخلوا حالة خديجة فى متاهات علمية عن الهرمونات والغدد الصماء وعقدة أوديب الخ.

وبالطبع لم يستمع أحدهم إلى قصة خديجة كلها، وإذا سمعها فهو لا يري أن هناك صلة بين ظروفها الاجتماعية وبين تعبها النفسى أو الفعل الذي قامت به (وهو قتل طفلها) من أجل حمايته من الظلم والفقر والإستغلال. وأنها ليست مذنبة، وليست مريضة نفسياً. وإنما ظروفها الاجتماعية هى المذنبة، وهى المريضة.

فهرست

رقم الصفحة



يتناول هذا الكتاب مظاهر وأسباب «العصاب» الذي تشكو منه نساءنا وفتياتنا، وخصوصاً نساءنا وفتياتنا المتعلمات، اللاتي يفكرن بنمط جديد، ويجدن أنفسهن وسط مجتمع جديد.

ويلخص الكتاب، ويناقش، نتائج دراسة ميدانية قامت بها المؤلفة بين نساءنا وفتياتنا المتعلمات وغير المتعلمات، العصابيات، والطبيعيات.

ويطرح – في القسم الثالث منه – نماذج حية لهن.

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والأسكندرية
ومؤسسة المعارف فى بيروت